

جامعة الحاج لخضر

باتنة 1

كلية اللغة والأدب العربي والفنون

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في النّقد العربي القديم

الانسجام النّصي في القرآن الكريم

(دراسة في لسانيات النص وتحليل الخطاب)

إشراف: أ.د. عزّ الدين بوبيش

إعداد الطالبة: حليلة قّطاي

السنة الجامعية: 2023_2022

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى أُمي محبة القرآن؛

لقد وفيت بالوعد فيما أقدر،

ستظلين حلماً يا أُمي حتى نلتقي..

كنت أنت من أنجز هذه اللحظة نصًا وإنسانًا،
محبة وتوصيةً وعرفانا. لقد رحلت لكن هذا الجهد كله
لك يا أمي رعاك الله حية وفي الجنان.

إلى والدي العقل الصامت؛ ستظل تطاول محبتك
كشجر سنديان نتكى على أعرافها وإن هشت..

إلى عائلتي التي لم تكن مجرد سند بل كانت جزءا
هاما من هذا العمل.

إلى الإنسان حائرا وعالما

الإنسان الذي يظل معجزة النص؛

التي لا تقبل التأويل..

شكر

شكر خالص لمن تحمّل وعثاء هذا العمل
بانشرّاح صدر أساتذتي الدكتور عز الدين
بوبيش والدكتور عبد القادر دامخي والدكتور
عبد الله العشي، إلى الغائب الحاضر الأستاذ
العارف أبي الدكتور محمد زغينة رحمه الله،
وكل أساتذتي إذ كانوا حماهم الله معنا ولا نزال
نحقق نصا منسجما معرفة ومحبة وعطاء
وتوجيها ووفاء وعرفانا..

ولعل النبوة لا تزال في الإنسان.

مقدمة

مقدمة :

يعيش إنسان اليوم في واقع مضطرب، تتعاوره الاختلالات والهشاشة واللاتوازن، وتحوطه ثنائية موت القيمة ونهاية المعنى، إذ تكاد تكون الآلة والأشياء أكثر قيمة من الإنسان، الذي ضيع صلته بثابته وانتهت علاقته بإنسانيته بسبب ما تحدثه التطورات التكنولوجية التي تتغير في كل لحظة من أثر على الإنسان في العالم؛ رغم أن الأمم السابقة أيضا مرّت بإشكالات مماثلة، وعدم التوازن الحاصل بين الإنسان وواقعه في الحياة والعالم من حوله ليس سابقة حدثية، فقد شهدت البشرية ضياعها بابتعادها عن نصوصها المقدسة وعن يقينياتها في مقابل الانتصار لسلطة المادة باختصار سلمت نفسها للشيطان؛ غير أن النصوص المقدسة ممثلة وميسرة بالإنسان_الرسول الذي يحملها جاءت لتحل مشاكل الإنسانية، فكان النص الديني يتدخل ليؤطر حياة الإنسان لصالحه ولصالح من حوله باعتباره قيما على نفسه وعلى الأشياء من حوله. فعبر التاريخ البشري وقعت الأمم في معضلات واختل ميزان القيمة فيها، لكن تدخل النصّ قوّم الحياة وأعاد ترتيب ميزانها بيد الرسل حملة الرسالة بما هم بشر حكماء ومختارون لتقويم الحياة والواقع اللا متوازن. واستطاع النص المنزل كثابت أن يحل إشكالات وقف الإنسان محدود المعرفة أمامها عاجزاً ومشدوها لعدم وصوله إلى الإجابات.

والإنسان كما يقول النص المنزل " .. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى(6) أَنْ رَأَهُ اسْتَعْفَى(7) " العلق، فحين يصل إلى مرحلة من المعرفة وتتحقق له في صورتها المادية، يفقد ثقته باليقيني والثابت لصالح المادي والظاهر، لتحدث القطيعة بين النص والإنسان والنص والعالم.

ولهذا فإن إشكالية البحث تحيط بماهية التوافق والترابط الذي يسمح للنص في ذاته بتنظيم العالم وتشبيده من خلال الترابط والانتظام المؤسس في بنيته الداخلية ثم في إحاطته بالعالم أي بعلاقته كذات بالآخر في صورته المختلفة. وما الدراسة إلا إجابات محتملة لأسئلة

علاقة النص بالنص؛ وعلاقة النص الديني ككتاب بالمتغير: الإنسان والحياة والجماعة ثم بالعالمي والكوني. هذا الخطاب الذي تتحقق فيه صور التناسب النصية والملفوظية، من خلال النظام الذي تتأسس عليه البنى الداخلية، ثم من خلال علاقته كذات بما هو خارجه، لإعادة تنظيم حياة البشري المتعلق الأول بهذا الخطاب " وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً" الكهف الآية 54، والإشكال المطروح يتعلّق بهذا التنظيم وهذا الترابط، وسؤال الدراسة لا يتأسس على البحث في مظاهر تناسب النص وآليات هذا التناسب، إنما هو النظر إلى هذه المظاهر، كمسلمات بما أن البحث فيها مستوفى إلى حدّ كبير، لكن الطرح عمل على إضاءة جوانب أخرى في هذا التناسب القائم بين النص الإنسان والكون. كتتبع الخيط الدلالي الواصل بين السور، وأثر التنظيم الإيقاعي وارتكاز سور بعينها عليه لحاجة الدلالة المرجوة إلى شد الأذهان وإحداث اليقينية عند المتلقي، وعلاقة النص كقول بما يؤشّده من فعل، وارتباط الصوتي والإيقاعي بالفعلي كالصلاة والتلاوة.. وعلاقة النص بالطقوسي واليومي.. هذا ويبقى الإشكال الأهم الذي طرحته وعالجته الدراسة هو علاقة النص بالإنسان والعالم، فحين انتبذت البشرية عن النص حدث الاختلال واللاتوازن.

هذه الدراسة في مجملها دراسة تطبيقية تتوسّل بأداة إجرائية من أدوات الربط والتماسك والانسجام وهي الإحالة المقامية، وبعض آليات التأويل بحثًا عن صلة النص بالكوني، وأحيانًا بالرجوع إلى الخطاب القرآني وربطه بمرجعياته وما يؤسس له من حدث في حياة الناس أو ما تستجبه علاقة الذات بالغير. عملٌ يبحث في علاقة النص بالحياة؛ والإنسان والواقع والكون؛ علاقة الإنسان بالنص، ومدى التكامل الحاصل بينهما، وكيف تتحقق النصية بتضافرهما معاً؛ إذ تصير اللغة متشكلة من اجتماع انفتاحها وانغلاقها على ذاتها والآخر، ليتأسس النص من ارتباطه بالكائن الحي الذي يتحرك ويمارس اللغة، يستقبل الرسالة ويؤديها ويتعامل بها؛ وكيف يتحقق أحدهما بالآخر. وردا على إشكالات تتعلق بمفهوم النصية والخطابية، وتعلق النص ككتاب بالمتغير الذي يتحقق به؛ هل هما مفهومان مرتبطان بسياق

النص (الخطاب القرآني)، أم أن النصية تتأسس أيضا على التناسب والانسجام الحاصل بين الخطاب والإنسان الذي يتفاعل ويفعل هذا الخطاب في الحياة فيصبح ممارسة ويوميا. وليس هذا بحثا في مدى التناسب وتأكيده؛ إنما دلالاته وتحققه كواقع ملموس يؤسس لنظرية الفعل. فالخطاب القرآني هو طريقة حياة ونموذج لإنسان متكامل وسوي، حتى بأخطائه وزلاته التي بها تتحقق أناسته.

يتصدر العمل موجزًا للمفاهيم والمنهج المتبع وتيسير فهمها بمعطيات وصفية لسانية وتوسل البحث في فهم النص وارتباطاته المرجعية بالقراءة المؤولة المستفيدة من التفسير السابق واللاحق. وتحقق البحث أولا في صور الانسجام والتناسب والتماسك على أنه لهذه المصطلحات نفس الدلالة تقريبا ومثلها الارتباط والتعلق، والنصية. فالبحث ليس إثباتا للتوازن والتناسب في النص القرآني، بقدر ما هو بحث فيه وإثارة لمظاهره. في هذا الخطاب الذي جاء كدستور ليحقق بتوازنه التوازن في العالم. وعلاقة الإنسان بالنص من حيث هو حامل له ومخاطب ومخاطب به. والأثر والفعالية التي يحدثها النص (النص القرآني كنموذج على فاعلية النص الإبداعي وأي نص آخر) ولهذا كان على الدراسة أن تستعين بمعطيات المنهج الوصفي مستفيدة من بعض الآليات المعالجة في اللسانيات النصية؛ وعلى اللسانيات الجديدة القائمة على اللغة والثقافة والشخصية ومحصلة قراءة الترابط بين الخطاب وما يمثله بتأويل كل ذلك.. وعلاقة الجسد بالنص بما تمثله الطقوس من ثقافة في فهم الإنسان وتحديده. وتأويل هذه العلامات من أجل تحقق فاعلية التواصل. ابتداءا بفهم وتحقيق التناسب النصي الخطي من خلال الشكل والدلالة، فمجتمع السور القرآنية تأسس أيضا على الترابط والتكافل الدلالي وتحقيق الانسجام والتناسب الكلي من الصوت إلى البنية فالدلالة. ثم إلى علاقة الخطاب القرآني بحامله وأصناف متلقيه، إنها عملية ارتباط متوالية، ومتجددة بتجدد المبلّغين. ثم تأثير النص على العالم الذي جاء من أجله؛ عالم يتشكل من المؤتلف والمختلف؛ يتحقق فيه هذا النص أو يعجز عن التلاؤم والتماسك لمعارضة الحامل للمحمول.

وقبل التطرق إلى النظام المنهجي الذي اتخذته الدراسة سبيلا لفهم وتحليل الخطاب القرآني وعلاقته بالعالم كنسق وكون؛ كان من الصعب اختيار مقطّعات من النص لمعالجتها أو اختيار نصوص بعينها دون غيرها لفهم هذا الخطاب وعلاقته بالعالم. ثم استقرت الدراسة على اختيار نماذج تتوافق مع الموضوع المدروس. فتعاورت هذه النصوص بين القصيرة والطويلة، ومن أول الخطاب القرآني حتى آخره. كما تدعّم العمل بنصوص من السيرة كنصّ مترابط بالنص القرآني أو أحداث ووقائع تابعة شكلت نصا يتألف مع النص.

واستلزمت الدراسة في خطاطتها المنهجية تصديرا مفهوميا وفيه موجز عن أهمية لسانيات النص والحاجة إلى توسط النص للعالم؛ ثم جاء البحث في أبواب تعلقت بالنص والإنسان وهي:

الباب الأول: كان إجابة عن أسئلة بناء النص / أسئلة بناء الذات؛ وتم فيه دراسة تماسك النص الداخلي وانسجام جزئه مع جزئه ثم مع كلّ، بتتبع العلاقة بين النص وغيره؛ على أساس أن الانسجام أو الترابط في الخطاب يقوم على العلاقات، ففي الفصل الأول: الخطاب القرآني: انسجام الجزء _ الكل: أو تماسك النص _ النص.

تتبعت الدراسة بصورة عابرة اصطلاحي الانسجام والاتساق مربوطين كل مرة بنماذج تطبيقية. وماهية النص / السورة كنسق، ثم علاقات النص بالنص؛ السورة بالسورة والجزء بالجزء. كما عرج الفصل على التناسب في تسمية السور وعناوينها بمتونها، وإلى ترتيب السور وعلاقته بالترابط النصي الكلي.

أما في الفصل الثاني فقد تم فيه دراسة الانسجام الإيقاعي؛ واتزان الشكل وعلاقته بالتوازن في المعنى. ثم الانتباه إلى ظاهرة صوتية قرآنية هي الارتكاز على حرفي النون والميم في نهايات الفواصل، واتكاء الخطاب القرآني في وصل آياته على حرف الواو؛ وأثر هذه الأحرف في استمالة السامع وعلاقتها بالتوازن النصي وأثره على المتلقي.

بالإضافة إلى البحث في انتقال النص من الكتابة إلى الخطاب المؤدى، أو عودته إلى شكله الأول الذي نزل به. وخصيصة الترتيل الملازمة للخطاب القرآني، كخصيصة محققة للفهم وتجسيد الخطاب.

أما في الفصل الثالث؛ فقد درس الفصل التوازن الحاصل بين مبنى النص والمعنى المشيّد، من خلال إعطاء أمثلة لالتزان بين القولى والفعلية، كالصلاة، وعلاقة النصوص/ السور بجهد القراءة المبذول لفهم النص. والدور الدلالي الذي تقوم به البلاغة كأثر فني جمالي مرتبط بالخطاب القرآني.

وفي الباب الثاني المعنون ب: **الخطاب القرآني من أسئلة بناء الذات إلى أسئلة بناء الكون**؛ فقد تم التدرج من الحالة الملفوظية للنص القرآني إلى علاقته المتواصلة بالعالم، من خلال مباحث الفصول الثلاثة الآتية:

الفصل الأول: النصّ القرآني_من خطاب الحواس إلى خطاب العقل

حيث يتأسس النص في جزء منه على قوته في التأثير على الحواس، هذه التي منحها النصّ قيمة الانقياد والتأثير والتسليم معاً، كما يركز في فهمه على أدائه وعلاقة الجسد والطقوس الشعائرية بالتأويل والفهم الذي هو نص يتأسس على نص قبليّ فيكون النصّ المؤسس للعالم (النصّ المقدس) نصاً ثابتاً والعالم نصاً متغيراً. والوصول إلى المعرفة اليقينية بالتدرج من المعرفة الحواسية إلى المعرفة العقلية ووصولاً إلى المعرفة الروحية ومرحلة الرؤيا، والنبوة كمرحلة من المراحل العليا في الفهم والتأويل والرؤيا. والتي قد لا تتكئ على المرجعيات المعرفية الابتدائية السابقة وإعطاء نماذج عن ذلك من خلال النص. وجاء الفصل الذي يليه: من خطاب العقل نحو خطاب الرّوح: موضحاً من خلال النص كيف تتحقق معرفة عرفانية كنص يؤسسه الثابت بالجواز أو العبور من الحواس إلى ما بعد الحواس/ سواء بتخطيها من

خلال المعرفة الحاصلة بالقلب المفكر، أو بالتدرج من المعرفة التي تتحقق بالتدرج بعمل الحواس ثم العقل ثم تحقق المعرفة اليقينية بالروح.

وفي الفصل الثالث: والذي عنون بالنص_ الرّسول والآخر؛ فقد اهتم البحث بمعالجة شخص النبي كوسيط ورسالة في نفس الوقت، واعتماده كنموذج للنص في هيئة بشرية، أو كخطاب يتحرك، واتباع النص النموذج من خلال السيرة القولية والفعلية، وتأثيرها على العالم المتشكل من الرديف البشريّ والمغاير.

وفي الباب الثالث: الذي كان فصول في علاقة النص بالواقع، المجتمع والعالم، من اللغة/ الوحي وعلاقته بين الفضائين الزمانيّ والمكانيّ، إلى الخلافة وأثرها وكذلك الإمامة بما تمثله كنوع من التفسير للنص (التفسير الذي هو نص يرتبط ويشكل انسجاماً او اختلافاً مع النص المؤسس عليه) وحملة التفسير كذوات تترجم النص للعالم، ومدى التناسب بينها وبين ما يطلبه النص وما يتحقق على الواقع. ولهذا عنون الباب ب: **الخطاب القرآني/ الديني: التماثل والاختلاف:**

وجاء على الفصول الآتية:

الفصل الأول في النص والواقع المطابقة والاختلاف، فقد أولى الاهتمام بإعادة البحث في مفهوم الإنسان وعلاقته بعالمه، هل هو الإنسان الذي تطبه الحداثة أم أنه إنسان محقق لانسجامه الحاصل بين خيار وقرار كما هيأ له الخطاب. ثم انتقل البحث إلى وثيقة دينية مهمة وهي وثيقة المدينة، التي أرسيت معالم قبول الاختلاف من خلال النص، وأسست لمفهوم التقبل والاختلاف ونبذ الاقصاء بين الجماعة في جزئها وكلّها لتحقيق انسجام وتآلف المجتمع وسلامه.

أمّا الفصل الثاني والذي عنون: بالخطاب القرآني بين التأول والتأويل، من خلال توضيح نماذج الفهم الخاطيء والصحيح للنص. وتمثيل الخليفة والإمام للنص وعلاقته بالواقع

وتأثيره كسلطة عليه، والتي تعد سلطة مرفوضة في مختلف الخطابات الدينية إلا من حيث هي وسيط بشري غير مقدس وغير ثابت لفهم النص وتحققه. أي تلاؤم هذا النص المتحرك مع الثابت في إطار ما يقول به، فإذا تحقق التخالف وانتفت الترابطية المنطقية، كان الرفض. وانتهى الفصل الأخير: إلى علاقة النص بالعالم ابتداء من الكلمة والتأثير المتحقق بتغيير اللفظة للعالم الذي يجري فيه الخطاب، وتحقق ذلك في الخطاب القرآني كخطاب عالمي. وتأسس المعجم القرآني على الكلمة القرآنية في فهم العالم الذي تتأسس وتنشأ فيه وتحققه كما وتحدث التغيير فيه.

وأشار البحث في هذا الفصل إلى الجغرافيا التي يتحرك فيها النص والعوالم التي يرتبط بها وهي ليست كلها واقعية فجزء كبير من العالم هو متخيل غير يقيني ولا مشاهد، إنما أسس الخطاب القرآني لفهم العوالم غير المتوقعة من خلال تهيئة الذهن وربطه بالتخيل لتتهدى للذات عوالم عيش مرتقبة تتجاوز العالم المعاش، ولكنها تتأسس على الحدث فيه. عوالم الجنة والنار وأمكنتهما وأزمنتهم.

وترصد الخاتمة في النهاية أهم ما توصل إليه البحث من نتائج وإحالات. وأغني بملاحق ترصد قائمة لأهم الأعلام والمصطلحات التي وردت في البحث.

واتكأ البحث على نصوص من القرآن الكريم كمصدر أول، وأهم التفاسير العربية القديمة والحديثة وفيما يلي أصحابها وتفسيرهم التي تناولها البحث:

تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، وتفسير الانتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي.

وتناول لعبد الرحمن بن ناصر السعدي تفسيره تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. مقدمة محمد بن صالح العثيمين. وتفسير الإمام محمد الطاهر بن عاشور. التحرير والتنوير. بالإضافة إلى تفسير محمد بن أحمد القرطبي الإمام. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق

عبد الله التركي. ومن التفاسير المعاصرة تفسير محمد عابد الجابري في أجزائه الأربعة؛ التفسير الواضح حسب ترتيب النزول. وكتابه فهم القرآن الحكيم. التفسير الواضح حسب ترتيب النزول. القسم الثاني والعمل عن مركز دراسات الوحدة العربية. وكذا كتابه: مدخل إلى القرآن الكريم، في التعريف بالقرآن. مركز دراسات الوحدة العربية. ومراجع أخرى عربية وأجنبية أفادت الدراسة منها في مختلف فصولها؛ ومنها: دراسة علي حرب. التأويل والحقيقة. عن دار التنوير. كما استعانت الدراسة بمقولات مصطفى ناصف في الرؤيا والتأويل، فضلا عن مجريات التأويلية من خلال أعمال بول ريكور المترجمة.

وكان ضروريا الأخذ من بعض المفاهيم والرؤى الفلسفية في المؤلف والمختلف ومن المصادر الفلسفة الغربية المعاصرة لعلي عبود المحمداوي؛ وبعض أعمال محمد شحور ككتابه السنة الرسولية، أو تفاسيره الإلكترونية. وأعمال محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب. وآخر كتبه: قراءات في القرآن. الوصية الأخيرة لمحمد أركون. تر: هاشم صالح وكتابه العلمنة والدين. الاسلام المسيحية الغرب.

ومصادر أخرى لمستشرقين ك: جاك بيرك. إعادة قراءة القرآن. ترجمة منذر العياشي. وكتاب المستشرق الياباني هوشيكو هيزوتسو. الله والانسان في القرآن. ترجمة وتقديم محمد هلال جهاد وكتاب النص العالم والناقد لإدوارد سعيد.

ومن أهم الكتب المعتمدة للتأسيس النظري كتاب النص والخطاب والإجراء لروبرت دي بو جراند. والنص والسياق لفان دايك.

ويبلغ البحث منتهاه رغم المعوقات التي هي لازمة في كل بحث، هذه المعوقات التي يسرت التكنولوجيا الكثير منها كالبحث والتنقل إلا أنها أعاقت في أحيان أخرى كضياح مرفق الأطروحة أكثر من مرة وإعادة قرابة 80% منها، ثم وصول البحث في ختامه في ظرف وكارثة صحية يتأثر بها العالم أجمع منذ قرابة العامين. ما أدى إلى فقد كثير من المرشدين

والأهل المساعدين، فقدان والدتي قبله كان له أثر عميق في عرقلة البحث ومحاولة الانسحاب بعد ظروف صحية ونفسية مرهقة.

في الختام كل التقدير لأستاذتي الذين وقفوا مع العمل كما عهدتهم. الذين ما عهدتهم إلا نصا متحركا بمعرفتهم وإنسانيتهم. ولأمي كلثوم رحمها الله سيده المعرفة ومحبة القرآن ولأسرتي جميعها وأطفالي نصوص العالم القادم.

تصدير مفهومي

تصدير مفهومي:

موجز عن أهمية لسانيات النص، والحاجة إلى توسط اللغة للعالم:

يمكن الإشارة إلى أهمية لسانيات النص كعلم يهتم بالنصوص أو كمجموع آليات وأدوات نصية إجرائية لم تكن غايتها إثبات الترابط والتماسك في النص فقط، إنما العمل على معالجة الظواهر وصورها في العمل الذي تشكله. ومعالجة أهمية العلاقات في تشكيل البنى الكلية؛ الجمالية والدلالية. خاصة إذا ما ارتبط الأمر بنص كالخطاب القرآني، الذي جاء أساسا كخطاب للتعامل به قولاً وفعلاً. بل جاء كموجود مقرونا بعلاقته بمتغيرات وحركية الشارع والحياة، ولم يتأسس كنص أو مكتوب (إذا قارننا مفهوم النص بالكتابة أو كملفوظ عند اللسانيين بنفست مثلاً؛ لا بالمفهوم الفقهي الذي ينطلق من مقولة مرتبطة بالمرجعية الدينية أن النص ما استغنى بالتنزيل عن التأويل وخاصة عند المدرسة الفقهية الشافعية؛ أي النص بما يحيل على الثبات وعدم التحول على نقيض اتجاه الباطنية الذي يتأسس مفهوم النصية عندها على استحضار الغائب وضرورة التأويل)؛ وذلك يتم بعد مرور النص أو الوثيقة القرآنية بمرحلة التخاطب والتعامل أو المرحلة الشفوية إذ يتم تلقيه عبر مراحل سماعية وأدائية جاءت على التدرج من مخاطبٍ أعلى (جبريل، محمد) فتداولاً وتدرجاً إلى متلق ومخاطبٍ سفلي، أي انتقال حركة تداوله أفقياً عن طريق السماع والتداول بين البشر وما يتحقق من ارتباط وتأثير بين النسقين، النص والإنسان وهو المطلوب معالجته من خلال هذا العمل. ولا يتم هذا التداول للنص به مخاطبة فقط، وإنما كخصال حياة، ومنهج فعلي تطبيقي يبدأ من دقائق الأمور على أوسعها ما يصل إلى علاقة الإنسان بالنص والتعامل مع الكون. ويبدأ من قيمة الفعل في أقصر ميزان زمني؛ من الثانية والدقيقة واليوم فالشهر، فالسنة، والتاريخ، وعلى امتداد الجغرافيا والبياض المكاني والزمني..

وبداية فإن البحث لا يدّعي استخدام إجراءات علم النص، أو اللسانيات النصية كما هو متعارف عليه، بحيث تشتغل الدراسات في استخدام آليات اللسانيات النصية على الإجراءات التحليلية المعروفة والقرينة بالدراسات النصية عادة، ولا على تتبع خطوات تكامل الملفوظ وتحقق قيمته الدلالية من خلال الربط والإحالة الداخلية، والوصل والفصل، والحذف والتقديم والتأخير.. بل إن العنوان الفرعي الذي اتخذته البحث ليوضح ويفسر غموض الآلية في معالجة النص بتعالقاته وحده يكفل فهم الأطر العلمية التي يتحرك فيها هذا العمل. إذ يربط الصلة بين فروع عديدة من العلوم الإنسانية، كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، ونظرية الأنساق؛ والنظرية النصية؛ هذه الأخيرة التي استفاد منها البحث في مفهوم واحد ووسعه وهو ما يسمى بالإحالة المقامية؛ وعليها قام فهم التناسب داخل النص وخارجه. إذ ارتباط النص الداخلي كان مفروضا لأداء قيمته الفعلية وتنشيط فاعليته من خلال ارتباطه فعلا وممارسة وقراءة ثم انتقاله من الذات الواعية الى العالم المتحقق بهذا النص، ثم المحقق له والمشارك في إنتاجه، وكأن دورة تأدية النص القرآني من حيث التعامل به في اليومي وفي الاجتماعي وفي كل مناحي حياة المسلم، ثم تحقيقه بحركات وأفعال لا تكتمل إلا به جعلته نصا يحتاج إلى آخره فالإنسان هو الجزء المتمم للخطاب القرآني من حيث العمل به. فيصبح النص جزءا من هذا العالم مرتبطا به أو محركا له، أو متفاعلا معه، أو يصبح عالما مبنيا عليه. وطبعا لا يتحقق هذا التحول من النصية الى العالمية وإلى حياة النص إلا بالذات الفاعلة والواعية التي هي الإنسان. ولهذا تعلق كل الفصول بهذه العناصر المرتبطة.

والمعروف أن منظومة الكون تتكئ في بنائها على التناسب، فكل حركة تتأسس على ما يقابلها، أو ما يتعقبها، أو ما يترتب عليها، كتعاقب الليل والنهار، وحركة المدّ والجزر، وترتب وانتظام الزمن، ونظام المجموعات الكوكبية، ومنظومة الشمس ودوران الكواكب المحيطة بها بانتظام يحفظ لها مسافات أمان متناسبة ومتوازنة، بما في ذلك ما يتحقق للأرض من تناسب مناخي وجغرافي وجيولوجي وفضائي يضمن الحياة المثلى

للكائنات المتواجدة عليها ثم انتظام الإنسان في جماعات ومجتمعات، انتظام اللغة والحياة. ولفهم كل هذا يتأسس تيسير فهم الكون بمنظومة أخرى يتحقق بها التواصل إنه نظام اللغة، اللغة التي تكفل الفهم والتحاور والاتصال والتواصل، والإبلاغ والتبليغ، وبها تقوم المحاجة ومن خلالها يتأسس المعرفي، كما ويتحقق العلمي، وقد يرقى إلى الفني والجمالي، ومنذ الخلق الأول_ خلق آدم؛ كانت اللغة سر تمايز واختلاف لـ(الإنسان) عن بقية الخلق، ومنحته حق الأفضلية بسبب معرفته الحاصلة باللغة، فهي بالنسبة إليه ما جمعه وربطه بالعالم الخارجي، وحققت انتماءه له ثم ترويضه. وهي وسيلة ربطته بما يماثله وما يختلف عنه، وكانت وسيطاً لأخذ المعرفة وإعادتها وتقديمها وإعادة إنتاجها؛ هذه اللغة التي كانت هبة الرب، وخصيصة التمايز عمن هو أعلى في الخلق: (الملائكة) وعمن هو أدنى: (الشیطان)، فكان بينهما كائناً سواء قادراً على الإحاطة بالعالمين والوصل بينهما، فالإنسان باللغة كائن قادر على التغيير وإحداث المختلف: يعلم ما لا يعلمه غيره، ويعلم معه، منحه اللغة القدرة على التواصل مع الآخر والإحاطة والفهم ومنحته المعرفة؛ وكل المعرفة جاءت بفضل اللغة كوسيط، إن لم تكن هي في ذاتها معرفة مختلفة، لم تحظ بها الخلائق السابقة، منحه اللغة والتفكير بها ومن خلال عقله القوامة على الخلائق، اكتسب بها فضائله، وبها أيضاً خسر عليته. لقد أعلنت الملائكة الإنسان ككائن لغوي، وسجدت له بسبب هذه الخصيصة المميزة له. لكن تواصله مع عالمه وتواصله مع الكائنات أوقعه في الخطأ الذي كان لا بد منه لمجابهة الخير والشرّ معاً، إذ لا يتشكل العالم من المؤتلف فقط، هناك أيضاً من يتربص لوقوع هذا الأدمي في الخطأ ولا يتفق معه، هناك اختبار للعيش والحياة وعلى من هم في الأرض محاولة التناسب والانسجام، والطرق متعددة لذلك، والخيارات مكفولة بحرية: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ. .". الآية 30 البقرة.

(وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين 31 قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم [32]) (البقرة 31_32). 5 وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) [البقرة 34] فالجدل الذي قام والمحاججة لم تكن دون وسيط اللغة، (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة... ولا تقربا... وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو... فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه..) [البقرة 35_37].

فقد تم تواصل العليّ/ الأعلى بمن هو أدنى منه من الخلق بالكلمات وبـ (اللغة)، وتحقق الأفعال: الأوامر والنواهي تمّ بها أيضا، ثم تحقق بها الدعاء والمُحاججة والعصيان والتوبة، والتواصل بين الفردي والجماعي لا يقوم إلا بما يتفق عليه وفق نظام إشاري مخصوص.. فهذا الخلق في اختلافه وعدم تساويه، فرّق بينه بعلم اللغة وامتلاك أسرارها، وفي اتفاق هذه اللغة مع ما تحيل عليه، بل وعلاقتها بالمشاركين في عملية التواصل بها، والسياق الذي ترتب فيه حدوث الخطاب بالشكل الذي ظهر عليه، ذلك أن السياق من أهم العوامل في الاتصال وأداء المعنى كما يثبت رواد المدرسة السياقية بربادة (فيرث)، تأكيدا على الوظيفة الاجتماعية للغة. كما أن للسياق أضرب، تبدأ باللغة فالعاطفة ثم الموقف أو المقام وتنتهي بسياق المفردة أو اللفظة في الحضارة.

ولا يقف مفهوم الانسجام والتناسب والترابط الذي تتقناه الدراسة عند حدود الملفوظ: النص الخطي، بل يتعداه إلى مفهوم تناسب الخطاب من ارتباط النص والإنسان وارتباط النص والواقع وارتباط النص بالعالم، بما أن مفهوم الانسجام في حقيقته يقوم على العلاقات_ فالإنسان هو محور الخطاب القرآني، والعالم يقوم على وجود الإنسان فيه، وهو وجود لا يتأسس إلا باللغة التي هي أداة تواصله واتصاله بالعالم (كما سبق). بما في ذلك: اللغة/ الكلام_ الذي يتشكل في طرفي تحققه من الإنسان، ومدار البحث كيف تحققت النصية متأسسة من النص ومتلقيه، أو من النص ومن يتعامل به ومعه. إنها دعوة إلى تأسيس

لسانيات جديدة تقوم على اللغة والثقافة والشخصية كما يذكر إيميل بنفنست في حديثه عن ذاتية اللغة وأثر الشخصية على العالم باللغة " إن الإنسان ينشئ ذاتا داخل اللغة وعبرها لأن اللغة وحدها تؤسس مفهوم الأنا **égo**، في الواقع وذلك في واقع اللغة، هو ذاته واقع الوجود_ الكون"¹؛ يثبت ذلك ظاهرة تقاطب الضمائر اللسانية، إذ تتعاور حالة الأنا والأنت، فكل أنا هي أنت في منظور أنا أخرى.

إنّ أغلب الدراسات في التناسب وانسجام الخطاب القرآني _ وهي ليست قليلة أبدا بدءا _ من الكتاب الذي جنح الى البلاغة لابن قتيبة، مشكل تأويل القرآن، ومرورا بالتفسيرين البيانيين كأهم تفسيرين أو عمدة التفسير كما اعتبرهما الجابري، لمحمد بن جرير الطبري، (جامع البيان في تفسير القرآن)؛ و (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) للزمخشري أبي القاسم؛ والبرهان في علوم القرآن للزركشي؛ حتى الدراسات اللغوية واللسانية المعاصرة، ومنها الدراسة اللسانية المعاصرة الوافية للدكتورة خديجة إيكور: الانسجام في القرآن الكريم²، فضلا عن عديد مشاريع البحوث التي تتواصل لإثبات انسجام الخطاب القرآني بمعايير المعروفة من ارتباط ووصل وحذف وفصل..؛ هذه الكتب والأبحاث اهتمت بالدرس اللساني، ودرست النص أو الخطاب في مستوياته المختلفة، فجنحت إلى التناسب الصوتي، والبياني، ومناسبة السور وتوافق الترتيب، وعلاقة المقدمات بالمختتمات، ولم تكن دراسة للدستور القرآني الذي جاء من أجل الإنسان إلا في بعض مناحي تعالق الخطاب بسياقه أو المقام الذي أحال وتدخل في وجوده أو علاقته بالمتلقي، هذا الانسجام الذي يُعنى في حقيقته بكيفية تناسب هذا الخطاب مع من أرسل إليه.. وكيف يكون النص/

¹ _ إيميل بنفنست. ذاتية اللغة. ترجمة صابر الحباشة. مجلة حكمة. فرع دراسات. نشر بتاريخ: 7 _ 3 _ 2021.

² _ هذه الدراسة وجدت لها الباحثة ملخصا مطولا ومهماً على موقع الكتروني، وحاولت جاهدة الاتصال بصاحبها لأهمية العمل فيما بدا من موجز عن الدراسة، والتواصل مع دور النشر المغربية لمعرفة إن تم نشرها، لكنها لم تتوصل لشيء، يبقى أن تنوه الباحثة بقيمة هذه الدراسة من خلال الطرح الذي قدمته في الموقع على شكل ملخص او مقدمة للبحث، ولكنها على ذلك تبقى دراسة لسانية بحتة.

الخطاب في دلالاته نموذجاً عن علاقة اللغة بالعالم الخارجي، كما جاء فيه: (ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً) الكهف 54 من أجل أن يكون وثيقة حياة، يقرأها، ويتعامل بها ويؤديها؛ علاقة الإنسان بالنص، ومدى التكامل الحاصل بين هذا وذاك، وكيف تتحقق النصية بتضافرها معاً؛ إذ تصير اللغة متشكلة من اجتماع انفتاحها وانغلاقها على ذاتها والآخر، يتشكل النص من ارتباطه بالكائن الحي الذي يتحرك ويمارس اللغة، يستقبل الرسالة ويؤديها، يتعامل بها بينه وبين من يماثله، وكيف يرتبطان، وكيف يتحقق أحدهما بالآخر، لأن الواقع هو الذي يجسد المخطوط، اتفاقاً واختلافاً، يلتحم هذا مع المفهوم اللساني "الإحالة المقامية أو الإحالة على المقام، الذي جاء به ديوجراند، الإحالة إلى خارج النص، Exphoric Référence وهي ترجع إلى أمور تستتبط من الموقف، لا من عبارات تشترك معها في الإحالة في نفس النص أو الخطاب¹"، فالنص لا يفهم من علاقاته النصية فقط ولا يعلن عن ترابطه إلا باستنباطه من علاقته بما هو خارج النص، الذي يعتبر بصورة ما جزءاً منه، وعاملاً فيه.

الاهتمام بالنص ككل متكامل، من أدق جزئياته (منذ الصوت والكلمة) حتى الدلالة، ثم قراءته وتداوله والعمل به، فيما اعتمدت دراسات أخرى ابتداءً من الدرس النحوي عند هاريس، هذه الدراسة التي تطورت مع فان دايك ودي بوجراند، دراسة روبرت دي بوجراند التي حددت النصية بسبع عناصر، وهي عناصر يتفق في اجتماعها إنتاج النص، وتناسبه وانسجامه يتعلق أكثر باستمرارية النص دلالياً من خلال العلاقات التي تربط بين مفاهيم ناظمة للنص، كما يتفق دي بوجراند مع ديسلر² في هذا، واعتبرت النص حدثاً تواصلياً يتحقق بهذه العناصر أو الشروط والتي نستطيع في الحقيقة تقسيمها إلى شرطين داخلي

¹ - روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1. 1998، ص 332،

² - روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص201.

وخارجي؛ لأن هذه الشروط المفاهيمية السبعة لتأسيس النصية لا تعدو أن تكون إما عوامل تناسب من الداخلة، أو ربط بما هو خارج. وهذه العناصر هي:

الحبك: أو الالتحام، وفسرها البعض كتمام حسان بتلك العناصر التي وضعها في مفهومه للاتساق ونجد المقبولية والتناصية، "ليس الحبك محضا خاصا من خواص النص، ولكنه أيضا حصيلة اعتبارات معرفية (بنائية) عند المستمعين أو القراء"¹، إن من شروط النصية تحقق فهم النص، وفي الخطاب القرآني الأداء به: وقد حاولت الظاهرية تقصي علاقة التلقي بالنص وأنه لا وجود له دون متلقيه (فاهما/ مدركا للظاهرة) "وبذلك أصبح المنظور الذاتي هو المنطق الجديد في التحديد الموضوعي ولا سبيل للإدراك والتصور الموضوعي خارج نطاق الذات المدركة ولا وجود للظاهرة خارج الذات المدركة لها"². ولهذا تعاملت مدرسة فرانكفورت في محاولة فهم العالم وتغييره بتقديمها حولا لأزمة الإنسان المعاصر وتطلعاته المستقبلية إذ هي قبل كل شيء نظرية نقدية للمجتمع³. لأن نقد المجتمع هو في الوقت ذاته نقد ذاتي للأفكار التي تصدر عنه⁴. ونحن نحاول الالتماس بهذه النظرية لأن الأفكار التي تنتسب للمجتمع الإسلامي، صادرة عن خطابه الأول أو دستور الاجتماع والديني والفكري "الخطاب القرآني"، لا يعني هذا نقد النص القرآني كنص. إنما نقد الخطاب الصادر عنه. فسرا أو فهما أو تأويلا وقراءة أو استعمالا.

مع الخطاب القرآني لم يعد الحبك والذي أحيانا يترجم بمصطلح الانسجام من اللغات الأخرى، من تصميم القارئ/ السامع أو المتلقي فقط، إنه قرين بمؤدي النص أيضا وهو حصيلة مهارات فردية لمؤدي النص، هذه المهارات تتعلق بالصوت والأداء والتجويد والترتيل

¹ Lewandowski theodor، Linguistishes، Woerterbuch، Heidelberg، Wiesbaden، 1994s، p 546،

² بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، م ث ع، ط المغرب، ط1. 2001. ص34،

³ ينظر: إبراهيم الحيدري، النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة، دار الساقى، بيروت لبنان، ط1. 2012، ص 121. 123 122

⁴ م نفسه ص 123،

بإمكانه من خلالها أن يعيد الربط بين العناصر والأوضاع في النص وبين مراجعها. فالحبك/ الانسجام حسب (ليفاندوسكي) هو أحد خصائص الارتباط بين الأشياء وهو من حيث هو إجراء: حصيلة للتلقي الابتكاري البناء¹. إذن لا نصية بدون تأسيس من المتلقي المشارك بصورة ما في هذا النص.

السبك: ويرتبط هذا المصطلح بمفهوم الإتساق عند الغرب، كما يمكن أن يكون حسب الإحالة المعجمية جعل الكلام في قالب، طرحته نظرية الأدب في اصطلاح الوحدة وهو يختص بالوسائل التي تتحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النص.² ويمكن تعقب ذلك قديما في دراسات الجاحظ، إذ يقول: "وأجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفرغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"³ هذه السهولة والمرونة التي تتفق فيها أجزاء اللحمة الواحدة كأن لا نتوء فيها فقط سهولة ويسر وسيولة ماء كالدهان كما أحسن الجاحظ وصفه. منبها إلى علاقة الكلمات ببعضها، وأن تحقق السيولة والجريان في اللسان ثم الفهم والبيان، لا يكون إلا بـ"أجزاء البيت المتفقة الملساء، اللينة العاطف السهلة، [الألف واللام للتعريف مضافة].. خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد.."⁴.

ويرجع البعض المعنى ذاته للإتساق. فيصير هذا الالتحام تعبيراً عن حاجة النص كنسق أكبر، وأجزائه الداخلية كأنساق أقل أو كعناصر تحقق تكاملاً مطلوباً كحاجة أعضاء الجسد لبعضها وعدم اكتفائها الذاتي بخدمة ذاتها. ثم تشكلها في صورة إنسان كامل.

¹ _ محمد العبد، حبك النص، منظورات من التراث العربي، مجلة الدراسات اللغوية، الرياض، السعودية، ط2، 2001. ص55.

² _ معين بن محمد، السبك والحبك، منتدى الخيمة، com.khayma.da Munta، نشر بتاريخ 2005/09/27.

³ _ أبو عمرو بحر عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون. دار الفكر العربي، بيروت، ط 1968 ج1. ص 89.

⁴ _ المرجع نفسه، ج1، ص 89.

الإعلام: أو الإعلامية ويصطلح عليها أيضا بالإخبارية إذ أنها تتعلق بموقف المتلقي من النص ومدى تأثيره به، وما يقع عليه منه، من دهشة أو تجاوب أو تأثر سواء بالرفض أو القبول.

القصد: وهو أيضا عنصر خارج نصي، يتعلق بالمرسل للخطاب، وهو ما يتعلق بنية المتكلم فالـ " دلالة عند العرب فهم المقصود، كما اتفق أهل البلاغة لا فهم المعنى مطلقا"¹؛ إذ هو من عوامل السياق التي تساهم في فهم البنى والمكونات اللغوية، "فالسامع يتوصل إلى استدلالات عن المعنى الذي قصده المتكلم اعتمادا على شيئين؛ الأول معنى ما قاله المتكلم، والثاني الافتراضات المسبقة أو السياقية والمبادئ التواصلية العامة التي يحرص المتكلم عادة على اتباعها أثناء المحادثة (أو الخطاب)، وبهذا يصل السامع إلى "تضمينات" ما قاله المتكلم"²، وهو من اهتمامات التداولية أو كما تسمى المقامية³ لأنها تعنى بالقصدية أكثر من تحليلها لما جاء من معاني الفهم عند السامع أو المتلقي.

المقام: أو المقامية، أو السياقية ويصطلح عليها أيضا بالـ(موقف) أو الموقفية، وتنقسم إلى أربع سياقات (عاطفية، وموقفية ولغوية وثقافية أو حضارية)، وهي تتضمن برأي دي بوجراند: "العوامل التي تجعل النص متصلا أو مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه، وحينها يأتي النص في صورة عمل يمكن له الاتفاق مع الموقف أو مراقبته، أو تغييره"⁴؛ كما اصطلح عليها بالمناسبة أيضا الخاصة بالنص والموقف الذي أسسه، ويكون عادة عنصرا محيطا

¹ _ محمد بن علي بن القاضي التهانوي، كشاف اصطلاحات العلوم، تح علي دحروج، لبنان ناشرون، بيروت، ط1. 1996، ج1. ص 793.

² _ جورج يول، التداولية، تر قصي العتابي عن اكسفورد، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، دار الامان، الدار البيضاء، ط1. 2010، ص 13.

³ _ جورج يول المرجع السابق، ص 15.

⁴ _ روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 104.

بالنص أو الخطاب كلغة ولا يتحقق بدونها سابقا أو لاحقا كما مع الخطاب القرآني¹، أو عنصرا مهيناً له، كالظروف التي ساهمت في إنتاج خطاب قبل الكتابة، وقد يكون ظروفًا يعاد فيها إنتاج الخطاب من الخطية إلى الخطابية؛ فالعملية تعمل بشكل دورة يؤول الخطاب إلى نص وقد يتحول النص إلى خطاب. وفيه يندرج عنصر الإحالة اللانصية أو السياقية كما ذكرنا سابقا، وهي إحالة عنصر لغوي على عنصر إشاري غير لغوي موجود في المقام الخارجي.

المقبولية/ أو القبول: ويتكئ على المخاطب به النص أو من يستقبل الرسالة (ذات التلقي)، إذ تتأسس المقبولية من الأثر الذي يتركه النص على المخاطب به أو كما يذكر بنفست في تعريفه للخطاب حضور نية الطرف المخاطب التأثير على الآخر، فقبول النص يتحقق بالأثر الذي يتركه في متلقيه قارئه أو مستمعه. ويتحقق القبول يتحقق نوع من المشاركة في النص تسمح باستمراره وامتداد دورته.

التناس: ويمكن أن يكون بين النص والنص كما يمكن أن يكون النص ذاتا تتحرك وتومئ وتقل وتتقل النص من حالة إلى مسرحته وتأديته. تماما كعمل روائي مكتوب، ليصبح إجراء دراميا أو سينمائيا أو مسرحيا فيفعل بالحركة والمشاهد، باستحداث سيناريو له، ما يسهل كونه عملا مصورا فتصبح العناصر المشهد الحركة والصورة نصا مقتبسا من نص. فالشخص الذي يحقق النصية بالأداء ويحول الملفوظ إلى خطاب أو مؤدى، يصبح نصا مكررا أو مؤولا أو تناسا له².

نقل النص من مرحلة القول إلى مرحلة الفعل إذن ما يؤسس لنوع من الانسجام المبني على ارتباط الثابت بالمتغير، حيث يتشكل الخطاب من هذا التفاعل الإنساني، الذي

¹ _ الأزهر زناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، م ث ع، بيروت، ط1. 1993، ص 119.

² _ ينظر للاستفادة علم اللغة النصي، بين النظرية والتطبيق، صبحي ابراهيم الفقي، دالر قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 القاهرة، ص 33_34.

يكتمل به النص إذ يصير بفضل لا متشكلا من إنتاج الكلمات أو الجمل وحدها، ولا يكفي في تحقق النصية التضام والتآلف ولا الترتيب الخطي، حيث لا بد من مشاركة العنصر الإنساني، كمقتضى من مقتضيات السياق لتحقيق المقاصد، وتحقيق الفهم، وتفعيل النصية، وتحقيق المقبولية والمشاركة. كما يطرح بشير ربح سؤاله عن معنى التأول؟ ما معنى أن نتأول؟ هل يقتصر الأمر على حركة اتجاه النص، أم حركة اتجاه التاريخ والعالم؟¹ فإن نحرك الخطاب القرآني، معناه التفاعل القائم على عدة عناصر بين النص وصاحبه، وبينه ومؤوله، وإقامة وتقييم تفاعله مع العالم. فلسانيات النص باتت تراعي فضلا عن العناصر والعلاقات بين العناصر الخطية، الأبعاد الدلالية والتداولية. وهذا ما جعله يقترح علما خاصا كفيلا بمعالجة النصوص سماه علم النصوص؛ ذلك أن النصوص حسبته تختلف وطرق العمل والتداول والتواصل بها قرين بكل نص. ويرى ديبوجراند " أن العمل الأهم للسانيات النص هو دراسة مفهوم النصية، "Textuality"، من حيث هو عامل ناتج عن الإجراءات الاتصالية المتخذة من أجل استعمال النص"². أو إعادة استعماله.

وعربيا تبني صبحي إبراهيم الفقي باحثا في التناسب النصي آراء ديبوجراند، خاصة من حيث اقتراح مجريات وآليات اللسانيات الاجتماعية كبديل عن اللسانيات السابقة؛ لا سيما النحوية، "حيث أعلنت اللسانيات الاجتماعية كبديلة منذ سنة 1972، معارضتها للتجريدات القديمة غير المرتبطة بموقف ما، وأشارت إلى ضرورة التفاعل الاجتماعي، في داخل الجماعة اللغوية."³ أو دراسة اللغة في الاستعمال. إذ بحسبها تبقى مقارنة النصوص ناقصة دون أن تنفتح على المكونات السياقية التي أوجدتها.

¹ - بشير ربح، حوارات في رهن الثقافة العربية، إشراف وتنسيق بشير ربح، منشورات ضفاف بيروت لبنان، الاختلاف الجزائر، دار الأمان المغرب، ط1. 2019، ص 175.

² - روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإراء، ص95.

³ - السبك والحبك، معين بن محمد، مقال الكتروني، منتدى الخيمة، com.khaym.Muntada، نشر بتاريخ 2005/09/27،

ولعل أبرز ما يلاحظه الدارس هو اجتماع أربع عناصر تدعم مفهوم النصية في تحققها هي عناصر من خارج النص تقريبا لتحقيقها مع باقي العناصر الداخلية للنص. وهي المقام والقبول والتناصية والإعلام، ويمكن إضافة عنصر القصدية الذي يعد عنصرا خاصا بالمرسل/ أو الذات المرسلة للخطاب وهي ليست جزءا لغوي منه، فالعملية الخطابية هي عملية مرتبطة بالإنسان في شقيه. أو هو أحد العناصر الخارجية المشكلة لها؛ ولكل عنصر دوره في البناء "وهذا التعريف الذي يتبناه الفقي تعريف شامل لا يلغي أحد أطراف الحدث الكلامي في التحليل؛ فهو يجمع المرسل والمتلقي والسياق وأدوات الربط اللغوية.. ومن هنا فإن المدخل السليم للتحليل النصي هو التحليل ذو الرؤية الشاملة حيث كل العناصر النصية. المرسل، المتلقي، السياق، عناصر الربط اللغوي.. تحت مجهر التحليل النصي، ولا يضخم نظرتهم لعنصر على حساب آخر؛ كما تضخم البنوية بنية النص على التاريخ، والقارئ فيها مجرد متلق سلبي لا أثر له أمام رياضيات النص، وكما تضخم التفكيكية القارئ على النص والتاريخ واللغة نفسها"¹.

هذا الخطاب الذي تتأسس استمراريته من التعامل به، والدخول به إلى طقس العبادة، وممارسة اليومي، والتواصل مع الجماعة، فالسلام والتحية والصلاة وطريقة التعامل مع الجماعة. ... لا تخرج عن هذا. إذ " يدخل في الخطاب جميع العلامات الكلامية وغير الكلامية، وأي ممارسة رسمية أو أية تقنية يتحقق فيها وعبرها الإنتاج الاجتماعي للمعنى"². إذ لا يتحقق المعنى من اللغة وحدها ولا من قصد المخاطب الذي هو طرف فقط في الخطاب، إنما يتأسس من اشتراك جمعي، بين أطراف الخطاب ومستخدميه، ومستخدمي اللغة وأطرها الاجتماعية التي تنتج المعنى. وفقا لخاصية تداوله، وطريقة استخدامه.

¹ _ بوطاهر بوسدر، الاتساق والانسجام، مقال الكتروني، شبكة ألوكة، نشر بتاريخ: 2017 م.

² _ ديان ماكدوونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، تر عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1. 2001. ص70_67.

وهكذا توسع موضوع الدراسة فتعدى لسانيات الجملة أو لسانيات اللسان كما سمتها الدكتورة خولة طالب الإبراهيمي. إلى كل ما له أثر في العملية التبليغية بما في ذلك مختلف القرائن الحالية والمقامية. إذ هذه القرائن في حد ذاتها تصير جزءا من النص ولا يكون اكتماله إلا بوجودها فيه. فاللغة ظاهرة إنسانية يلتقي فيها الفكر والثقافة بالعقل، وهي وسيلة هذا اللقاء والتفاعل بين المتكلمين مما يدعو - على رأي بنفينيست E.Benveniste إلى لزوم قيام لسانيات جديدة تتأسس على اللغة والثقافة والشخصية، ولم يقتصر الأمر عليه وحده؛ وإنما توجد إرهابات أولية ظهرت مع دعوات شارل سندررس بيرس Peirce إلى "تناول الدليل اللغوي في أبعاده الثلاثة حتى وإن كانت في الواقع موجودة مجتمعة في كيان واحد فإن الضرورة التحليل تقتضي فصلها للدراسة"، نجد عنده إذن:

1. البعد التركيبي الذي يتناوله الدليل نفسه.
2. البعد الوجودي أو الدلالي (المعنوي) حيث يربط الدليل بما يدل عليه وهذه العلاقة تقتضي أن العلاقة التركيبية موجودة.
3. البعد التداولي حيث ينظر إلى الدليل من خلال العلاقة التي تربطه بمؤوله فيصير الدليل بذلك قانونا عاما في عالم التبليغ والدلالة¹. وهنا يتدخل الفهم والتفسير والتأويل انطلاقا من التفسير والفهم الذاتي، حتى التأويل المرجعي.

وبذلك تجاوز بيرس الحدود التي وضعها دي سوسير بل ذهب أبعد من ذلك ففي رأيه أن الكلمة أو الدليل الذي يستعمله الإنسان هو الإنسان نفسه... والإنسان باعتباره كينونة لغوية له فكر فهو دليل لغوي أيضا². بما له من قدرة على امتلاك اللغة والتعامل بها؛ وأن يكون جزءا من تحقق دلالاتها.

¹ فوزية دندوقة، التوزيعية أسس وإنجازات، مقال الكتروني، عرض بتاريخ 11 / 12 / 2013.

² بشير بيريير، عن لسانيات النص من الحملة الى النص، بشير بيريير، مقال بالموقع الالكتروني: PSY-COGNIVE.

لكن يبدو أن الكثيرين يرفض هذا التوسع القائم على التضافر بين علم اللغة مع علم الاجتماع اللغوي وعلم النفس، حفاظا على الخصوصية.

ويتوسّل البحث في دراسته بمجريات التأويلية عند بول ريكور، مقاربات ريكور التي تتجاوز التفسير العلمي الداخلي (اللغوي)، إلى الفهم والتأويل الخارجي.¹ وتعتمد على الإحالة والمرجع، فالتفسير الداخلي العلمي للنصية لم يعد كافيا، وهنا يتم التعامل وتحليل الخطاب من حيث هو عمل، أكثر ممّا نعتمد على تحليله من حيث هو نص مكتوب؛ والتأويل حسبه في خدمة الإنسان لا في خدمة التحليل العلمي الموضوعي؛ وهو ما ترجوه الدراسة. إذ لا يستقيم مفهوم النصية _ النص القرآني ككل منسجم ومتربط لا يقوم إلا بفهمه وتأويله _ إلا بدراسة عناصره من الداخل والخارج، يقول بول ريكور: "أعرف جيدا أنّ النقد الأدبي حريص على إبقاء التمييز قائما بين داخل النصّ وخارجه، ويعد أي اسكتشاف أو سبر للعالم اللغوي خروجاً عن نطاقه، إذا يتسع تحليل النصّ ضمن حدود النصّ، ويحرّم أي محاولة للخطو خارج النصّ هنا يبدو لي أنّ هذ التّمييز بين الدّاخل والخارج هو نتاج منهج تحليل النّصوص نفسه، وأنّه لا يتطابق مع تجربة القارئ... فالعالم الواقعي يقع خارج اللّغة في اللّسانيات، لا القاموس ولا النّحو يحتويان على الواقع"². ذلك أن التحليل اللغوي وحده يقف عاجزا أمام كل ظواهر النص التي تحيل على تناسبه ونصيته من خلال تدخّل قارئه، من خلال فهمه وتأويله؛ " فمن وجهة نظرتأويليّة (هرمينوطيقية)، أي من وجهة نظر تأويل الترجمة الأدبية فإنّ للنصّ معنى مختلفا تماما عن المعنى الذي يعرفه التحليل البنيوي فيما يستعيّره من اللسانيات، فهو وساطة بين الإنسان والعالم، وبين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان والإنسان، والوساطة بين الإنسان والعالم هي ما ندعوه المرجعيّة، والوساطة بين النّاس هي ما ندعوه الاتّصالية، والوساطة بين الإنسان ونفسه ما ندعوه الفهم الذاتي. إذا تبدأ مشكلة التأويلية حين

¹ جميل الحمداوي. السيموطيقا التأويلية عند بول ريكور. في خدمة الكتب المقدسة، مجلة تمثلات، ع 2، 2018، ص 29،

² بول ريكور، الوجود الزّمان والسرد، ترجمة: سعيد الغانمي، م ث ع، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1999م ص 47.

تفرغ اللسانيات وتغادر".¹ هناك إذن آليات من مختلف المناهج يجعل القارئ من خلالها اللغة_ الخطابات وسيطا مناسباً لفهم العالم ابتداءً من الذات العالمة بالنص ووصولاً إلى الذات المؤولة له.

¹ _ المرجع السابق، ص 48.

الباب الأول:

الانضمام البين نصّي/الذاتي:

أسئلة بناء النص/ أسئلة بناء الذات

الفصل الأول:

انسجام: الكل_ الجزء: انسجام النص القرآني/

الجزء _ السورة _ الآية

1_ انسجام الكل _ الجزء :

الخطاب القرآني_ السورة_ الآية.

ونقصد بالكل هنا الخطاب القرآني شاملاً أجزائه وسوره وآياته، أما الجزء فكل عناصره الأقل ملفوظية أو الأقصر نصاً وهي أجزاء لها تسمياتها، عناصر مفصلية تحقق الفصل والوصل معاً داخل الخطاب القرآني، الحزب والجزء والسورة والآية والحرف أو الصوت، ونشير هنا إلى قيمة الحرف في الخطاب القرآني، لقوله صلى الله عليه وسلم: " من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف.."¹ في إشارة إلى قيمة كل جزء في هذا النص العالم من النصوص.

1_1 ما الانسجام؟!Coherence؟!وما الاتساق؟!Cohésion؟

يمكن أن يكون التقديم السالف قد وضح تقنيات البحث في الارتباط النصي التي ينهجها البحث، هذا الذي يتحقق بتلاؤم أجزاء النص_الخطاب، ووفقاً للموجز السابق هي خارجية وداخلية تضمن له الاستمرارية والوجود كمعنى؛ و" يقصد بالانسجام ذلك المعيار الذي يختص بالإستمرارية المحققة للنص، أي استمرارية الدلالة المتولدة عن العلاقات المتشكلة داخل النص. ويقوم الانسجام النصي عن طريق تحقق العديد من العلاقات الدلالية بين أجزاء النص "². إن صلة النص بمدلوله الخارجي هي نموذج مبسط لعلاقة اللغة بالعالم؛ ومن خلال انتظام النص دلالياً يمكن للقارئ أن يشكل رؤياه للعالم، وارتباطه وانتظامه

¹ رواه الترمذي في سننه. وصححه الألباني.

² عبد العزيز جاب الله، من مصطلحات اللسانيات النصية، عن خالد السبكي من النقد المعياري إلى التحليل اللساني، عالم الفكر، الكويت، مج3 ع1. ديسمبر 1994.

الداخلي يؤسس لحسب من علاقته بخارجيه. ويتأسس الانسجام كمجموع آيات أولا على وجود سلسلة لغوية مترابطة (صرفيا ومعجميا وصوتيا ودلاليا وتركيبيا). الاعتماد على الانتظام الداخلي أولا. ومنه توجب علينا فهم الاصطلاحين في حاجتهما لبعضهما. إذ تحقق الاتساق لما يوجب تحقق النصية في عناصرها الداخلية ثم الخارجية. في حين يفتح الانسجام جغرافيا العلاقات بين النص ومحيطه.

1_2_ ثنائية الانسجام/ الاتساق: Coherence/ Cohésion

"إن دراسة اتساق وانسجام النص تشكل موضوع اللسانيات النصية التي تدرس الكيفية التي بمقتضاها تشكل سلسلة من الجمل وحدة ونصا. بوجه عام يعتقد أن الاتساق ينتج عن تسلسل الجمل وخطية النص *Linearité*، في حين أن الانسجام يعتمد على الاتساق، غير أنه يقم قيودا عامة غير خطية، مرتبطة خاصة بالسياق ونوع الخطاب"¹. فإذا كانت السورة القرآنية الواحدة خطابا نفترض فيه الاتساق أي حسن نظمه وتضامه وارتباطه وتركيبه على المستويات المعروفة فإنها لا تكتمل معنى إلا بربطها بما يحيل عليه النص من سياق قبلي أو بعدي كربط سورة الانسان في نزولها بمكة والاختلاف المناسباتي والجغرافي في نزول آية "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ" (الإنسان الآية 8) "فما روي أن هذه الآية نزلت في إطعام علي بن أبي طالب في المدينة مسكينا ليلة ویتيما أخرى، وأسيرا أخرى ولم يكن للمسلمين أسرى في مكة، حملا للفظ أسير على معنى أسير الحرب، أو ما روي أنه نزل في أبي الدرداح وهو أنصاري. ووجه التعارض هو عدم التناسب بين الواقعة المروية أو المنسوبة للخطاب وزمن الخطاب وجغرافيا الخطاب! ما يحقق عدم صدقه أو ما يحقق عدم انسجامه

¹ دومينيك موديانو، المصطلحات المفاتيح، لتحليل الخطاب، تررر محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1. ص17، 2005.

بالأحرى! وكثيرا ما حملوا نزول آية على مُثُل تنطبق عليها معانيها، فعبروا عنها بأسباب النزول"¹. فلا يكتمل فهم النص وإن اتسق خطيا، إلا بالإحاطة الخارجية التي توجب تصديقه والمصادقة على المعنى بما لا يعترض مع الإطار العام للنص، بدءا من عدم تعارض أجزائه وجزئياته الداخلية. "الدلالات المعنوية القائمة داخل النص، والتي تحدده كنص"².

أما فيما يتعلق بإعادة إنتاج النص من خلال قراءته أو تأديته فهنا يتحقق الانسجام لا بسابق النص وظروف إنتاجه فقط بل يحتمل المعنى مؤداه ما دام متصلا بمؤدي النص، ومتلقيه أو المتفاعلين به ومعه. "إذ إن الانسجام ليس ثاويا في النص، بل إن المتلفظ المشارك هو الذي يتولى بناءه.. والحال أن الحكم الذي يقضي بانسجام النص منسجم أو غير منسجم قد يتغير وفق الأفراد ووفق معرفتهم بالسياق، والحجة التي يخولونها للمتلفظ"³.

لقد اعتبر القرطاجني تلاؤم الكلم وحسن تقارب الحروف والكلمات في الجمل ينتج في النهاية كلا مكتملا ومنسجما فيقول "ومن ذلك حسن التأليف وتلاؤمه، والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء: منها أن تكون حروف الكلام بالنظر الى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة، تلاصقها منتظمة في حروف مختارة، متباعدة المخارج مرتبة الترتيب الذي يقع فيه خفة وتشاكل ما"⁴. يؤيد هذا تماما القول باكتمال الخطاب أحيانا بحسن ترابطه الداخلي وعدم تعارضه. ابتداء من الحرف (الصوت) وعدم ترادفه (بعد مخارج الحروف أو الأصوات في ترتيبها في اللفظ أو في الجملة) ولهذا أحيانا

¹ _ محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الثاني 2، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، 2014، ص202.

² _ محمد خطابي لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط1 2006، ص15.

³ _ دومنيك موديانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 20.

⁴ _ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د، ط)، 1986، ص222.

نقرن الانسجام بالاختلاف فلولا اختلاف الصوت ما تحققت الكلمة ولولا تخالف المفردات في تشكيلها وحروفها ومعانيها ودلالاتها وصيغها الصرفية والتركيبية لما تأسس الخطاب لأن الخطاب لا يتأسس من تشكل حروف متساوية ولا كلمات متكررة على ذات الصيغ والتركيب. فلو أننا قلنا: ر..ر..ر..ر.. ما حققنا كلمة تستحق الدلالة والفهم. أو تحيل على معنى.

ولو شكلنا جملة من فعل (صيغة صرفية ومعجمة وتركيبية واحدة وتكرر) ما تشكل معنى لجملة واحدة من التماثل والتشابه في العناصر، ولو انتظم هذا الفعل على بعضه مئات المرات: كقولنا كتب كتب كتب..... وعليه فإن التناسب أو التناسق يتشكل أولاً من الاختلاف المتأسس على النظام والقواعد وهو أيضاً اختلاف مؤسس للانتظام الدلالي والقبول، بالربط والوصل والإحالة والحذف.. ثم بالالتزام بظروف النص أو الخطاب المحققة لتأسسه على أرضية تربطه بواقعة والذات المؤدية له أو المتلقية والمتأثرة به.

كما لا يمكن أن يتحقق التكامل في نسق ما أو مجموعة أنساق إلا ويحقق شيئاً من الإثارة في تلقيه وإدراكه، وبصورة ما تحقيق نوع من الجمالية التي تحرك النقبل، فكل جميل هو منسجم إلى حدّ ما. فهو يحمل من ترتيب وتنظيم عناصره ووحدتها وتناسقها.. ما يحيل على الرضى به أو الإقبال عليه، فأفلوطين مثلاً يعتقد أن "ماهية الجمال تتحدد بالوحدة والترتيب والتوافق والانسجام"¹. فكل عمل مرتب ترتيباً منطقياً هو منسجم، وكل ترابط يحقق كائناً كاملاً من أدق جزئياته هو انسجام. توافق العناصر، والتتام الأجزاء الذي لا يصل حد الكمال فقط، مع الخطاب القرآني وصل حدّ الدهشة (حادثة تأثر عمر بالنص القرآني ثم إسلامه، وحادثة تأثر الوليد بن المغيرة حدّ الوصول إلى الإسلام ثم الإعراض وسيأتي هذا لاحقاً).

¹ - حسين جمعة، التقابل الجمالي في النص القرآني، منشورات دار النمير، دمشق، ط1. 2005، ص29.

3_1_ النص_النسق:

كل سورة في النص القرآني هي نسق مستقل بذاته ويؤدي وظيفته، كما له وظيفة أخرى تجعله جزءاً من نسق عام لا يكتمل إلا به إذ "يقوم كل نسق بوظيفته"¹؛ فالنسق كون مغلق على خصائصه وتفرد، ولا يمنع هذا من تداخل الأنساق وحاجتها لبعض.

فالنص القرآني كنسق ينغلق على ذاته فيكتفي بحدوده اللغوية، وينفتح على مختلف الأنساق الخارجة عنه، مغلق في ذاته محقق لاكتفائه وانسجامه كنص، وهو أيضاً يتميز عن غيره من الخطابات والأنساق، وسؤال نظرية الأنساق كيف يفلح النسق في الانفتاح على والانغلاق، فكيف يفلح الكائن الحي (حسب نظرية الأنساق الاجتماعية) وهو يخضع للبيئة من جهة ومستقل عنها من جهة أخرى، بحيث لا يفتح عنها إلا لتلقي الغذاء مثلاً، بينما ينغلق كل المواضيع الأخرى كالدورة الدموية مثلاً²، يبقى مفهوم النسق مفهوماً أصيلاً في الدراسات البنوية (كاصطلاح) لكن ليس هذا ما يعنيننا بالضبط، وهو أيضاً من المفاهيم الأصلية خاصة في الدراسات اللسانية السوسيرية. نستعير هذا المفهوم: النسق في دلالاته على الاستقلالية، وعلاقات عناصره كما يذكر بياجيه؛ العلاقات بين العناصر التي ميزت فهم كلود ليفي شتراوس للبنية والنسق، الذي تنتظم فيه مجموعة من العناصر التي تربط بينها علاقات، وقد تطرأ عليها تحولات، حيث تتأثر العناصر أو الوحدات بالتغيرات الطارئة بعضها على بعض³ غير أن مفهوم النسق الذي توجه إليه الدراسة ليس هو النسق البنيوي (من البنية وليس من المنهج)، أو في صيغته البنوية، إنما هو نسق له حدوده و"كل نسق

¹ نيكولاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، بغداد، ط1 2010، ص5،

² مدخل إلى نظرية الانساق، مرجع سابق ص7.

³ من أجل الفهم والاستزادة توجه إلى كتاب البنوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى ديريدا، جون ستروك، تر محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد 206.

يعرف بحدوده"¹؛ لكن له تحولاته التي قد من أهم مصطلحات هذه النظرية: التميز، التواصل، والتكوين الذاتي"² ولكل نسق سؤاله، وانتظامه، عناصره وتفاعلاته، حدوده وعلاقاته. وتتوجه الأنساق حول سؤال رئيس، فسؤال نسق الاقتصاد الملكية، وسؤال نسق القضاء القانون مطابقتها او مخالفتها"³،... كذلك سؤال نسق النص علاقات اللغة، وتأسيسها للمعنى.

يقوم النص (كنسق أو كمجموعة أنساق) على المشاركة بين عناصره، وعلى التمايز والاختلاف بينها أيضا، فلولا هذا التمايز لما تحقق المعنى، فالمعنى يتحقق بالاختلاف، يقوم أيضا على التفاعل والمعاشية، فلسمية تعايش عناصره والتي يحققها فيما بعد تحقق المعنى الواحد من المختلف، الحرف والكلمة والجملة، وتجاوز الاختلافات يشيدها المتلقي فوحده القادر على تشييد المعنى، وتجاوز التناقضات الصحية كما يقول جمال بن دحمان⁴ "إذ الانسجام مفهوم أنطولوجي، في مختلف الظواهر، والمجالات"⁵.

وحسب "تعبير لومان يتم التواصل داخل كل نسق بناء على منطق ذاتي مستقل عن الأنساق الأخرى"⁶، ربما تحدث لومان هنا عن الأنساق الاجتماعية وطريقة التفكير المختلفة حيال تواصلها وارتباطها؛ ولكنه أيضا ينطبق على النسق اللغوي.

¹ _ مدخل على نظرية الأنساق، مرجع سابق، ص7.

² _ المرجع نفسه ص5.

³ _ ينظر مدخل إلى نظرية الأنساق، ص6.

⁴ _ جمال بندحمان مرجع سابق، مقدمة الكتاب.

⁵ _ نفسه ص16.

⁶ _ نيكولاس لومان، مدخل الى مظرية الأنساق، ص6.

4_1_ تشاكل النص مع النص:

التعاضد النصي ميزة ظاهرة في النص القرآني، إذ تجتمع وتجمع نصوصه المختلفة على توافقها وتكاملها، من حيث الغاية من النص، ومن حيث الارتباط بين الأنساق: الآيات/ السور /الأحزاب /الأجزاء...، هناك دائماً نواة تستكمل بناءها من نص إلى نص ومن سورة إلى سورة، فإذا كان "أي نص مهما كان ليس إلا ركناً لنواة معنوية موجودة من قبل"¹؛ فإن الخطاب القرآني يجسد هذا الوجود السابق في اللاحق، إذ التراكمية: وجود مركزية المعنى التي تأسس من خلالها النص، فالمجتمع القبلي الذي جاءه النص لم يكن مفرغاً من الأخلاق والقيم التي جاء في مجمله ليقومها؛ "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"²، فبؤادر الخطاب الجديد كانت موجودة في الأخلاق العربية وخاصة أخلاق الفروسية كالمروءة والكرم، والإيثار، والحكمة... لأن المجتمع والعالم كان بحاجة إلى نهج نظام جديد يأخذ من النماذج السابقة أحسن ما فيها ولا يلغيها، ليحقق الاستمرار في أذهان الناس، حتى إرث الأنبياء والموحدين لم يكن قد مات أو انتهى إنما هناك تواصلية في الدين وتكامل. ولهذا كان النص بمثابة الحفر والصقل، فكل نص جديد (سورة أو آيات منزلة)، هي تكملة للخطاب الشامل الرؤيا والذي هو غير مكتمل مادياً كخطاب لكتنه تام الرؤيا، هناك نواة تنمو مع كل سورة، جزء منها يحمل خصوصية السورة وجزء آخر يواصل المهمة الدلالية الفكرية والأخلاقية من السور السابقات حتى تمام المعنى.

فإذا تأملنا سورة الفاتحة من حيث توازن مبناها ومعناها؛ الفاتحة التي هي من أقصر نصوص الخطاب القرآني بالنظر إلى قيمتها كأفعال تحررها الأقوال. يبدأ الأمر من تسميتها الكثيرة، فالعرب تنوع أسماء وصفات ما تقدره وتعظمه، إذ لها أسماء كثيرة لكل اسم فيها

¹ - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، م ث ع، ط1. ص25.

² - وفي مواضع إنما بعثت لأتمم صالح الأعمال، رواه ابو هريرة ومسلم، ومالك في الموطأ.

معنى دال، ف" يقال لها الفاتحة وأم الكتاب والحمد، والصلاة، والرقية والشفاء وأساس القرآن والواقية، والكافية والكنز...."¹ (عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه كنت أصلي فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن: الحمد لله رب العالمين: هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)²؛ فما الذي جعل هذا النص المقتضب قرآنا كاملا؟ و" سورة ما أنزل في التوراة والإنجيل والقرآن مثلها"³ وفي محل آخر ولا في الزبور مثلها.

هناك تداعيات معنوية من سورة الفاتحة والتي سميت أم الكتاب بثت في كل خطاب يليها ويأتي بعدها مرتبطا عن قرب أو بعد من السورة الأولى حتى الناس آخر السور، هذا الاتحاد المعنوي/ والدلالي الذي جعل البعض يعتبرها فهرسا للنص القرآني، ونواة لكل نص بعدها، ما يدفعنا أيضا الى التساؤل عن قيمتها كنص تمارس به عبادة من أقوم العبادات وهي الصلاة ولا تقوم إلا بها. " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (8)"⁴، ولعل من دلائل ترابط هذا الخطاب، أن لا يصح تمام القرآن إلا بهذه السورة القصيرة والمقتضبة، وكذلك لا يتم هذا النص إلا بكل جزء فيه مهما كان يسيرا. فكل نص قرآني يحمل صفة الاتساق، إذ كل آية مربوطة بسابقتها وكل سورة لا تنفي في دلالاتها الدلالة الشاملة. ف"الاتساق الصاق الشيء بشيء آخر بالشكل الذي يشكلان وحدة"⁵، هذه الوحدة وحدة دلالية

¹ _ أبو الفدا الحافظ ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج 1. دار الفكر، ط2012، تفسير سورة الفاتحة،

² _ المرجع نفسه، تفسير الفاتحة.

³ _ م، نفسه ص نفسها.

⁴ _ سورة الفاتحة.

⁵ _ oxford : advanced learner's Encyclopediio OXFORD، oxford university press، 1989، P173،

محورية قام عليها الخطاب كله، وبرؤيا من زوايا مخالفة كل مرة، كما حصل مع تشاكل عدد من القصص والأمثلة، فقصة موسى وحدها ذكرت 134 مرة، فقد جاء على ذكرها في البقرة وآل عمران والنساء، والمائدة والانباء والأعراف (55 آية)، وفي يونس وهود، وإبراهيم، الاسراء،، الكهف ومريم، وطه، (90 آية)، وفي الأنبياء، والمؤمنون، والفرقان، والشعراء (58آية)، والنمل والقصص (45 آية)، والعنكبوت، والصفات..يتجه النص فيها كل مرة إلى عارض قصصي لم يذكر سابقا، أو ذكره بتحليله، وتفسيره. ولا تكتمل الصورة الدلالية للقصة إلا بتمام تجميع كل هذه اللوحات من الخطاب، مع اختلاف الرؤية السردية والصوت التي تجعل المعنى متعاقبا في كل لوحة سردية قرآنية، تتكامل اللوحات الحكائية لتشكل القصة كاملة مصورة كل مرة من منظور مخالف، تتبنى أزمنة تتعاقب وتتراتب كما مواقعها وأفضيتها لتشكل قصة موسى الكاملة، التي تتشاكل فيها ثنائيات الخير والشر والقوة والهشاشة والضعف، والإيمان والشك، والأسرة والوحدة، والنقص والكمال، والغيبى الذي يحققه المشهود عيانا. فبعد الحديث عن قصة الخلق في سورة البقرة كأول أمثلة واقعية منهجية للإنسان، وعن الامتحان الذي يقع فيه آدم ثم تؤكد استمراريته قصة موسى، وبعد أن يكون الهبوط بعض الجزاء، يصبح طلب الرتقاء مطلبا بشريا، وتلي أول لوحات لقصة موسى في الآية 49 من السورة وهي أول خطاب يذكر بني إسرائيل: "وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ..." حتى الآية 74 من السورة. حيث تتعدد الأزمنة وتتغير الأحداث، وتختلف بؤرة السرد، لقصة وحيدة تلي قصة الخلق وتعاضدها في نزاع الشر والخير، وفيها إجابة صريحة على اعتراض الملائكة الصريح أيضا "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ" الآية 31، بإمكان حدوث ذلك، بل تأكيد حدوثه، لكنّه الاختبار والمآخنة للعودة إلى

العلية، بعد الهبوط. ليتضح أن الخطاب القرآني المجتزأ في آيات وفي لوحات سردية، متخالفة كما يبدو في ظاهر النص، إلا أنها تتكامل وتتسق دلاليا لتتجز النص الكامل.

ولهذا فإن علاقة النص بعناصره على مستواه الخطي انتهاء بالدلالي هي مضنة البحث في اتساق النص. في حين يفتح الانسجام جغرافيا العلاقات بين النص ومحيطه، وتحقق أثره في ذلك كله.

5_1 الفواتح والخواتم القرآنية:

أ_ تحقق الاتصال بالانفصال:

يتأسس الخطاب القرآني من عدد من الآيات تطول أو تقصر، تحمل كل سورة دلالة واحدة، أو تتعدد دلالاتها وفق تغيير الأحداث والمناسبات والحاجة، ويذكر أن كل سورة هي نسق مكتمل بذاته دلاليا ولغويا، وهي في الآن نفسه تشكل في اتساق مع غيرها من السور كل القرآن الكريم. ستقدم الدراسة نماذج عن الافتتاح القرآني، وخواتيمه، التي يتمثل فيها التكامل والتضافر كمجتمع نصي، لا يتشكّل كله بدون ارتباطه بغيره. وكل التنظيم القرآني المسلسل وفقا لترتيب سوره في المصحف، والذي جاء أنه توقيفي قد ظهرت أسبابه؛ إنه ارتباط الجزء بالجزء؛ ارتباط تتعدد ملامحه: ارتباط فواصل، ارتباط سور، ارتباط أحداث..

ف" لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم؛ أحدها بحسب الحروف كما في الحواميم، وثانيها لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة وثالثها للوزن في اللفظ كآخر تبّت وأول الإخلاص ورابعها

لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل: **والضحى**.. وألم نشرح¹ أول ارتباط الموضوع بالموضوع الذي يليه ارتباط السابق باللاحق؛ قال بعض الأئمة: وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية؛ وتعني بصورة ما عجز الإنسان وضرورة إقراره بذلك والالتجاء إليه في دين الإسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية. وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكتملة لمقصودها فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ولهذا قرن فيها ذكر المتشابه منها بظهور الحجة والبيان فإنه نزل أولها في آخر الأمر لما قدم وفد نجران النصراني وآخرها يتعلق بيوم أحد والنصارى تمسكوا بالمتشابه فأجيبوا عن شبههم بالبيان ويوم أحد تمسك الكفار بالقتال فقبلوا بالبيان وبه يعلم الجواب لمن تتبع المتشابه من القول والفعل وأوجب الحج في آل عمران وأما في البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بتمامه بعد الشروع فيه ولهذا ذكر البيت والصفة والمروة وكان خطاب النصراني في آل عمران أكثر كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها والنبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فخطب بها جميع الناس والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخطبوا يا أهل الكتاب يا بني إسرائيل.² أما فيما يتعلق بالسورة الواحدة واتصال أولها بتاليها، فسيتضح هذا مع مثال سورة البقرة:

¹ _ بدر الدين الزركشي، باب ترتيب سور القرآن في المصحف، البرهان في علوم القرآن، بتحقيق أبي الفضل الدمياطي، أحمد علي، دار الحديث للنشر، القاهرة، ط 2006، ص 23.

² _ المرجع السابق، ص 23.

تبتدئ مفتحة سورة البقرة بالمصادقة على كتاب لم يفتح بعد، معلنة قيمة هذا النص وصدقه كمنهج ستأتي بنوده وتتنظم قواعده في الخطابات القادمة المكملّة، كأن الدستور النصي المعلن قيمته وفاعليته قائم في اللاحق تثبتنا لهذا التصديق، وكنوع من الربط الدلالي الذي يبدأ منذ هذا التوقيع؛ " الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)¹ البقرة (1_5).. وتنتهي بقوله تعالى في الآيتين الأخيرتين: " آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286).

يجدر بالذكر أن تقسيم البدايات والنهايات، المفتحات والمختتمات قائم على المعنى الذي يقوم عليه النص أو الآيات وفق التقدير الدلالي الخاص؛ فلما جاء ذكر وتبجيل الكتاب عباد الله المتقين الذين يلتزمون بالكتاب، أعطى الله خير مثال عنهم ممثلاً في شخصية الرسول محمد (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله..).

وحين يليها بالآيات: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8) البقرة 6_8.

¹ سورة البقرة الآية من 1_5.

تختتم السورة بالآية: " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ.. فالأمر مقرون بحقيقة داخلية تقر بالقلوب ولا تؤثر عليها الطوارئ وإن طرأت ما دام هناك ثابت النية، " رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ " الآية 286 البقرة.

وفيها عودة إلى قوله في ختام الفاتحة: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، فالأمر موكل لحقيقة قلبية وعملية انقياد روحية (اهدنا) ولا علاقة له بالظاهر.

فحيث كان الذين كفروا مغلفة قلوبهم مختومة بالنكران والإنكار والجحود (والجحود من معاني كلمة كفر) فإن القلب المثبت بالنية المجبول على الخير والإيمان يمكنه أن يؤمن ويمكنه أن يخطئ ويمكنه أن يعود تائباً ومنيباً، فيعطي الله المثالين متقابلين بين المفتحة القرآنية وخاتمتها.

ليقطع ذكر الذين كفروا وتيرة الحديث عن المهتدين، فحيث ختم الله على قلب أولئك وعلى قلوبهم وحواسهم بالغشاوة (الآيات الأولى سورة البقرة)، أذعن هؤلاء طواعية واختياراً.. ! (ختام البقرة)، وفي المحل الذي يكفر هؤلاء ويخطئون عن مرض وخذاع، وتلون وكذب؛ ويجزون ما خادعوا وخذعوا، يرسل أولئك الدعاء إنابة ورجوعاً؛ (وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) البقرة 285_286؛ استنكاراً للضعف البشري وفطرته دونما إصرار على الخطايا أو التصل منها. ليغفر لهم خطأهم ونسيانهم (إنهم يحتازون لأنفسهم خوف وقوعهم فيما وقع فيه الماضون) ويغفر لهم ما أخذ به غيرهم، خوف عقابه الذي جاء أول

السورة (صم بكم عمي فهم لا يرجعون [الاية 18]/ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به (نهاية البقرة). وهو أيضا وصل ورجع وتأكيد على قوله في خطاب سورة الفاتحة (اهدنا الصراط¹ المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فإن أخوف ما يخافه هؤلاء هو أن يقعوا في محذور ما وقع فيه سابقوهم، فيكررون التجربة بالجمود والنكران، لكن صفات المتفتحة قلوبهم تخطئ وتصيب وتسرع إلى طلب العفو، بل إن أفضل من ذلك تأكيدها في دعائها على حقيقة الضعف البشري وحقيقة حتمية وقوعه في الخطأ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به/ البقرة 286. ويقر الخطاب بمسؤولية البشري على أفعاله، وحرية في الخيار مع ذلك، التي يعترف فيها بوقوعه في الخطأ ثم يلجأ بضعفه إلى طلب العفو، تصحيحا للزلل الواقع خطأ أو نسيانا. وتأكيدا على الطبيعة البشرية التي فيها من كل هذا. هذه الطبيعة التي تناقض طبيعة من يصر على مخادعة بادعاء الإيمان، هذا التلون الذي يؤكد على استحضار صورة أولى للمعصية الأولى (الكبر). والتي قامت عليها حياة الخليقة ومن أجل رفضها.

وفي سورة آل عمران تعلن المفتحة عن الابتداء بالأحرف المقطعة: (الم (1) الله لا إله إلا هو الحي القيوم (2) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل (3) من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام (4) إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء (5)) ويذكر في ختامها: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون آيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله

¹ - قرأها يعقوب الحضرمي البصري صاحب الجامع بالسين والأصل بها السين ونحن في البحث نراوح بين هذا وذاك.

سَرِيعُ الْحِسَابِ (199) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200) " ¹.

فإذا تذكرنا مفتحة سورة البقرة وجدنا في السورة هذه إحالة على عناصرها: الكتاب

الإيمان بما أنزل من قبل؛ أما في مقدمة آل عمران، يأتي الخطاب على ذكر الكتاب، لكن مفصلاً ومسمى: الكتاب التوراة الإنجيل الفرقان، ويسبق الكتاب بمن أنزله ذكرنا دون إحالة، ويسمى اللأريب في (البقرة) تصديقا في (آل عمران)، ويستبدل الهدى بالحق... هذا بخلاف الارتباط الموضوعاتي، ومركزية الفكرة أو الجزء، كارتباط جزء عم وهو الجزء الأخير بقارئ معين، قارئ بسيط، تيسر له سور هذا الجزء مجتمعة اليسر في الفهم والوعي بها، وسهولة الحفظ والتفاعل والتعامل بها. وهي سور أقرب في ارتباطها وترابطها إلى ذكر المحسوسات والمحاوليات، والكونيات من المخلوقات.

أو ارتباط النسق الإيقاعي كترابط السور الأخيرة ترتيبا في المصحف إيقاعا وصوتا، فتنتهي سورة المسد المرتكزة على حرف الباء في آياتها كلها، بفاصلة منتهية بحرف الدال، كمقدمة صوتية وإيقاعية تتناسب وسورة قل هو الله أحد الإخلاص، وكذلك سورة الفلق وخاتمتها، بالإضافة إلى الارتباط المعنوي والتي تجتمع فيه هذه الخواتيم القرآنية كدروع حماية ووقاية لحاملها.

ب_ في العنوان والتسمية إحاطة واحتواء:

_ المناسبة بين السورة واسمها :

¹ _ آل عمران الآية 199 200.

كغيره من الخطابات، عُلِّمَت السور القرآنية لتحديدتها كعناصر مختلفة عن بعضها بأسماء، ربما كان اسما واحدا للسورة وربما تعدد، وتظهر في التسميات علاقتها بحدث ما في السورة، يكون مؤثرا أو ملفتا، أو بظاهرة أو شخصية أو ظاهرة كونية أو خلقية لم يتم ذكرها في سورة قبلها، ولها علاقة بهذه السورة عينها. أو بسبب مقدمتها، كما عرفت القصائد والخطب العربية بمطالعها، و" يذهب الزركشي إلى أن تسمية السورة باسم معين " ليس إلا تعصيذا لتقليد معلوم لدى العرب، وهو تقليد يراعى في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادرٍ أو مستغربٍ، يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه (...). ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء الكتاب العزيز¹. ومن المعلوم أن المسمى يأخذ من اسمه الذي أطلق عليه، وهنا وجه الاتفاق والتناسب. وارتبط عدد كبير من السور بأسماء الأنبياء والرسل، والشخصيات، كنوح وهود ومحمد، ومريم، وإبراهيم ويونس،... ورغم أن أكثر اسمين ذكرا في النص القرآني قصصا وأحداثا هما: آدم وموسى، وربما عيسى بعدهما، لكن ليس هناك نص أو سورة تحمل اسما من هذه الأسماء، وهنا يفسر أن التسميات تجيء من النص ذاته، لأن تكثير هذين الاسمين خاصة سيجعل التسمية تعني السور المذكور فيها الاسم كله، ولهذا تعلقت أسماء هذه السور بأحداث مهمّة

وقعت لهؤلاء وجاء ذكرها في الخطاب/ السورة. "فإن قيل: قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام فلم تختص باسم هود وحده وما وجه تسميتها به وقصة نوح فيها أطول وأوعب قيل تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت في غيرها ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث

¹ _ محمد خطابي، الانسجام الخطابي، لسانيات النص، ص 197.

اسم هود عليه السلام كتكرره في هذه السورة فإنه تكرر فيها عند ذكر قصته في أربعة مواضع والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا¹.

لقد حملت سور القرآن تسميات مفردة أو متعددة، إذ التسمية تحتل التقنية فيكون للمسمى بذلك أكثر من تسمية وفقا لصفاته أو خُلقه أو خلقه، أو مكارمه.... هذه التسميات وسمِّم (جذر الاسم وسمِّم) يستدل به على نصوص القرآن الكريم، فالسور ذات "أسماء (أو عناوين) تعرف بها، إذ كلما استدلت على شيء بشيء فهو عنوان له"²؛

وعنونة القرآن وتسمية سوره لم تأخذ اصطلاح العنونة لكنها كانت تقريبا من أول ما عنون عند العرب، فقد كانت العرب تسمي قصائدها باسم المطالع وتسمى الخطب بالمناسبات والمواقع؛ واعتبرت هذه الظاهرة/ العنونة بالمطلع " بديلا للعنوان الغائب في الشعرية العربية، إنه شكل آخر يمكن تسميته بالبيت_العنوان"³. فكان أنه تعرف القصيدة والمطولة بذكر أول بيت لها، أو مطلعها ك: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل إشارة إلى لامية أو معلقة امرئ القيس، أو عفت الديار محلها فمقامها. . كتسمية وعنونة لمعلقة لبيد، وقفوا بني أمي صدور مطيكم إشارة إلى لامية الشنفرى والتي سميت فيما بعد بلامية العرب لا اللامية فقط نسبة إلى رويها إنما لامية كل العرب، لقيمتها الأخلاقية والأقرب إلى الخطاب الديني أو العقدي الإنساني والأخلاقي الاجتماعي الذي نادى به هؤلاء قبل أن يقوم الخطاب الديني الجديد وتقوم الثورة الاجتماعية والاقتصادية من خلال هذا الخطاب (القرآن). كذلك إن القيمة لهذا النص حتى نذكر بهذا وعن علاقة النص بالمجتمع الذي يتشكل فيه، أو يريد

¹ بدر الدين الزركشي البرهان في علوم القرآن،، فصل في تعدد أسماء السور، ص 24.

² محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، الدار العربية للعلوم ناشرون_ لبنان، دار الأمان_ المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2012، ص 27.

³ العنوان في الثقافة العربية، المرجع السابق ص 07.

تشكيله، كالتوجيه إلى أسس قيام الدولة العادلة القائمة من خلال النص (دعوى الشنفرى، وعروة بن الورد وتأبط شرا...) إلى الانتباز عن أحكام القبيلة المعروفة بالإقصاء، والتحقير، والنبذ والاستضعاف، فالدين الذي يدعو إليه هذا الرجل (وجماعته والتي دعيت صعالিকা لخروجها عن النظام المؤسس من طرف السلطة الجائرة) هو دين الأخلاق وهو ما عبر عنه خطابه الشعري، إنشاء مجتمع يرفض القبلية الأقرب إلى الحيوانية في أكل القوي للضعيف والتميز والإقصاء، وإنشاء مجتمع جديد يتكل على وحوش الصحاري الأقل فتكا ببعضها من البشري بالبشري فتكون هي صحبته ورفقته وعناصر قبيلته المنتبذ إليها. (والتي هي أول ما انتبذه الدين الجديد/ كنا قوما أهل جاهلية يأكل القوي منا الضعيف... حديث جعفر بن أبي طالب للنجاشي)، فهذه القصائد والمطولات إنما عرفت لا بعناوين وإنما بالمطلع الذي هم مقدمتها وأم بيانها كما يقول أبو هلال العسكري "البدائيات أمهات البيان".

ولعل قيمة العنوان تتأسس من حصر المعنى واختزاله، ودقته وارتدائه للدلالة المترامية في المتن، وتعيينه وتعريفه بالمضمون؛ "فمن شروط تداول الكتاب؟ أو النص أن يكون له عنوان، مثلما أن لكل شخص اسما يعرف به...¹".

لكن مع الخطاب القرآني تظهر ظاهرة جديدة، وهي تعدد الأسماء والصفات والتسميات والتعيينات للخطاب الواحد_السورة، أخذ كل إسم من مته ويعينه، ويحيط به. ويظهر أن بعض هذه التسميات أو التعيينات الكثيرة أنها صفات تحيط ببعض النص، ولكنها صارت صفات ثابتة وملازمة؛ "سمى الله القرآن الكريم بأسماء كثيرة؛ سماه: كتابا، ومبينا وقرآنا وكريما وكلاما ونورا وهدى ورحمة وفرقانا وشفاء وموعظة وذكرى ومباركا وعليا وحكمة وحكيما ومهيما وحبلا وصرطا مستقيما وقيما وأحسن الحديث ومثاني ومتشابها وتنزيلا وروحا ووحيا

¹ _ العنوان في الثقافة العربية، مرجع سابق ص 07.

وعربيا وبصائر وبيانا وعلما وحقا وهاديا وعجبا وتذكرة والعروة الوثقى وصدقا وعدلا وأمرا ومناديا وبشرى ومجيذا وزبورا وبشيرا ونذيرا وعزيزا وبلاغا وقصصا وصحفا مكرمة ومرفوعة ومطهرة¹؛ بعض هذه التسميات هي صفات للخطاب القرآني لكنها صفات لازمة لا متغيرة. ما يجعلها بمثابة الصفة/ الاسم. " وإطلاق أي منها فيها إشارة إليه"².

أما ما تحيل عليه هذه التسميات فيتعلق مباشرة مع دلالة في النص تتفق معها، وتعينها وتضبطها، كما تشير إلى شمائله الكثيرة وغناه، "يبين تعدد التسميات غنى النص المسمى، واحتوائه لكل ما من شأنه إقناع المتلقي وهدايته، ولفت انتباهه إلى شمولية أحكامه واشتماله على أخبار الأمم السالفة والأمور الغيبية. وتعتبر العرب أن تعدد أسامي الشيء دليل على شرفه. ناهيك عما في دلالة الاسم من السمو ورفع الشأن"³. وقيل سمي قرآنا لأن قارئه يلقطه من فيه ويبينه، والعرب تقول (ما قَرَأَتِ الناقَةَ سَلَى قَط)، أي ما رمت بولد. والقرآن يلقطه القارئ من فيه فسمي قرآنا⁴. لكن تسميته بالقرآن هي الأكثر تضاماً بالنص، وقد قيل إن تسميته جاءت "من قرنت الشيء بالشيء، لضمه السور والآيات والحروف إلى بعضها"⁵؛ يساهم هذا العنوان/ الاسم والدلالة التي يشير إليها، في بناء تصور عن هذا الخطاب الذي يتكئ على ضمّ بعضه ببعضه، واتحاد الدلالة من خلال ربط جزئه بجزئه لتشكيل كله.

ومن الأرجح أيضا أن فعل القراءة هو مركز هذا النص، وهو الفعل المطلوب فيه، القراءة بما هي إعادة كتابة للنص، كثرة القراءة فسمي قرآنا، بعد أن سمي كتابا وكلاما،

¹ _ المرجع نفسه ص 28 _ 29.

² _ نفسه ص 29.

³ _ نفسه ص 30.

⁴ _ نفسه ص 29.

⁵ _ جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 1991. ص 113.

وبلاغا وصحفا، وذكرنا وأحسن الحديث وتنزيلا وبيانا، وكلها تسميات تظهره كنص وميثاق؛ يعلن عن قيمة القراءة فيها تسميته بالقرآن، كأن فعل ترادده هو المطلوب للعمل به، وتدارسه وتذاكره، يمنحه هذه التسمية فبعد أن كانت إلهية ووقفا، ها هي تتجسد بفعل الإنسان الذي يمارسه قراءة.

ففي تسمية القرآن إشارة إلى أن هذا النص يتضمن فعل التداول، قراءة ويحتاج إلى قارئه تضمنا، فهو نص يكتمل ويتحقق بمن يجسده، والقراءة المطلوبة قراءة الفعل لا الترداد. حيث "القراءة بوصفها فعلا من أفعال الكتابة نفسها"¹؛ فالقراءة مع الخطاب القرآني هي تحقيق وجود، وهي إثبات لتواجد الإنسان كنص يتفاعل مع النص المقروء.

وقرأ التي هي أصل صحيح يدل على جمع واجتماع، ومع الفعل قرأ لا بد من عملية الجمع والاجتماع أن تتحقق في قلب القارئ، فعندما نقول إن زيدا قرأ عليكم نصا إخباريا، غير قولنا: إن زيدا سوف يتلو عليكم نصا إخباريا. فالقراءة للنص إنما هي جمع ما يتعلق بهذا النص من معاني ودلالات². واتكاء على هذا المعنى يمكن ربط النص بآخره في الفصول القادمة من البحث.

ج_ القرآن تعدد أسماء، اختلاف سور وكتاب واحد:

جاء فيما سبق أن القرآن تعددت أسماؤه بحسب وصفه وتقديره، " ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) " البقرة الآية 2. فسمي الكتاب والهدى. وفي سورة الفرقان يسميه الفرقان: " تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " الآية 1. ويذكره باسمه القرآن: "الذين جعلوا القرآن عضين" الحجر 91. ويسميه الذكر في مرات كثيرة: " إِنَّا نَحْنُ

¹ _ جاك بيرك، إعادة قراءة القرآن، ترجمة منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط2 2005، ص 7.

² _ سامر اسلامبولي، القرآن بين اللغة والواقع، دار الأوتل، دمشق، سوريا، ط1. 2005، ص 62.

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" الحجر الآية 9. ولا يعد هذا اختلافا وزللا في الاسم وعلاقته بالمفهوم، فالذكر هو الكتاب الذي يُذَكَّرُ ويذُكَّرُ، وهو الذي يفرِّق بين الحق والباطل بل إنه جاء لأجل هذه الصفات...

التناسب بين النص وتسميته:

_ تعدد تسميات سور القرآن تناقض أم انسجام؟:

تعددت عناوين أو أسماء سور القرآن الكريم، فكثير منها بأكثر من تسمية، وكما ذكرنا سابقا أن التسميات تأخذ بصفة مميزة للسورة أو المسمى، أو قصة أو نادرة، أو شخصية أو خلق، أو حادث لم يذكر في موقع آخر، "ولا شك أن العرب تراعي في كثير من التسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب، يكون في الشيء من خلق، أو صفة تخصه أو تكون معه، ويسمون القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتب العزيز، كتسمية سورة البقرة لقريظة ذكر قصة البقرة وعجيب الحكمة فيها، وسميت النساء بهذا الاسم لما تردد من كثير أحكام النساء. ...¹ أو ربما يكون ذكر في موقع أو مواقع أخرى لكنها لم تكن في سورة أخرى، بذات الرؤيا، ولا بذات زاوية الرؤيا فقصة سيدنا موسى ذكرت أكثر من مائة مرة، لكن مع ذلك لم تسم أي سورة باسم موسى أي سورة قرآنية.

التجأت التسمية النبوية الوضعية لا التوقيفية إلى خصائص في السورة وعناصر تعد مركزية في التغيير في فضاء السورة، ولهذا فإنه هناك توافق بين التسمية وموضوع السورة، أو في التسمية إحالة إلى نقاط موضوعية (معنوية) مركزية، كانت سببا في تغير أحداث، أو حدثا مختلفا وباهرا في حدوثه، أو لتعالق منطقي بين التسمية والعنصر المسمى به. فقد سميت الفاتحة ببضع وعشرين اسما، أم الكتاب، وأم القرآن، .. " وثبت في صحيح مسلم

¹ _ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، فصل في تعدد أسماء السور، ص 24.

تسميتها السبع المثاني والصلاة، والحمد، وسميت الكنز¹.. وسميت المثاني لأنها تنثى في الصلاة، أو أنزلت مرتين...² والوفائية، ... ولهذا فقد اتخذت للـسور أكثر من تسمية، تسميتان، أو ثلاث أو أكثر: فسميت البقرة فسـطاط القرآن، لعظمتها وبهائها كما يذكر الزمخشري، وتسمى آل عمران الغياية، وطيبة عند أهل التوراه، وتسمى النحل: سورة النعم، والرحمن تكنى عروس القرآن، وسورة (حم عسق): تسمى الشورى وسورة محمد القتال، وتسمى الإسراء بني اسرائيل.... وسميت براءة بالتوبة والفاضة والحافرة، ويعطى اسمها هذا؛ بحفرها في قلوب المنافقين وسميت بسورة العذاب كما قال حذيفة وقال عمر كنا نسميها المشقشة³.... وسميت المائدة بالمنقذة . ولا تستقر هذه السور على تسمية وتركن إليها إلا لموطن كأن محمدا صلى الله عليه وسلم يريدنا بعده أن نركز على الموضوع المحال إليها من خلال التسمية المشار إليها.. ومم سبق تظهر ملامح تأسيس النص والمشاركة فيه، فتسمية السور ليست توقيفية: ولننظر إلى قول عمر كنا نسميها المشقشة، أو "ما جاء عن سعيد بن الجبير: قال قلت لابن عباس سورة الحشر؛ قال سورة النضير"⁴... وتختلف التسميات من صحابي إلى آخر في إثبات عن قيمة المسمى كذلك تعدد الأسماء على المسمى(كأسماء الله المتعددة التي تتأسس على صفاته الكثيرة وقدراته العجيبة، وما خصت العرب من مخلوقات بالكتاب؛ ككتاب الإبل، وكتاب الإنسان؛... إذ اختلفت وتنوعت أسماء الحيوانات ذات القيمة والنفع كالأسد والإبل... وغيرها)، وفي علاقة المسمى بالاسم، أو تعدد الاسم إنما توجيهه الى قيمة المسمى، وأرجع هنا أمرا آخر يتعلق بمشاركة المتلقين الأوائل هذه النصوص وفرحهم بها كمولود كانوا ينتظرون قدومه.

¹ _ ينظر موسوعة القرآن العظيم، د، عبد المنعم حنفي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1. 2004، ج1. المقدمة.

² _ البرهان في علوم القرآن مرجع س، فصل تدداسماء الصور.

³ _ ينظر إلى البرهان في علوم القرآن فصل تعدد أسماء السور.

⁴ _ أخرجه البخاري في صحيحه، باب حديث بني النضير.

إنه ليس قدوماً أفقياً يسري ويمشي بينهم، إنه قدوم مفضّل منزلّ كلام يوحى ليرتل، يركّزون على أهم نقاط تجليه واختلافه وتميزه فيسمونها باسم هو أقرب إلى تمييزها واختلافها، وكأنهم يتساهمون في ذلك يتبارون فيه. بالإضافة إلى الاستقرار كجماعة على اسم يعرفونه، ويتخذونه نصاً للتداول، من خلال السمة التي يذكرونها في النص.

إن فعل المشاركة الإيجابية في الخطاب القرآني أخذ موقف نكتة بهيجة مع تسمية السور ومشاركة الصحابة في هذا الفعل، فالنص يتأسس من مناسبات وجد من أجلها، أو أحكام، يؤسس لها، في مستقبله... فهم بذلك يختمون على هذه النصوص التي أصبحت بين أيدي البشري ووضعت من أجلهم ولتأسيس حياتهم من خلالها؛ فيشاركون فيها بتسميتها وتوصيفها، ويدفعون من بعدهم بفعل التداول والقراءة توجيهها إلى مركزية السورة والمعنى البؤري فيها. بل إن جانباً يظهر لنا أن الحق لم ينشغل بتوقيف التسمية كتكريم لمن تنزل عليهم، بمشاركتهم في تأسيس الاسم واختياره. فإذا كان اسم الإنسان يستعمله الناس ويعرف به صاحبه، فإن منشئ الخطاب جعل نقطة الوصل تأسيس التسمية لنزول الخطاب من الأعلى واستقراره وتداوله في الأسفل؛ وفقاً لاختلاف الرؤى ومركزية التفكير وقيمة العنصر المميز في السورة وكذلك اختلاف المواضيع والأحداث.

كما أجمل بعضها (السور) في تسميات خصّت بها، كالسبع الطوال؛ أو المئين؛ وفي حديث رسول الله: (أعطيتُ مكان التوراة السبع؛ وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المئتان، وفضلت بالمفصل)¹ وهي: أوائل سور القرآن أو مفتحاتهدون الفاتحة؛ وكلها من الطوال في عدد الآيات وعدد الأحزاب، وهي كما يذكر: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأنفال والأعراف ومنهم من يقول التوبة بدلا عن الأنفال. وهذه التسمية الجامعة

¹ عز الدين بن عبد السلام، بداية السور في تفضيل الرسول، حققه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، القاهرة، ط 1986، ص 59.

إنما لتوصيف فيها وليس هذا خارجاً عن شكلها كبنية ونسق، فهي تتميز بطولها عن غيرها، وسيأتي تفصيل في علاقة مساحة النص بجهد القراءة والفضل في ذلك، وعن ابن عباس وابن جبير "سميت طُولاً لطولها على سائر السور"، وسمي عدد من السور: بالحواميم السبع، أو ذوات حم.. فضلا عن تسمياتها المفردة، تطلق عليها تسميات لاجتماعها في الفكرة والمبنى وهي: سورة غافر، وسورة فصلت، سورة الشورى، سورة الزخرف، سورة الدخان، سورة الجاثية، سورة الأحقاف. لاشتمال بداياتها بـ: الحرفين (حم)، وقد التزمت في اجتماعها على اتفاقها. وتعت أيضاً بديباجات القرآن، والرياحين، والعرائس، .. وثمرة القرآن وتواجه، فقد روي عنه صلنله عليه وسلم أن لكل شيء ثمرة، وثمره القرآن الحواميم...¹ وبلغ من درجتها في اقترانها وقوفها على أبواب النار السبعة تتافح عن أصحابها، ويظهر ان في جمع هذه السور في مجتمع واحد وتسمية هذا المجتمع النصي بتسمية خاصة، مفصولة عن بقية الخطاب القرآني إنما لفضلها وتحفيز قارئها على ذلك. كما أن في تسميتها ما يدل على هذه القيمة.

6_1 _ انسجام النص بالنص:

السورة بالسورة والجزء بالجزء، والجزء بالكل.

يتلبس معنى السورة بمعاني عديدة، تجعل منها نسيجاً رابطاً ومتشابهاً مترفعاً، وجداراً حافظاً؛ فهي معجمياً تجمع بين معاني مختلفة الرفع والكلام، وفي تأثيرها وقيمتها: الأخذ بالرأس. وكذا في حدتها وقوة تأثيرها، وفي ترابطها وإحاطتها ونسجيتها تأخذ من الحائط معناه²، والانسجام بهذا المعنى يلمس حتى اللفظة الواحدة، "إذ الخصائص الفيزيائية للفظه

¹ _ عن مستدرك وسائل الشيعة، المحدث النوري، مؤسسة ال البيت، 1408 هـ، إيران.

² _ السور الحائط والجدار.

سورة الخمر وغيرها: حدتها.

هي خصائص تشترط فيها، توفر الانسجام بين أجزائها الصوتية، ووضوح مخارجها وقوة صفاتها، وجلانها، الأمر الذي يسعى إلى تحقيقه كل فعل لساني بغية الاقتصاد في الجهد... أي مسايرتها لقانوني: جمالية المسموع، والاقتصاد في الجهد المبذول أثناء عملية الإخراج اللغوي¹.

ويقول ابن عاشور في التحرير والتنوير "وتسمية القطعة المعينة من عدة آيات القرآن سورة من مصطلحات القرآن، وشاعت تلك التسمية عند العرب حتى المشركين منهم، فالتحدي للعرب بقوله تعالى: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ (البقرة 23)، لا يكون إلاّ تحدياً باسم معلوم المسمى والمدار عندهم وقت التحدي².

تحقق السورة القرآنية بما هي (نسق) أو جزء من القرآن، الانغلاق والانفتاح المكملين؛ ما يحقق معنى النسق؛ (الإغلاق للنص بانتهاء معناه وقيمه الدلالية) ثم الانفتاح على بقية الخطاب الذي هو كل ذو معنى مكتمل الى حين التقائه بالآخر (السورة) أو الجزء او القرآن كاملاً، فهي تنغلق كنسق محققة بخاصية التفرد هذه الأنا أو الذات المكتملة كنص؛ له مطلع ومتمنه ومختتمته، وفي دلالة لفظة السورة/(الجدارية) أو التسييج، إذ عند اكتمالها تحيط السورة هذا الكل بمعناه الخاص وقيمه المختلفة التي تنفرد بخصائص عن غيرها ممن يشبهها في النص الكبير، والسورة هي مجموعة آيات تترواح بين الثلاث آيات كـ(الكوثر) / أدناها حتى الـ286 آية (سورة البقرة)/أقصاها.

سورة الجد: أثره وعلامته وارتفاعه.

سورة البرد: شدته،

سار الشراب في الرأس: دار وارتفع... ينظر المعجم الوسيط والقاموس المحيط، ومعجم كثيرة...

¹ _ زواخ نعيمة، البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني، دراسة أسلوبية صوتية لسورة الواقعة، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط2012، ص 182.

² _ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج1. دار سحنون للنشر، تونس، ط 1997، ص 84.

وهي تفتح على غيرها من السور/ الأجزاء الأخرى في الخطاب القرآني ممثلة التتمة والتضام المهيئ للنظام العام والتام. في الشكل والمعنى. باستكمالها للدلالة المتبقية أو المتأسسة في المعنى الجزئي الجديد من بقية أجزاء النص الكل/ القرآن.

ما يشكّل الانسجام¹؛ والذي يتعلق في معناه اللغوي بالاستمرار والسيلان، والعرب وصفت الكلام الجميل محكم السبك بالماء (نذكر كمثال حكم ربعة بن حذار الأسدي على شعر عبدة بن الطيب قائلاً: أما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر... ومقولة الجاحظ في مفهوم الشعر:..إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وإقامة الوزن وصحة الطبع وكثرة الماء وجودة السبك..فقد ربطت العرب بين تماسك النص وجودته بحسن وكثرة مائه.

وكل سورة هي جزء وكل، جزء تام بخاصية انغلاق السورة على نفسها. وكل غير مكتمل، باحتمائها بمجتمع السور الذي تنتمي إليه، سواء من حيث المعنى الكلي للقرآن الكريم ودلالته الإجمالية، وهي رسالة الإنسان. نقطة التوازن في الكون، الكائن بين الكائنات والموجودات، أو من حيث الشكل الذي ظهر عليه النص ما يجعل منه متوالية خطابية غير منتهية التعالق والتداخل بفعل الحاجة إلى بعضها، وترتب دلالة بعضها على بعض ترتبا منطقياً لا تعاضلياً؛ و"المعاضلة" مفهوم نقدي تراثي يقصد به ركوب الكلام على الكلام حشواً وسوءاً؛ واحتواء بعضها لبعض. وارتباط فهمها الكل بفهم الجزء أولاً.

¹ _ انسجم: إذا انصب.

سجم: الدمع سجوماً وسجوماً وسجمت السحابة الماء: قطر دمعها.

سجم الدمع: سال قليلاً أو كثيراً، وأسجمت السحابة دام مطرها.

سجم الماء: صب، مالي أرى دمعك وحسرتي منسجماً ياهند أي انسجام، (الشاعر بدوي الجبل).

السَّجْمُ: الماء أو الدمع، صلي مغرماً قد واصل الشوق دمعاً سجاماً على الخدين بعد سجام (البحثري).

سجم عن الأمر: أبطأ، (ينظر قاموس العرب المحيط) (والمعجم الوسيط) مادة سجم.

ذلك أن فهم النظام الكلي يبدأ من علاقة الجزء بالكل والتي هي علاقة تتحقق أولاً بهندسة النص القرآني، وطريقة تفصيله وانفصاله إلى أجزاء وجزئيات وتمفصلات نصية؛ تجتمع وتتفق في مجموعة من المتتاليات النصية يجمع بينها التوافق الدلالي، الذي يحقق لها الاستمرار، والترابط، ثم يبسر هذا الفهم والتأويل.

أما من حيث الهندسة أو الرسم، فالسورة التي تعد عنصراً من الكل تمثل لنظام العناصر الجزئية التي تسمى آيات؛ وهي دوال لغوية تبدأ من تشكيلها من الحرف الواحد حتى الجملة الكاملة أو غير الكاملة؛ إلى الفقرة الطويلة التي قد تكون صفحة كاملة كآية التداين، وكلها تنتظم مع بعضها في علاقات مختلفة، داخل نظام السورة الواحدة ذات الدلالة الواحدة أو عدد من الدلالات لكن ضمن نظام لغوي واحد، يفصلها عن غيرها من الأنظمة التي ترتبط معها بعلاقات جديدة مجموعة من الإحالات والترابطات الكثيرة والمتعددة. " فالعناصر تتحدد بعلاقاتها داخل النظام، أي بعلاقاتها مع غيرها من العناصر اللغوية في التركيب الواحد"¹.

7_1_ ترتيب سور القرآن:

النص_السورة؛ في بحث عن جغرافيا بين النصوص_ (السور):

ربما يتساءل سائل ما فائدة البحث في ترتيب سور القرآن وعلاقتها بالتناسب الداخلي والانسجام الخطابي؛ أول الجواب ربما كان مكمناً في المبحث السابق، حيث أن السور قسمت مكياً ومدنية، وفقاً للمكان الذي نزلت فيه فتحدد مقامها بين النصوص. أو مجتمع السور.

¹ _بيارلي قوفيك وكاترين فوك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، تر منصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص39.

أما ثانيها، فإن ترتيب السور الذي (اختلف فيه)، هو إن كان ترتيباً وقفياً، يشغل الباحث بدراسة علاقة النصوص في تقدمها وتأخرها ودلالة ذلك. وتأثيره على التناسب والترتيب والانسجام. فقد استخدم الخطاب القرآني "القص لأهداف الدعوة، وليس القص من أجل ذاته، فقصصه على الرغم من أنها قصص أنبياء فعلاً، فإن حكيه لا يخضع لمسار الأنبياء الذين يورد قصصهم، بل يعرض في كل مرة ما يناسب الدعوة المحمدية في مرحلة من المراحل".¹ أي ما يناسب الخطاب العام في تمام معناه.

اجتهد السيوطي في التبرير والبرهنة على الترتيب الذي عليه السور في القرآن الكريم، بأن الترتيب وقف من رسول الله صلى الله عليه وسلم، في مقابل أنه تم باجتهاد من الصحابة. ولتحقيق هذا وضع قاعدة عامة وفقها رتبت السور قال: "إن القاعدة التي استقر بها القرآن: إن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له وإطناب لإيجازه. وقد استقر معي ذلك في غالب سور القرآن، طويلها وقصيرها"²؛ وهذا توضيح في مفتحة القرآن وما جاء بعدها من سور وأجزاء، باختيار نواة لغوية ومعرفية هي الهدي والتنزيل في أوائل السور الثلاث: الفاتحة البقرة وآل عمران: كمثال عن النواة المعنوية في كل سورة.

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6)) وفي البقرة:
الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2)... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا
أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ.. وجمع بين الهدي والتنزيل في سورة آل عمران فقال: الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ

¹ محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 4، 2013، ص 257.

² محمد الخطابي، مرجع سابق، ص 198.

وَالْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (4) "الآيات 1_4 آل عمران.

وهنا تفصيل آخر في قيمة اللفظ (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وكأنه تمييز وإعادة إبراز لقيمة وأفضلية هذا الاسم الذي ذكر في أعظم آية في القرآن وسنامه (آية الكرسي) الآية 255 البقرة: السورة الأسبق لسورة آل عمران. ثم تتوالى التفصيلات من هذين النواتين اللغويتين، دلاليا ومعرفيا في الخطابات الثلاث؛ وهكذا... والقارئ إذ يقصد النص القرآني ليس لطلب ما هو فقهي وعقدي فحسب؛ بل الإحاطة المعرفية التي يلتم بها، وهذا ما ظهر على مستوى النصوص المكية التي وجهت للإنسان طالب المعارف المختلفة، والعقائد غير المحددة إلى التأمل والتفكر في ما حوله؛ فـ "الرغبة في النص القرآني هي أيضا رغبة في الفهم والمعرفة"¹، فهمه، فهم ما يحيل عليه، والإحاطة بالمعرفة فيه خاصة والتي يرتبط بها ويحيل إليها. فالعالم يفهم من نصوص مختلفة، أحاطت به علوم التجريب وعلوم الإنسان وحتى الفنون، واتجهت إليه النصوص السماوية، لترقيع الخطايا، وتحديد المسار. والنص عالم، يتعالق في تجانس مع العالم الذي حوله، والعالم الذي يشكله، يطلب الخطاب القرآني عالمه وإنسانه، المرسوم والمتشكل على أساس من هذا النص. يدعم المعنى في كل خطاب جديد من الفاتحة إلى البقرة إلى سورة آل عمران فالنساء فالمائدة... الأعراف والأنفال.. حتى صغار السور، يدعم المعنى المعنى وترسخ اللغة ذلك.

8_1_ بنية الخطاب القرآني: بين الاختلاف والاتفاق:

النص القرآني/ كنظام لغوي تسلسلي واحد؛ بني من النصوص الطويلة والقصيرة التي شكلت في النهاية مجتمعه، بعد أن كان خطابا مشذرا ومجزوذا من آيات مختلفة أسباب

¹ _ مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ط1. 2004، ص 7.

النزول، وأطراف خطابية تنزلت حسب زمنها وميعادها والحاجة إليها، وفقا لمنظومة الحدث الآني، أو ما سيحدث أو الحدث المتوقع، فالإنسان زمن يكرر نفسه ودورته وحياته عبر أزمنة مختلفة، يمتاز هذا النص بفرادة تماسكه محط اهتمامنا وتوضيحها، إذ تظهر نصيته من خلال تماسك ما كان شتاتا جاء به الحدث والمقام الحاضر والمستشرف. وإذا كان "النص هو سياق المعنى. والقرآن بينيه وفق نظام خاص به. وإذا كانت اللسانيات تستخدم مصطلح "النص" للدلالة على مقطع مكتوب أو شفوي، بغض النظر عن طوله وقصره، ولكنه يشكل كلا متماسكا. فإن النص القرآني يمتاز عن بقية النصوص بفرادة تماسكه وكيفية هذا التماسك"¹. لأن المفروض في أي نص أن ينتهي إلى دلالة ما تتأتى من التماسك والمنطقية في انسجام عناصره، وتوافق جزئيته مع كليته؛ لكن النص القرآني بما هو نص تجميعي لمقطعات خطابية متفرقة

- فالنص هو مقطعات خطابية _ اجتمعت بحسب النزول، ثم جمعت بتوقيف من الرسول/ حامل النص الرقيب عليه المرشد والموجه_ (ضعوا كذا في موضع كذا)، ثم في مصحف باجتهاد من الإنسان/ أصحاب واتباع محمد: المخاطب المزامن للنص والتغيرات الطارئة عليه، مذ كان مقطعا حتى صار كتابا)؛ فهو لم ينتج دفعة او جملة واحدة.

- متواترة الاستحضر زمنيا (فقد تشكلت خلال ثلاث وعشرين سنة).

- متنافرة المقام والحادثة، (الآنية؛ نقصد بالآنية المناسبة التي سببت نزول المقطعة النصية_ والمستشرفة_ ونعني بالمستشرفة كل الحوادث التي يتفق معها النص منذ كان إلى حاضره، ومستقبله)

¹ - جاك بيرك، إعادة قراءة القرآن، ترجمة وتعم منذر العياشي، دار الإنماء الحضاري، ط2، 2005، ص 17.

– متباينة التصنيف دلاليا تلتبس السورة كنسق منفرد التوصل السورة اللاحقة من خلال روابط دلالية يرسمها أفق السورة.

ولكلّ سورة قرآنية جوها الخاص، وأحيانا تحمل أكثر من مواضع وتحميل على أكثر من مناسبة تتفق معها وقد يكون للآية في السورة ما يوضعها من المقام والسياق الذي جاءت متفقة معه، ثم تعود وتتصل بمفاتيح ومغاليق في نهاية ومقدمات السور لتنتفح على الدلالة الكلية للخطاب القرآني مرسية لنظام قيمي ودلالي ارتسم لبناء وتشبيد الإنسان؛ هنا خيط دلالي واصل لترابط النص في جميع نصوصه، لكن هذا لا يمنع كما ذكر أن لكل سورة جوها الدلالي الخاص، ومحيطها الدلالي الذي وإن اختلف عن الكلي بالإضافة التفصيلية أو الجديدة/ فهو يكمله.

الفصل الثاني:

الإنسجام الإقاعي

1_ الإيقاع في النص القرآني:

1-1- اتزان الشكل/ اتزان للمعنى؛ توازن للنص:

جمع القرآن في شكله الإجناسي (إن جاز تصنيفه وفقا لعناصره الشكلية) بين النثرية والشعرية، فلا هو هذا ولا هو ذلك، إذ جمع من أساليب السرد ونكت القص، ونوادر الحكي، وفقه الحكمة ما يشير إلى اشتماله على خصائص النثرية أو السردية، كما تجلت في سوره خصائص الشعرية من إيقاع وموسيقى وخيال وتخيل وتطويع للغة باستخدام المجاز وسحر البيان والبديع.

ولعل أكثر من أدرك النص في شكله ومعناه وقوته وتمكنه وأراد أن لا يفهمه، أو جهد إلى أن لا يفهمه هم كما سماهم القرآن الكريم (الجاحدون)، وهم من استقبل النص وخبره جيدا وفهمه، لكن قوة الشر فيه وطمس الفهم والمعنى، غلبت قوة الخير والجمال وإثبات حقيقة النص المدهش؛ يسمع الوليد بن المغيرة من رسول الله كلامه فيطلق حكمه على النص الذي تداخل وفقا لفهمهم بالنسق المعياري أو النسق النمط المعروف عندهم؛ "الشعر"، أعلى بنية لغوية وفكرية وصل إليها العربي، ولم تكن هذه المقاييس قائمة على الاتهام بقدر ما قامت على الدهشة وعدم التبيين والفهم اللتين أثارهما نص جديد في المبنى والمعنى ومن ثم تحقيق الأثر على متلقيه، أو الإصرار على عدم الفهم إذ يقول: " والله لقد نظرت فيما قال الرجل، فإذا هو ليس بشعر، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة، وإنه يعلو ولا يعلى عليه"¹. فقد تشكلت لغة الرجل بينهم، وما كان شاعرا، وقد تربي بينهم وخبروه وما عرفوه شاعرا. ومع ذلك لا يمكن أن نصف ما اتهموا به الرجل (محمد) إلا بالبهتان، أو الجحود/ الكفر كما وصف الخطاب القرآني، ذلك أنهم أكثر من فهم هذا النص وخشي زعزعتهم لأنظمة السياسية

¹ _ الحافظ ابن كثير الدمشقي، تفسير القرين الكريم، ج 4، دار الفكر، بيروت، ط1401هـ، ص444.

والاقتصادية والاجتماعية السابقة؛ التي تمنحهم السيادة والسلطة. لأنهم أكثر معرفة بهذه اللغة كحامل للوعي والمعرفة، فقد كانت دستورهم الوحيد. وإرثهم الوحيد.

الإجماع على شعرية الخطاب القرآني قامت على أساس من الشكل الذي رسمه الذهن العربي للشعرية، فقد ظل الشعر ومفهومه متأسسا على الوزن والقافية قرونا عديدة، متأسسا على الصوت كمركزية، لأنّ الخطابية تعتمد على الأداء المحقق بالصوت.. هذا الشكل المبني على السماع الخالص، فكل نص تتمظهر فيه الموسيقى الخارجية؛ _على ما فيه من قيمة جمالية ودلالية معرفية_ فهو أقرب إلى الشعرية، والقرآن ألمح إليهم بذلك من خلال سجع فواصله، والفاصلة مصطلح استحدث مع بنية النص اللغوية الجديدة، فلا هي قافية ولا هي كلمة ولا هي جملة، بل إنها قد تكون حرفا، إنها نهايات يتوازن فيها الزمن الإيقاعي، أو يتصاعد بالتراتب وتتعاور بين القصر والطول من حيث المادة اللفظية، ولا يمكن للإيجاز فيها أن يكون دليل قصور أو قلة قيمة عن غيرها من حيث المعنى والأهمية، ونشير هنا الى سور كما ذكرنا سابقا، على الرغم من اقتضابها اللغوي وقصرها (مسافة النص الزمنية هي العلاقة بين البنية اللغوية وما يساويها عند تحققها صوتيا اوخطابيا) إلا انها اخذت قيمة كلّ القرآن (الفاحة) أو ربع القرآن: (الزلزلة والكافرون)، وثالث القرآن (الإخلاص)، فهذه النصوص القصيرة أخذت قيمتها الدينية من دلالتها وخصوصيتها المتعلقة بالذات الالهية، وترسيخها لثوابت عقدية كالتوحيد، أو الفصل التام بين الكفر والإيمان والكفر بالإخلاص، أو الإيمان بأحد او كل أركان الدين. كما تأسست في شكلها على اختصارها وإيجازها الأقرب إلى فهم كل عقل بسيط. بالإضافة إلى أن قيامها على انتظام الشكل والإيقاع وتوازنه، وتساوي القواصل، ما يسمح بإحاطتها بالمتلقي والتأثير عليه. فهناك تكرار إيقاعي في هذه الصور القصيرة مركّز مثبت للدلالة.

فحديث العرب منتظم وبلاغتها غنية، وقد تكلم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم، فلا كلام أحسن من كلامه كما يذكر قدامة بن جعفر في باب النعوت، وكثيرا

ما كان يتوخى السجع ويتخير الكلم حتى في دعائه فقد عوّذ الحسن والحسين فقال: " أعيذهما من السامة والهامة وكل عين لامة"¹. إذ يتحقق جزء من النصية باعتلاء سلم الإيقاع، فضربات النص المتواترة والمتراتبة تسمح باستقطاب الأذان، وتقر في القلوب؛ فضلا عما يمكن أن تحيل إليه من استيعاب النص وتسهيل حفظه وتيسير امتلاكه كنص محفوظ هو ملكية للجميع، وهو المرجو من الخطاب القرآني، وهو كلام على قدر توازنه الموسيقي والإيقاعي وبلاغته يحقق معناه، ويبلغ مقصده، فالبلاغة فيه ليست ترفا لغويا، وتناسقه الإيقاعي ليس تحسينا لغويا يتوقف عنده النص، إنما النفوس تطرب بفطرتها لتجانس الصوت وتصخي له الأذهان قبل الاسماع، إذن هذا التأثير المنشود في تعلق النفوس بالخطاب المنشود والمنتظم صوتيا، فائدة كبيرة في استقطاب السامع والتأثير عليه، "كتأثر سيدنا عمر بسماعه لقراءة القرآن ودخوله الإسلام بسبب ذلك"².

يرجع ذلك إلى أن الأذهان تتصرف بطبيعة فيها إلى الأصوات المنتظمة والفواصل المتساوية، ويذكر في ذلك تأثير السجاع الكهنة على أسماع الناس درجة سحرهم وتغيير طباعهم، لما في كلامهم من تناسق صوتي وتجميل إيقاعي؛ فـ " ذلك الميل الفطري الشديد الذي فطرت عليه النفس العربية، وجعلها تطرب إلى الى جمال الإيقاع في كلامها، وحملها على التقيد به والتزامها في جل أصناف نظمها شعرا ونثرا"³، غير أن الأمر مختلف في علاقة الخطاب القرآني وحتى الكلام النبوي الشريف؛ بالتناسق الصوتي البعيد عن السجع السحري المعروف عند الكهنة، بعيد عن الشكل المعروف عن الانتظام الصوتي الشعري، وآدائه بالترتيل. ولكنه تناسب محمود، فقد وصف الجاحظ كلام رسول الله فقال: ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا،

¹ _ أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 19، الرياض، 1992، ص223.

² _ ينظر عبد السلام هارون تهذيب سيرة ابن هشام، شركة الشهاب، الجوائز، دعت، ص 69.

³ _ انظر المرجع نفسه، ص226.

ولا أحسن موقعا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم¹، وفيما يلي تمثيل لهذا الانسجام الفاتن والملهش في الإيقاع القرآني وسنمثل لذلك بسورة القمر، ولعلها السورة الوحيدة التي حافظت على نهاية فاصلة واحدة هي حرف (الراء)، فيما تبدلت نهاية الفاصلة في سور القوآن الكريم خاصة بين حرفي النون والميم كحفين متقاربين صوتيا ثم اللام والراء...:

بسم الله الرحمن الرحيم

1. اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ.
2. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمَرٌّ.
3. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ.
4. وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ.
5. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ.
6. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ.
7. خُشِعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ.
8. مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ.
9. كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ.
10. فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ.
11. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ.
12. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُدِرَ.
13. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ.
14. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ.

¹ نفسه ص223، وينظر البيان والتبيين الجاحظ، تح عبد السلام هارون مج 2، بيروت، 1948، ص17_18.

15. وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .
16. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ .
17. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .
18. كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ .
19. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ .
20. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ .
21. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ .
22. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .
23. كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ .
24. فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ .
25. أَوْلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ .
26. سَيَعْلَمُونَ عَدَا مَنِ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ .
27. إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ .
28. وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ .
29. فَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ .
30. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ .
31. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ .
32. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .
33. كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ .
34. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ .
35. نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ .
36. وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ .

37. وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن صَيْغِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ .
38. وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ .
39. فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ .
40. وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ .
41. وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ .
42. كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَحْذَى عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ .
43. أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَانِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ .
44. أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ .
45. سَيُهِزُّمُ الْجَمْعَ وَيُولُونَ الدُّبُرَ .
46. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ .
47. إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ .
48. يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ .
49. إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ .
50. وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ .
51. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ .
52. وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ .
53. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ .
54. إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ .
55. فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ .

وسورة القمر هي السورة رقم 54 في ترتيب المصحف القرآني، مكية وعدد آياتها

55. وفيما يلي بعض ملامح السورة الشكلية والدلالية التي تسمح بانقياد التلقي والتأثير عليه

ثم تأسيس أفق نصي متكامل يوفق بين المقاصد المرجوة والدلالات المحتملة.

تضمن الخطاب في مقدمته الحديث عن ظاهرة كونية هي انشقاق القمر، وعلاقته بالظواهر والحوادث الغيبية التي تبشر بانتهاء الكون، ونهاية العالم. إنه يقين اكتمال دورة حياة الكون، لوحة لتجسيد الزمن الأخير واقتراب الساعة باللغة، ودعوة للإنسان لترتيب حياته برؤية مشاهد من الغيب ولوحات من الزمن السابق، يضع الخطاب متلقيه داخله متجولا بين أزمنة متعاقبة، وقف الإنسان فيها متمردا على طبيعة خلقه، وطبيعة الخلق من حوله، تتوالى المشاهد واللوحات السردية، كقصصات زمنية مضغوطة وعابرة، المتلقي يتجول داخلها، إنسان الآن تستدعيه اللغة داخل دورات من الزمن السابق: نوح وعاد وشمود ولوط وموسى، يقع فيها شاهدا ومحكما، على حوادث الصراع بين مخلوق مستقو (البشري) ومخلوقات ضعيفة وهينة (الماء والريح والحجر والماء مرة أخرى)، ليعيش زمن النهايات والانهازم. هي إذن صورة مكررة لزممنته في الحقيقة. فالإنسان يعيش زمنه المنتهي وهو جاحد وظالم ومتمرد كل زمن الحياة ومنهزم في النهاية. من خلال رؤيا وتأمل العالم المحيط بالإنسان؛ هذا العالم مبني على ترتيب وتراتب منطقي والذي يقود إلى مبرمج واحد له يرتب الأحداث ويوالي المشاهد ويعيد تكرار الأزمنة "إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ قَدَرْنَا بِقَدَرٍ" الآية 49. وفي تشاكل دلالي وتركيبى وصوتي ظاهر تتكرر بعض الآيات أو أنصاف الآيات كإلزامة تنقر صوتيا ساعة وقوع العقاب، كأنها تنذر القارئ بالحدث، وترسل إليه من حاصل اللحظة الغابرة. ومن صور التماثل استعادة أزمنة وتواريخ يعيد بعضها بعضا، يرى القارئ فيها النهاية المتكررة الواحدة. (يساعد حرف الراء في إبراز دلالة التكرار وإعادة الزمن والتاريخ وتراتبه)، متشاكلة مع اقتراب نهاية العالم والتاريخ (اقتربت الساعة وانشق القمر)؛ كذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذُرِي. (18) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19).. وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ. (56) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ

فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ (57) في إشارة إلى أن الأحداث تكرر أخطاء

بني آدم، والتجارب تستعاد فيها الأخطاء، وتتغير فيها العقوبة والقوة الموازية تقلب

موازن القوة البشرية من خلال احتمال الغيبي والمعجز.

يجدر بالذكر أن السورة المكية تتجه إلى أذهان عامة، ومثلق مشترك مختلف في

صدارة التلقي، انتبه الخطاب إلى ضرورة تعلقه بالسماع وتأثير ذلك عليه، لذلك حقق النص

جزءاً من فاعليته وتأثيره باستخدام تساوي الفواصل إيقاعياً، وتقارب مخارج الصوت في

نهاياتها، وانسجامها، حد الالتزام بفاصلة واحدة تلتزم بروي واحد إن جاز تسميته هو حرف

الراء.

وإذا جاز لنا تقسيم النص على بياض الصفحة، وإعادة تشكيل بياضها نشهد تقارباً

في شكل قصيدة التفعيلة من خلال تكرار المقطعة فاعلاتن فاعلن؛ والتي تعتمد هذا العنصر

اللغوي الإيقاعي كركيزة وذلك من حيث طول وقصر الأَشْطَار، وتقسيم عدد التفعيلات. إذ لو

قسمت السورة مثلما تم إلى مجزئات وتفعيلات، انتظم أغلبها في شكل مقاطع صوتية ودلالية

مقاربة ومتساوية زمناً وإيقاعاً ومنتظمة انتظاماً أقرب إلى صورة الشعر؛ وهو ما حمل القارئ

الكافر/ الجاحد على تصنيفه الإجناسي الشعري.

فقد ارتكزت السورة في نهاية فواصلها على حرف الراء، كما سميت بالقمر، ولعلها

السورة الوحيدة التي حافظت على التقفية (والقافية كما يعرف في التنظيم العروضي هي آخر

ساكنين في البيت قبلهما متحرك)؛ مع انتظام حرف النهاية أو نهاية الفاصلة، من العنوان

حتى آخر آية فيها. يتوالى في تشكيل إيقاعها تشاكل العنوان والموضوع والكلمة والآية

والفواتح والنهايات، إضافة إلى التكرار الحاصل في الآية اللازمة بين كل حادثة ترويتها

السورة أو القصة المثل، والقصة التي تليها، تكرار يزيد من فعالية النص إثارة الدهشة

السماعية والمعنوية لدى المستمع أو المرتل. ويعرف سوريو الإيقاع أنه: " تنظيم متوال

لعناصر الفنون لاشتراكها في صفة المتعة الجمالية متغيرة كيفياً في خط واحد بصرف النظر

عن اختلافها الصّوتي".¹ لأن هذا الاختلاف الصوتي، في الإيقاع في شكل نقرات أو أزمنة غير متساوية، خاصة قرآنية، فهو بين الإيقاع المتواصل الذي تتساوى مجموع نقراته في أزمنة متساوية، وبين إيقاع منفصل وهو مجموع النقرات التي هي بنية الإيقاع المنفصل، في أزمنة غير متساوية². يجمع القرآن بين الاثنين، فحالما يأخذ الصوت والإيقاع بالأسماع حتى يستقر بالسيطرة على الأذهان، يكسر إيقاعه المفصل بفاصلة مختلفة طولاً أو نهاية كإعادة لتحكم الوعي. وتحقيق التوازن في المستمع دون استمالة السالبة لقدرته على التفكير كما ذكر فيما يحدثه سجع الكهانة. تلك الاستمالة والتأثير (كتأثير السورة سورة الخمر) المتعلق بتأثير الشكل وتعمية الموسيقى التي يحدثها التسجيع في الكلام. فعن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في امرأتين من هذيل، اقتتلتا فرمت إحداهما الأخرى بحجر فأصاب بطنها وهي حامل فقتلت ولدها الذي في بطنها فاختصموا إلى النبي فقضى أن دية ما في بطنها غرة عبد أو أمة؛ ففقال وليّ المرأة التي غرمت كيف أغرم يا رسول الله من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهله، فمثل ذلك بطل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهان³، أو كما قيل أسجعا كسجع الكهان مستكرا ورافضا هذا التتميق الشكلي المقصود منه التعمية على السّامع وأخذه بالتطويع الموسيقي والإيقاعي والتأثير بالباطل (فعل الكهانة). لما في ذلك من تأثير سلبي على المتقبل للكلام، وأخذ الحق بالباطل.

¹ عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص 124.

² صلاح عبد القادر، في العروض والإيقاع الشعري، شركة الأيام، الجزائر، ط1. 1996، ص158_159.

³ أحمد بن محمد العسقلاني فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تح عبد العزيز بن الباز، ومحمد فواز عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط1. مج 10، ص 226.

2_ انسجام النص/ الصوت والإيقاع:

أ_ النص القرآني مرتكزا على الواو والنون:

اعتمد النص القرآني كخطاب على الوصل والارتكاز، الوصل بين الآية والآية، والارتكاز الإيقاعي في أواخر الآي على حروف بعينها جرى تكرارها كحروف نهايات، وأهم هذه الحروف: الواو والنون والراء والميم والذال والياء.

وفي إحصاء لنهايات الآيات نجد الخطاب القرآني يعتمد في ارتكازه على حرف النون في أكثر من نصف آياته التي يبلغ عددها (6236) آية؛ فهناك 3124 آية انتهت بحرف النون.

في حين اعتمد على الوصل بالواو فيما يقارب ثلث عدد آياته. 2232 آية تبتدئ أو تقترن اللاحقة فيها بالسابقة بحرف الواو ثم يليها حرف الفاء في عملية الربط بين الآيات والمواضيع، في الترتيب بـ698 آية. فضلا عن الهمزتين بـ1218 آية. ونحن بجدد أكثر الحروف ارتكازا في الخطاب القرآني نحاول أن نثبت أهمية هذه الحروف مع تفصيل ما حققته البدايات والنهايات من وظيفة في تماسك الخطاب وانسيابيته. ولهذا كان لا بد من البحث في وظيفة هذه الأصوات وصفاتها وعلاقتها بالنص الشامل وتأثيرها.

1_ الأصوات النون والميم في اللغة العربية:

النون والميم من الأصوات المائعة وهي (اللام والميم والنون والراء) وهي التي يسميها علماء العربية بالأصوات المتوسطة¹ ؛ وهذان الصوتان من القرابة حدّ التشابه والاستيعاظ. وقد تنقلب الميم نونا في العربية إذا وقعت في الطرف كما في أن التي أصلها ميم في بقية

¹ رياض عبود غوار الديلمي، اللسانيات والصوتيات، جهود في اللغة والتحقيق، دار غيداء للنشر، ط1. 2014، ص

اللغات السامية¹ أو التميميم الذي يحدث في الأكادية وأصله نون، في مثل (Kalbum) وهو يقابل التنوين في اللغة العربية في نحو (كلب)²

وهذا إنما يدل على تقارب الحرفين صوتياً حدّ التداخل وأداء مفسس الوظيفة الصوتية. هذه العلاقة بين النون والميم " هي التي تفسر لنا ورود بعض الكلمات في العربية القديمة بروايتين بالميم والأخرى بالنون، مثل: الغيم والغين، القاتم والقاتن (للأسود)³. ولهذه العلاقة الصوتية بين الميم والنون يرجع الدكتور رمضان عبد التواب، السبب في أن يتوالى هذان الصوتان في السجع والفاصلة في اللغة العربية من دون أن يختل النغم مستشهداً بقوله تعالى (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)). الآية 1_4 سورة القلم. إذ تركز نهاية الآيات الثلاث الأولى على حرف النون أولاً ثم في يختلف في الآية الرابعة ليتكىء على حرف الميم، من دون أن يحدث ذلك خلا إيقاعياً أو عدم انسجام لدى المتقبل. كأنهما حرف واحد.

وفي الشعر كقول الراجز:

والله ما فضلي على الجيران * * إلا على الأخوال والأعمام⁴ . فكأنّ ليس هنالك

اختلافاً بين الصوتين، وكأن الأمر متعلق بالتصريح لتقارب المخرجين حد التساوي.

وفي سورة الواقعة وحدها "يتواتر الصوتان (الميم والنون) ثمان وسبعين مرة، في

فواصل الواقعة، ويلاحظ أنهما من أكثر الصوامت وضوحاً، وأدناها إلى الصوائت⁵ .

¹ _ ينظر المرجع نفسه ص نفسها.

² _ المرجع نفسه، ص ن.

³ _ رياض الديلمي، اللسانيات والصوتيات، ص 85.

⁴ _ م نفسه ص نفسها.

⁵ _ زواخ نعيمة، البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني، دراسة اسلوبية صوتية لسورة الواقعة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1. 2012، ص 68.

فلئن أصاب تردد روي النون مثلا الحصة الأكبر في الفواصل، فإن ذلك لم يكن من شأنه إخماد النشاط الشعوري لدى المترقب¹، ومنذ أول سورة في الخطاب القرآني، يأتي هذا التناوب بين هذين الحرفين المتقاربين " الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)"²، ثم يظهر أكثر تجليا في السورة الثانية (البقرة). ويظل الحرفان مهمان في أغلب اللغات وأكثرها السامية، إذ: "أن هذه الأصوات "الميم والنون" بقيت في اللغات السامية كلها"³.

ويتواتر الميم والنون في الخطاب القرآني كحرف فاصلة على التوالي:

الميم: 665 مرة/ ما يعادل عشر القرآن الكريم؛ أما صوت النون: 3124 مرة/ وهو نصف القرآن الكريم تقريبا؛ في حين تليهما الألف الممدودة مع تنوين الفتح أو واو الجماعة بـ: 949 مرة. أي قرابة ربع القرآن تقريبا.⁴

وتآلف الميم والنون في الخطاب القرآني يأتي "لأنهما حرفان يتقاربان في المخرج والصفة، ولأنهما يحملان صفة مشتركة هي الغنة، ولأنهما يصدران من حيزين متجاورين، هما الشفتان واللثة"⁵، بالإضافة إلى جماعة الأصوات التي تنتمي إليها الأحرف والأصوات: اللام والميم والنون، هذه الأصوات المائعة التي لا تحتاج إلى جهد في إحداثها، كما أبرزت ملامح بعض التجمعات الصوتية وأماطت عن قيم صوتية تجمع بينها. وذلك نحو مجموعة الميم والنون واللام، التي تميزت بكونها أسهل الأصوات في اللغة العربية لأن نطقها لا

¹ _ المرجع السابق، ص 67.

² _ سورة الفاتحة وآياتها سبعة 7.

³ _ نفسه ص نفسها.

⁴ _ عملية الإحصاء جهد فردي شخصي.

⁵ _ المرجع السابق، البنية الإيقاعية، الصفحة 68.

يتطلب جهدا عضليا كبيرا لوضوحها وسعة مخارجها وما تحدثه من رنينوموسيقىتترب الأذن لسماعه¹. هي السهولة التي سمحت بترتيبها على توافق تقارب الأصوات في فواصل الخطاب القرآني. كما سمحت لها أن تلين وتختفي بمجاورتها للحروف مهما تقاربت منها أو تباعدت.

هذا الترتيب الصوتي الذي ينسجم مع روح التلقي الإنسانية التواقة الى الجمال والتذوق الموسيقي والانسيايية التي تفرضها السهولة الصوتية التي تميز هذه الأحرف: "فالإيقاع ظاهرة أساسية في [انسجام] النص القرآني وجماليته، يبرز العناية السامية بتربية النفس البشرية الميالة الى كل ما له وقع ملذ، والمنسجمة مع ما طبعت عليه من الاعتدال والتوافق"². وظاهرة اقتراب الفواصل وتساويها وتواترها بأحرف وأصوات أو مقاطع وتقنيات جعلته يقترب من الكليّة والكتلة اللغوية الواحدة المتزنة معنى ومبنى وفنيا وجماليا إيقاعا وتواصلًا. خاصة مع المجتمع الذي ظهر فيه الذي كان ذا ثقافة شفوية يندر أن تخط وترسم وعيها على رقع أو فضاء فتحده وتحدده بجغرافيا ترفضها كطبيعة بشرية (الطبيعة العربية). " بل نراه من أهم أدواته التوصيلية التي أنتجها تفاعل التنزيل مع الواقع التاريخي العربي، المتسم بنزوعه إلى ثقافة الذاكرة المسموعة، التي تركز أساسا على عوامل ترضي الأذن الموسيقية، حتى الإشباع. وقد كانوا يعتمدون في مسامعهم المرهفة في الحكم على المنجز اللغوي"³. هي البيئة ذاتها التي نشأ فيها الشعر مكتملا جماليا وفنيا بالغًا مقاصده التبليغية والتواصلية والفنية الجمالية؛ مكتنزا بتحف البدايات والنهايات وتكرارها في شكل نظام موسيقي يحفظ للقصيدة حدودها، وجغرافيتها النصية وامتيازها الصوتي والإيقاعي، ويحفظ للشاعر قدرته ونبوغه وتمكنه. ونظام السورة القرآنية يقترب من نظام القصيدة العربية إيقاعيا ولكنهما

¹ _ إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1975، ص 71.

² _ المرجع السابق، زواخ نعيمة، البنية الإيقاعية، ص 5.

³ _ زواخ نعيمة، البنية الإيقاعية، ص نفسها.

لا يتمثلان، إذ يكسر النسق القرآني النموذج الإيقاعي العربي في القصيدة والشعرية التراثية، التي تلتئم في شكل منتظم مصبوب صبا في قالب متساو. لكن الخطاب القرآني يتقلت من هذه الميزة التي يأخذ بعض خصيصاتها كالأخذ بالأذهان واستمالة التلقي والقدرة على الطبع بجمالية على القلوب والأرواح من خلال حسن وتناسق الميزان. ليثبت انها ليست غرضا في ذاتها، وإنما هي أحد الأعنة التي تربط بها فرس التلقي والإفهام. وثبت الدلالة المرجوة والتأثير. فحين يترتب حرف الباء على التساوي في نهاية الآيات في سورة المسد مثلا يكسر هذا الترتيب الصوتي بنهاية مخالفة للنسق السابق (سورة المسد)، ومتحدة مع النسق اللاحق (سورة الإخلاص). وحين ينتظم نص سورة المطففين في أواخره مرتكزا على حرف النون: "وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (1) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (2) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4)"; يكسر الانتهاء بحرف الميم هذا الانسجام في الآية التي تليها ليوم عظيم⁵. وكذا في الآيات الموالية حتى نهاية السورة، محققا انسجاما وتألفا من نوع آخر يحافظ فيه من خلال التقارب الصوتي بين الحرفين على التآلف والانسجام حتى اكتمال السورة في هذا الدوران والتآلف بين الحرفين. كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون، كتاب مرقوم يشهده المقرَّبون إنَّ الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نظرة النِّعيم.. وهكذا.. هنالك كسر للنسق المتآلف لبناء نسق جديد داخل النسق وهكذا لأجل بناء الكلية.

2_ الواو والميم والنون في الخطاب القرآني:

للشيخ محي الدين بن العربي كتاب في عشر صفحات سمي كتاب الميم والنون والواو يسرد فيه أهمية وخصائص وأسرار هذه الأحرف. وهي حروف متماثلة البدايات والنهايات يفصل بينها حرف العلة. يقول في كتابه: "هذا منزلٌ شريف؛ يعطيك من المعارف الإلهية

الوجودية ما يناسب في الشاهد الميم والواو والنون الذي آخرها أولها فلا أول ولا آخر¹ وجمعت هذه الحروف في الدراسة لأهميتها وارتكاز معظم الآي القرآني عليها سواء في نهايات الفواصل أو في الربط بين الآيات، ولكونها حروف لها أسرار ولها علم خاص بها. ولهذا قدم العلم بالحروف على العلم بالأسماء تقديم المفرد على المركب. فالمعرفة بها تتم قبل المعرفة بالكلمات. لتترتب لها دلالة خاصة، وتصبح ذات قيمة دلالية أخرى حين تقترن بغيرها في الكلمة المركبة.

وعندما نبحث في قيمة هذه الأصوات وخصائصها التي جعلتها حروفاً معظمة، وعلاقتها ببعضها وعلاقتها بالدلالة في النص القرآني؛ نكتشف أن رسمها الشكلي والصوتي يتبع نظاماً تقابلياً للحرف. وهذه الصفة من مراتب أسرار الحروف كما يقول ابن العربي. ويتقارب رسم شكل حرف النون والواو حدّ التطابق عند الخطاطين، وهو رسم الحرفين في شكل قارب للنجاة. أو حرف صول موسيقياً. إذ تدخل النقطة في بطن النون فتشكل ما يشبه حرف الواو، لتصعد حركة الحرف إلى أعلى ثم تعود إلى أسفل الحرف. ويتقارب مخرج الميم والنون حدّ التماثل صوتياً وإمكانية الاستبدال كما سبق وذكرنا.

والواو حرف واصل واسط كما قالت العلماء، يصل بين الأشياء والأمور فيجعلها واحداً، وتلث آيات الخطاب القرآني يصل بعضه بعضاً بحرف الواو من حيث الابتداء، أي أن ثلثي هذا النص موصول ببعضه بهذا الحرف الجامع. وهو حرف محقق لنظم النص وحده ومؤسس لتناسبه واتساقه. وحضوره كصوت في الكلمة يعني الوصل والتمام، فماذا لو كان وصلاً في النص بأكمله.

وفي الخطاب القرآني 15 سورة ابتدأت بحرف (الواو) وهي:

¹ _ وقع الكتاب في يدي إلكترونياً واستفدت من قراءته في البحث من خلال قراءة الدكتور: محمد عبد الغني.

الصافات والذاريات والطور، والنجم والعصر، والمرسلات، والتين، والعاديات والليل والضحي ووالشمس، والطارق، والبروج، والنزعات، والفجر. وهو ابتداء وصل وقسم بمخلوقات كونية وأزمنة كونية. الواو هنا تبدو واوا غير واصلة بقدر ما هي واو قسم. وهي تحيل في دلالتها على الانفصال أكثر مما تحيله على الاتصال. لكنها واو واصلة من حيث فاعلية القسم وزمنه وموقعه وترتيبه في النص، فالصافات تلت سورة يس، التي أقسم فيها بالقرآن الحكيم وأعاد القسم بمخلوقاته على ذاته وألوهيته وتفردته في سورة الصافات، وذلك ما حدث في سورة الذاريات التي تلت القسم بالقرآن ذي الذكر في سورة ق لينتبه القسم على نهاية الكون واليوم الآخر وكينونة الحساب والبعث والنشور. وكذلك في الطور والنجم التي تلتها. فجاء موضع الواو والقسم بمخلوقات الله الكونية إثباتا لما هو أيقن وجود الخالق. فواو القسم التي افتتحت السور وبدت فاصلة للنص عن سابقه، جاءت واوا مثبتة لاتصال الدلالة السابقة مصدره لما سيلحق.

ب_ الخطاب القرآني من المكتوب إلى المؤدى صوتيا:

_ الكتاب والكتابة: وإنتاج العالم:

تحقق الكتابة الاستمرارية التي يحدّها الخطاب ويغلقها من خلال آنيته أو مباشرته، تحقّق الديمومة والحق في الغياب والتخفي، المعنى وصاحب المعنى خلف المبنى الحرف والكلمة ويحقق الخطاب التفاعل والدهشة الحضورية التي يفتقدها المكتوب. هذه المفارقة التي تحيل على أخرى هي المحو والأثر، الكتابة كتسجيل وكطرس كما يعتبرها ديريدا، في مقابل المنطوق والمحكي، محو وتجلي مع نص جديد "ففي الوقت الذي يكون الكلام مشحونا بالحضور يحتل الحضور في الكتابة مكانة ثانوية"¹. تحقق الكتابة الثابت أثرا، والمتغير دلالة، من حيث إمكانية التأويل التي تبيحها، وعدم الحضور الذي تتخفى خلفه غير أنه

¹ _ ينظر بتصرف: عبد الله إبراهيم. علم الكتابة. جريدة الرياض. ع 14647. يوليو 2008.

غياب مكاني لا دلالي؛ يقول الجاحظ: " القلم أبقى أثرا واللسان أكثر هذرا، اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب.. والكتاب يقرأ بكل مكان واللسان لا يعدو سامعه"¹، تتأسس على رأي الجاحظ الفروق بين هذه الثنائية المتداخل مفهومها، نقل الخبر في المنطوق يحمل على ثبات المعنى وانتهائه، فالجغرافيا المكانية المنتهية في النص المكتوب، في حين يملك ديمومة الجغرافيا الزمنية؛ اللغة مستمرة في الخطاب (من خلال تأويل الخطاب من قبل المخاطب وتدخّله فيه بالتفاعل لأن الخطاب بالأساس موجه إليه، إما بالردود أو المشاركة بالتفاعل والتفعل) ولكنه يفقد استمراريته الزمنية فجغرافيا الخطاب المؤدى زمنيا محدودة ومنتهية إلا إذا استحال إلى مكتوب أو إلى نقل وقيد.. إذ يشغل حيزا زمنيا وجغرافيا مكانية يبدأ فيهما وينتهي فيه.

ف—مع الكتابة، تحول كلام الوحي إلى حضور شامل يستقبل قراء مجهولين [يستقبلونه]، ويتحاور معهم متجاوزا بذلك المتلقين الأصليين، وجاعلا للنص حضورا زمنيا دائما ينقل تجربة قائله ومقاصده"²، فالمتلقي الأصلي (الأول) استقبل النص تلفظا، ووصله شفاهيا، لا يمنع هذا أن النص أو الخطاب كان مكتوبا في زمن الغياب ليتلى على الإنسان كما تطلبه اللحظة الحاضرة، فقد حفظ النص بالكتابة فكان الكتاب، ثم حفظه الإنسان بكتابته في عالمه السفلي، فحقق النص الاستمرار والديمومة بالكتابة.

يبدأ العالم من النص، والنص المنطوق هو عالم متحرك، يتعايش والعالم الموجود فيه، وحين تدركه الكتابة يتحول إلى كون تخيلي؛ يشتمل على أكثر مساحة من الدلالات والاستفاضة في المعنى، أي أنه يدخل في نطاقه الخيال والتصور، والاستحضارات الدلالية الغائبة.

¹ _ البيان والتبين، الجاحظ، ج1. المكتبة العصرية، بيروت، ط1999، ص58.

² _وجيه قانصوه، النص الديني في الإسلام، من التفسير إلى التلقي، دار الفارابي، بيروت، ط1. 2011. ص165.

أما عن الخطاب القرآني فإنه يُستحضر عادة مؤدى تلاوة، مقرونا بالصوت استحضارا للحظة الأداء الأولى حيث يتهيأ مقام خالص ومخصوص للحظة (وسيط سماوي/ متلق أول للخطاب ينقله كمصدر في هذه الحالة لمتلق جديد؛ ويختلف المخاطبون به ويتعددون وتتأسس دورة جديدة للخطاب كلما استحضر) وفاعلية الخطاب تبلغ مداها وفق للحالة المباشرة في تداول الخطاب، إرساله وتلقيه، لكن تداول الخطاب لم يتم بهذه الصورة وحدها، بعد أن تكفلت هذه الطريقة في التواتر بوصوله إلى المسلمين الأول، ثم منحه التدوين (الكتابة) سلطة جديدة للبقاء والاستمرار، لا تتعَلَّل إلا بالصوت، حيث يمكن للصوت أن يمنحه معنى وطاقته الحالة الشعورية الأولى، وإعادة صياغة التجربة لأداء النص بالصوت، هذا الأداء الذي يستحضر معه طقوس التجربة، ويحقق فيها التشابه والاختلاف؛ الرهبة والطمأنينة والخشوع، وتحقق مفهوم الرسالية في كل قارئ فعلي وفاعل للنص بفعل (التأدية)، وهو يختلف عما أشار إليه ديريدا سيطرة اللغة المحكية، وإزاحة التأويل باستبعاد وتهميش المكتوب على حساب الصوتي. وقد تجسد هذا حتى مع النصوص والمعارف السابقة؛ إذ "إن المركزية الكلامية أو المركزية الصوتية، بما هي مبدأ أساسي للميتافيزيقا الغربية، إنما هي على حد قول ديريدا سيطرة اللغة المحكية، سيطرة الكلام؟ أو الـ Phonè المفروض أنه يضمن حضور المعنى. ذلك أن المقولات الرئيسية منـ من أفلاطون إلى هايدغر_ تنزع إلى إعطاء الأولوية للكلام والحذر من الكتابة"¹. فالأداء الذي يرافق النص بعد ما وصل إلى متلقيه مكتوبا هو تفعيل للنص المكتوب، وإعادة تدويره وإنتاجه من جديد في كل متلق فاعل، لأن الكتابة هي تشتيت للفكرة_ حسب الميتافيزيقا الغربية_، وإهدار للمعنى، حيث يمكن للمعنى المغيب أن يشكل المعنى غير الثابت وفق آفاق التأويل والقراءة.

هذا التشتيت_ التعدد في الفهم والقراءة_ الذي تعتبره بعض المدارس تعددا لا يصب في صالح النص، هو نفسه الذي عوّل عليه الخطاب القرآني من خلال تعدد واختلاف متلقيه

¹ _ بيير ف، التفكيكية، ص 57.

وأزمنة تلقيه وجغرافيتها. حينها يصبح المتلقي مشيدا للنص؛ معنيا به بصورة ما، ففي خطابات القلاقل وهي سور تبتدئ بفعل القول (قل)، وهو خطاب يدعو إلى ممارسة الخطاب قولا بتفعيل الصوت والكلمة، ومن خلالهما يمثل المخاطب متقبلا مرسل جديدا للنص؛ فكل متلق هو مخاطب فيه، وكل مخاطب هو حامل للخطاب مسؤول عنه.

فقد أولى الخطاب القرآني قيمة للمتلقى مشيدا للخطاب وقيما عليه، قراءة وتأدية، والأمثلة التي نريد التفصيل فيها هي خطابات القول، وذكرنا هنا المعوذات الثلاث، والتي هي نصوص فرعية مستقلة عن النص الأصلي في قيمتها وفضلها، كما أنها تؤدي معناها وقيمتها مفردة ومنفصلة مجملة ومرتبطة بغيرها. في هذه السور هناك إحالة على مخاطب بعينه، مقصودا بفعل القول تمت الإشارة إليه بفعل الأمر: قل؛ فكل من يقرأ النص هو قائله، وهو مخاطب يحمل رسالة بطلب القول لمخاطب آخر كما أسلفنا، هناك أيضا طلب لإعادة إنتاج الخطاب صوتيا من خلال فعل الأمر: (قل). هناك حاجة لبناء وتشديد الخطاب من خلال الصوت وتفعيله به؛ هناك تأكيد على ضرورة القول والعمل به.

_ فعل القول في سورة الإخلاص:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ، (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4).

_ فعل القول في سورة سورة الفلق:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5).

_ فعل القول في سورة الناس:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6).

هذه النصوص المفتحة بفعل القول المبنيّة عليه، تشير إلى أن المخاطب الأول، يجعل من كل قارئ أو متلقٍ للخطاب، هو حامله وصاحبه وتحمل تأويلا للمخاطب الذي تأسس من أجله الخطاب أو توجه إليه، وعليه فهذا المخاطب:

- أن المخاطب هو محمد
- أن المخاطب هم صحابته عشيرته والمقربون
- أن المخاطب هو المسلم عامة
- المخاطب هو كل مسلم بما في ذلك من سيتلقاه مستقبلا.
- أن المخاطب هو المعارض للنص/ الكافر وفقا للمفهوم الديني الجديد.
- أن المخاطب هنا هو كل متلقٍ للنص.

ووفق هذا المتلقي يفهم الخطاب ويتعدد بتعدد الأفهام المستقبلة له، فهناك مستقبل رافض ومستقبل يشك ومستقبل محتضن للنص، ومستقبل يعتقد وآخر يوقن.

أما في سورة الجن فيتضح المتلقي المخاطب بالفعل قل: " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ...الآية 1 ويظهر أن المخاطب هو محمد ويحملنا على هذا التأويل سياق النص. بخلاف سورة الكافرون: " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) " الآية 1_2_6 الكافرون، فالمخاطب هنا بالفعل: قل؛ يحتمل محمدا وأتباعه في مخاطبة من هو معارض وعلى غير دينهم. وفيه ذكر لمناسبة النص وربطه بسياق تشييده وهو طلب قريش أن يعبد محمد آلهتهم عاما ويعبدون آلهته عاما، وسيأتي التفصيل لتأويل هذه السورة كاملا في فصل آخر. لكن النص الأصل، يصبح ملفوظا تتعاوره الأجيال، ثم يتحول إلى مكتوب، ليعاد إنتاجه بلفظه وترتيبه، فيصير كل ناطق به حاملا له معنيا به ومنتجا. و" يرى ديريدا أن الكتابة تتجاوز حالتها القديمة من حيث كونها حدثا ثانويا يأتي بعد النطق، والكتابة عنده تحل محل النطق وبذلك تصبح اللغة

نفسها تولدا ينتج عن النص، والكتابة ليست وعاء لشحن وحدات معدة سلفا، إنما هي صيغة لإنتاج هذه الوحدات وابتكارها¹، ويمكن تمثّل هذا تماما مع النص المقدّس الذي يحتمل كلى المظهرين، فهو كتاب وهو مؤدى. فالكتابة التي تولد الأثر إنتاجية وتحمله القدرة للوصول، ليؤول الى خطاب، وهذا هو ما يحدث مع الخطاب القرآني إعادة تدوير بين الصوت والحرف المكتوب، كان في اللوح المحفوظ، نزل شفاهة، جمع وكتب في ألواح: مصحفا وجمعا وكتابة؛ ثم يقرأ ويرتل عبر كل الأزمنة بعده؛ لينشط حركة وصوتا وفعلا وعملا به.

" ويرى بارت عكس مفهوم _ مفهوم ديريدا _ حيث يقول: لا توجد اللغة بصورة مناسبة إلا في الجماهير المتكلمة، ولا يستطيع المرء تناول الكلام الا بالاقتراب من اللغة المتكلمة، ولكن على العكس من ذلك، اللغة لا تسير إلا من بداية الكلام. أما من الناحية التاريخية فإن ظواهر الكلام تسبق ظواهر اللغة لأن الكلام هو الذي ينشئ اللغة، ومن ناحية الوراثة فإن اللغة تتكون في الفرد من خلال تعلمه من الكلام".²

ولهذا فإن الخطاب المقصود به التبليغ، أو بما هو رسالة يفرض متلفظا مشاركا ومساهما في الخطابيّة لا بما هي دورة للخطاب وإنما من جانب الخطاب في إرساله من الأصل، كأنما هو خطاب لا يحتمل اكتماله إلا بمشاركة متلفظه المتلقي، الذي يعيد إنتاجه بالتلاوة وإعلاء قيمة الصوت. إذ يشكل النص القرآني؛ خطابا وتلفظا هو ملك لكل من يتلفظه، هذا الخطاب الذي يفضل أن يتلى أو يلقي سماعا كما يدرك ذلك حتى خصومه؛ تقول الباحثة اليهودية الإغنوستية (اللا أدرية): ليزلي هازلتون³، " إن اللغة العربية نوعية سحرية، (قد يكون مردها إلى سحرية الصوت العربي) وهي لغة منومة تقريبا تترجى أن

¹ _ مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت الى النص، نحو منهج لدراسة النص الشعري، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1. 2002، ص 09.

² _ المرجع نفسه، ص نفسها.

³ _ ليزلي هازلتون: باحثة وعالمة نفس وكاتبة يهودية أميركية انجليزية تخصصت في دراسة الأديان والتاريخ والسياسة، عاشت فترة في القدس في السبعينات، وهي لا أدرية الاعتقاد.

يستمتع إليها بدلا من أن تقرأ، وأن تحس أكثر من أن تحلل، إنها تريد أن تهتف بصوت عال، لتسمع موسيقاها بالأذن وباللسان"¹، فالخطاب القرآني يستدعي تلاوته إي ارتباط نصه بالصوت لتحقيق التأثير والمشاركة وللأثر الذي يسببه في متلقيه، إذ لا يتلقاه إلا وهو يستشعر أنه يخاطبه، هذا المتلفظ المشارك الذي يوجد النص: "كما يوضح أ.كوليولي A. Culioli الذي يعود إليه الفضل في استعمال هذا المصطلح والذي أحله محل المرسل إليه Destinataire للدلالة على أن التلفظ هو في الواقع تلفظ لخطاب مشترك، وأن الطرفين يلعبان في صلبه دورا نشطا"². فالخطاب القرآني ككلام أده محمد البشري/ النبي، بعد أن وصله عن طريق رسول آخر كان هو متلقيه، واختارت الرسالة هذا البشري رسولا لتوافقه الأخلاقي القبلي مع ما سيأتي به النص، فهذا البشري كان أمينا ومسالما وجامعا للمتفرق من الجماعة التي يعيش ويتعامل معها، ثم إلى مجموع المتلقين الذين انتقل إليهم الخطاب، عبر قنوات ورسول فوقيين، تمكنوا من أسبقية حياة النص والتعرف إليه، لنقله سواء في حياة المعرفة، أو في أسبقية استقبال الرسالة. فاللغة واقعة تواصلية تحيا بالاستخدام وفي الاستعمال؛ إذ " التلفظ هو المجال الحيوي للقائمين على استعمال اللسان، إنه المجال الذي من خلاله يتحدد النشاط الاستعمالي، ومن خلاله يحدد مستعمل اللسان وضعه ويجسد صورته وخصائصه الفردية بالكلام"³.

ويدور الخطاب القرآني في فلك الترتيل ويبني على التأدية منذ نزوله. كتابا خطابا في صورة بشري نبي ثم في صورة كل بشري يؤديه. صور وحالات متفردة، فهو يقرأ كل مرة بشكل جديدقراءة مختلفة، وحالة جديدة.

¹ _ من حديث مصور لليزي هازيلتون، قراءة القرآن، www.Ted.com ترجمة أمينة عياد.

² _ دومنيك موديانو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 15.

³ _ P. Charaudeau، Langage et discours، Elements de semiolinguistique، Ed hachette، Paris، P 59،

ج_ القرآن: خطاب قراءة وترتيل/ فهم وتأويل:

إن التعريف بالقرآن يقتضي فهمه، وكثرة قراءته التي تفسرها تسميته تثير إشكالية القراءة الواعية، أو قراءة الفهم (لقد تحدثت في التعريف عن "القرآن/ الكتاب" وأكدت على أهمية فعل "القراءة" بما هي التلاوة)، في تسمية القرآن قرآنا ولكنني لم اكن أعني بما يكفي من العمق "الحكمة" من إطلاق إسمين على مسمى واحد. أما الآن فقد غدا من السهل علي القول إننا نستطيع أن نتعامل مع أي سورة او مجموعة من آيات القرآن المتلو، ولا نحتاج في التواصل معها سوى إلى مقرئ يجيد التلاوة. ذلك لأن معنى القرآن المتلو يكون أصل انفجاره من القلب) كما يقول الشاطبي في معرض كلامه عن الفهم الصوفي والباطني للقرآن.¹

ففي الكتابة يحتاج فهم النص عند قراءته إلى أدوات ربطه ونظامه ونظمه وتنسيقه، في حين يختلف الأمر في فهمه بالقراءة المؤداة تلاوة، ذلك أن الكتابة تفتقر الى أدوات الإفهام كما يبدو "عند عابد الجابري"، وهو أفقر بكثير مما هو متوفر للكلام. كان المتكلم والخطيب والمجادل... ولا يزال يستعين في عملية الإفهام بالإشارة بيده وعصاه ورأسه وحاجبيه، بابتسامته وعبوسه وضحكه وبكائه. كان جسمه كله مجنّدا في عملية الإرسال.² ومع ذلك يحتمل النص في حالة الكتابة تأويلات أكثر، لما قد تحيل عليه الكلمات والمجازات والاستعارات... في حين يتأكد المقصد/ أو المعنى المقصود إلى حد بعيد في حالة التخاطب المباشر والتلاوة. ومما يذكر في أهمية الإنشاد، أو الصوت والمقصود مع الخطاب القرآني _ تأديته تلاوة_ في إيضاح المعنى هو الحاجة الشعرية العربية التي سبقت ظهور هذا النص، وكذلك اعتماد النصوص الدينية تقنية النص المتلو أو المنشد؛ ومما يثبت أهمية الإنشاد في

¹ _ محمد عابد الجابري، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط6، 2016، ص 13.

² _ المرجع نفسه، ص 14.

الاستدلال على المعنى، أو المعنى النحوي هو تلك الحادثة التي جرت مع النابغة في إحدى قصيده، فقد أقوى الرجل في نصه؛ المطلع وما تلاه ولم يتبين:

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زادٍ وغير مزوّدٍ

زعم البوارح أن رحلتنا غداوبذاك خبرنا الغراب الأسود

حتى أنشدت القينة البيتين، فـ: جعلت تمد وتشبع حركة الدال وتطيلها في (مغتدي) و(مزوّد)، ثم غنّت البيت الآخر فبيّنت الضمة وهي تمدها إنشادا في قوله (الأسود)، ففطن بذلك¹ وقد كان قبلها لا يؤمن بإقوائه حتى أدرك ذلك بطرف آخر من خلال الإنشاد.

ليست هذه الحادثة وحدها مثبت ذلك، كذلك كان الشعراء يعتمدون الإنشاد والتغني والتحرك والأداء لتعميق فكرة الخطاب والتأثير على المستمع المشاهد المباشر؛ " هناك عوامل خارجة عن النص المنطوق يمكن أن تسهم في دلالاته، وتبليغه، بمزيد من الوضوح. فكيفية التلفظ وهيأة المتكلم وشخصيته وثقافته، كلها عناصر ليست غريبة عن النص في الثقافة الشفوية، .."². ويمكن أن يكون ذلك راجعا إلى نقص الإلتفات إلى المكتوب، وأن العرب لم تعرف المسرح وفنون الأداء، فكان ذلك في خطابتها وشعرها وانتقل إلى الخطاب القرآني كنص معرفي جديد احتفظ بخاصية وقيمة الصوت في التواصل والإبلاغ.

د_ الخطاب القرآني: لحظة تلقي الخطاب المؤدى_ لحظة تحقق المعرفة:

أشار البحث سابقا إلى التأثير الذي يتأسس من بنية النص وانسجامه على متلقيه،

ولفهم علاقة الخطاب القرآني بمتلقيه وقصدية التأثير من خلال المعرفة التي يريد تحقيقها، نستحضر حادثة إسلام عمر كمتلق رافض للنص؛ قبل سماعه أو قراءته، ثم تحقق

¹ عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد عند العرب، ص34.

² وجيه قانصوه، النص الديني في الإسلام، ص163.

التأثر لحظة التلاوة أو القراءة، لحظة السماع والدهشة، لا نخرج هنا عن إطار تحقق النصية، لأن الأثر المتحقق حدث بفعل ترابط وانسجام عناصر النص من الداخل. والتي هي حالة مثبتة للقول السابق بعلاقة المتلقي بالنص في تأثيره عليه وتأثره به؛ هذه الدهشة التي يصنعها الخطاب في تأثيره على متلقيه، دهشة يجتمع فيها ائتلاف وتوافق لغوي دلالي وجمالي وروحي.

فعمر بن الخطاب¹ (المتلقي المشترك) الذي يحمله الرفض وعدم الاقتناع والغضب وحمية المعارض، واتكأ رفضه على مرجعيات لم تعد تتفق ومعطيات النص الجديد، ولا تتناسب معه. جعله يقبل على حامل الخطاب في واقعة (تهجمه على بيت أخته وشج رأسها)، وربما لم يتسع له أو يستحضر الوسائط التي تمكنه من التقرب إلى هذا النص، ولهذا يستجمع قواه للقضاء على هذا النص وأتباعه، من حيث تغييرهم الاجتماعي والفكري في مجتمع رأسمالي طبقي وإقصائي. وما يثبت ذلك نكرانهم وعدم تقبلهم لما يحمله هذا الخطاب لأنه لا يتأثر به إلا أضعاف القوم وأقلهم شأنًا. وأكثرهم من الفقراء والعبيد.

لكن مع حادثة عمر بن الخطاب، وسماعه هذا الخطاب يقرأ أمامه للمرة الأولى يلتمس تأثرا (ويظهر تأثره باستماعه للنص مؤدى تلاوة) وهنا تركز الدراسة كثيرا وتعول على عنصر التلاوة لأنه عامل تأثير مهم في كسب الأفهام، واستمالتها وإعادة برمجتها، فضلا عن النص كقيمة لغوية وتبليغية وجمالية ومعرفية)، إذن يسمعه متلوا لأول مرة على لسان النبي محمد وهو في حالة أو طقس صلاة قريبا من الكعبة، يبدأ الأمر بسماع النص وإثارة الشكوك والأسئلة _ وسنعود في مقام آخر إلى حاجة النص في فهمه وتقبله إلى أسئلة ومطارحات معرفية _ ليس للنص فحسب إنما للنص مقترنا بقائله، مطارحة عمر/ المتلقي

¹ عمر بن الخطاب: أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القرشي، ولد 584م وقتل عام 644 م؛ كان اخطر رجال قریش على محمد وأصحابه، ثم بعد إسلامه صار ثاني رجل في الدولة المحمدية، وشيء من هذا مذكور في الجاذثة المقرونة بنص إسلامه وتغييره.

المشرك، للأسئلة بدأت بالتعثر في الفهم لصيغة أو شكل النص وقائله الأقرب إلى الشعرية؟ الأقرب إلى الإبهام في تصنيفه وتصنيف الغاية منه، ما هدف هذا الخطاب، لأنه لا خطاب عندهم من غير تحقيق علاقة مع جمهور متلقيه، فهل هو شعر وهل صاحبه شاعر؟ وهي أسئلة ردها المشركون أغلبهم، وربما يبدو للقارئ أن هذه المقايسة (بين القرآن والشعر العربي) قائمة على التحقير والانتقاص؟ لكن الحقيقة أنه هناك خلل في فهم هذا النص، وتقدير قيمته، لأنه يجمع خصائص تميزت بها النصوص الدينية عندهم كما تميز بها الشعر. إنه خطاب متلوّ يجمع خصائص النصوص المقدسة عندهم. كلام الكهنة والخطابة والشعر. ليأتيه الردّ جواباً من القرآن " إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ" الحاقة 40_41 (والنص المرفوض عند متلق رافض_عمر_ إلى هذه اللحظة) متلوا على لسان حامل النص (محمد/ العدو والمعارض المرفوض بالنسبة للسامع عمر) ويستثار الشك المعرفي والطرح وفقاً للقول الذي يتلى (ففيه من السجع والتساوي الإيقاعي، وفيه من الأثر البلاغي والدلالي، وفيه من خلخلة المفاهيم ما في قول الكهنة حسب المتلقي القديم) فتتعدد الأسئلة عن شكل النص وماهية صاحبه؟ فـ هل هو كاهن؟ فيعود إليه الرد قرآناً متلوا: " قال: وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ. قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

إن حالة الارتباك التي تحاصر المتلقي المنكر الرافض تؤكد إلى حد ما بطلان العقيدة التي يؤمن بها هذا المتلقي وعدم رسوخها، أو على الأقل حالة الاضطراب الواضحة بتعدد المطارحات وتحقق عدم الفهم أو اللأيقينية، هذا فضلاً عن إثارة حالة من الدهشة هي ذاتها التي دفعت إلى هذه التساؤلات، قامت هذه الدهشة أو الانفعال من الانتظام الموسيقي والصوتي والانتظام المعجمي مفردات ودلالة.

وخلاصة الروايات مع الجمع بينها في إسلام عمر بن الخطاب أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، ف جاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي وقد استفتح سورة «الحاقة» فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال:

فقلت - أي في نفسي - هذا والله شاعر كما قالت قريش، . قال: فقراً: **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ الْحَاقَّةُ: 40 - 41** قال: قلت: كاهن. قال: **وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ. قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ 42** . إلى آخر السورة. قال فوق الإسلام في قلبي¹.

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه وتحرك العقيدة القديمة عن موقعها، فطرح الأسئلة والشك المقلق حول حقيقة النص، حقيقة ماهيته، والتفكر في شكله، ثم في أثره الحاصل على عمر بالذات كمتلق رافض، وجاحد، إلا أن الأثر الأعماق الذي تعمل المرجعية القبلية العصبية ومفهوم الحمية، منعا حدوث القبول عند عمر، رغم ما أحدثه النص من أثر. وبلوغه مشارف الحقيقة والمعرفة من خلال الشك وطرح الأسئلة. وهنا يظهر أن رفض المتلقي لخطاب ما، لا يحيل دائماً إلى عيب في ترابط النص، وانتفاء المقبولية، كعنصر من عناصر هذا الترابط، ممن يسمعه قد يكون لاختلاف المرجعيات، وعدم بلوغ المعرفة المحققة للمشاركة في الفهم ثم القبول.

ونذكر هنا سياق تلقيه الخطاب وعلاقته به؛ وقد كان من حدة طبعه (عمر) وفرط عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه، يريد القضاء على النبي صلى الله عليه وسلم، فلقى نعيم بن عبد الله النحام العدوي، أو رجل من بني زهرة، أو رجل من بني مخزوم فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمداً قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي كنت عليه، قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وختتك قد صبوا، وتركاً دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامراً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت، معه

¹ ينظر: تاريخ عمر بن الخطاب، أو حاكم ديمقراطي في الإسلام، لابي الفرج بن الجوزي ط1. ط 1924، محمد أمين الخانجي المكتبي، ص 6، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد، لكن في آخره ما يخالف ذلك، انظر ابن هشام 1/ 346، 347، 348، ويقرب من هذا أيضاً ما أورده ابن الجوزي عن جابر، وفي آخره أيضاً ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص 9-10.

صحيفة فيها طه يقرئهما إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وسترت فاطمة - أخت عمر - الصحيفة، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينمة؟¹ التي سمعتها عندكم؟ فقالوا: ما عدا حديثا تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختته: يا عمر أريت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختته فوطئه وطأ شديدا. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها - وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت - وهي غضبي -: يا عمر إن كان الحق في غير دينك، أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.

فلما يئس عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحى، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرأه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ: طه " (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكْرَةً لِّمَن يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِن تَجَهَّر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يُمُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَأَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)) الآيات 1_14 من سورة طه. حتى انتهى إلى قوله: إِنِّي أَنَا اللَّهُ

¹ - والهيمنة الكلام الخفي، أو الدعاء لله الخفي غير المفهوم، وهي الهينام والهيتمان والهي نوم. ينظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط1960، باب هنم،

لا إلهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي، وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلّوني على محمد¹.

لا تكاد تخلو آية من آيات هذا المقطع القرآني، من أحد الحروف السين الشين الصاد الهاء الناء والتاء. وفيما يلي دلالة هذه الأحرف وعلاقتها بالهمس وهي حروف دون الجهر في رفع الصوت، وهي حروف تلامس الروح لقدرتها على استمالة القلوب وفعلها كفعل بندول السحر في تغيير الحاصل.

ولعل تأثير النص على المستقبل له، ودهشته حين تقبله هذه الدهشة الجمالية الأولى التي تنبعث عن تقدير وإجلال لما يتحقق فيه من جمالية ظاهرة بانسجام الصوت والحرف والصيغة والدلالة القيمة لترتقي به إلى الرقة والإجلال الروحي الذي لا يلامس السماع وينفذ إلى القلوب، ويحرك ما علق في أعماقها، وتحقيق تأثيره الدلالي على متلقيه فقط؛ بل تغيير حالته الروحية والمعرفية، وتغيير رؤياه للعالم والأشياء، وإعادة ترتيبه للمعارف والتخلص من معارف سابقة كانت راسخة ومؤثرة وطاغية حد التعمية. ما دفع إلى تغيير علاقة المسلمين وحالتهم مع المتقبل المشرك أو الرافض/ عمر كحالة خاصة، من حالة السر والتخفي وعدم الجهر بالخطاب إلى حالة الجهر وممارسات الطقوس والعبادات أمام الكعبة جهارا. من هنا يتبدى لنا أن الخطاب وإن بلغت به خصوصيته قيمة القداسة، وإن اقترن وصوله إلى متلقيه عن طريق رسول ومبلغ إلهي، إلا أن الظهير والمحرك الإنساني له مطلوب، وهو دون ذلك رهين الطي والكتمان. حتى بلغ من قوة النص مقترنا بعمر متقبلا وحاملا جديدا لهذا النص أن ذكر أعداء محمد ودينه ليذهب إليهم ويعلمهم أنه صبي، هذه العلاقة بين النص وحامله المجسدة في دعاء النبي محمد " اللهم أعز الإسلام بعمر"، وذلك الذي حدث فعلا، لقد استمد النص صلابة وقوة وعزة وشكيمة عمر، فما كان من قريش إلا أن تدعن، وما كان للنص إلا أن يعلو صوته. إن قيمة النص في تأثيره الفعلي، فإذا حدث هذا التأثير على

¹ ينظر المرجع السابق (تاريخ عمر لابن الجوزي)، الصفحات 6_7_8_9_10_11.

المتقبل له، أحدث تغييره وتفاعله بعالمه، وهنا يكمن الارتباط الموثوق بين النص ومتقبله وفاعليته.

الفصل الثالث:

الخطاب القرآني: الاتزان بين اللغة والمعنى

1_ الاتزان بين مساحة القول ومساحة الفعل

الصلاة نموذجاً لتكامل القولى بالفعلى:

يذكر فى الحديث القدسى¹ أن الصلاة التى أرادها الله، ليست عملاً فردياً، أو مجموعة أقوال مربوطة بحالات شخصية مخصوصة، تصدر عن الفرد فى أوقات معينة يحصل فيها التواصل بين عبد ومعبوده. إنما الصلاة التى وصفها رسول الله بقوله فيما يرويه عن ربه - عز وجل - " ليس كل مصل يصلى، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى، ولم يستطل على خلقى، ولم يبت مصراً على معصيتى، وقطع نهاره فى ذكرى، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب، أجعل له فى الجهالة حلماً، وفى الظلمة نوراً، ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتى، واستحفظه ملائكتى، ومثله فى خلقى، كمثل الفردوس فى الجنة"².

فالصلاة بهذه الصورة ليست علاقة بين عبد ورب، إنما هى مرآة لشكل الحياة التى يعيشها كل فرد، فإذا كانت سورة الحمد (الفتاحة؛ الذى نريد قراءته نص قصير نسبياً، وهو يشكل جزءاً من نص أكبر وأكثر اتساعاً، كان نقل إلينا تحت اسم القرآن)³ المقترنة بهذه الفريضة العظيمة كنص مرتبط بالفعل، هى فهرس الخطاب القرآنى (الخطاب الأداء لا النص)، فإن الصلاة بأدائها (قيامها) وبهذه الصورة الفاعلية هى فهرس العمل اليومي، والحياة الاجتماعية. وهى استذكار يومي للتعاليم بين العبد وربهِ وإعادة تفعيل لها، وتطبيق للقولى إلى أفعال وأعمال بالحركات إنها تجسيد لدورة الحياة وهى تمثيل للاتزان بين المسافة القولية والمسافة الفعلية. فهى لا تقوم كحركات إلا بتخصيص جزء منها للنص القولى. بل إنه هو عامودها ولا تقوم الحركة/ الركعة إلا بالقول: الفاتحة. فلا يقوم الفعل منها إلا بالقول،

¹ - موسوعة النابلسي، موقع com+nabulsi

² - رواه البزاز.

³ - محمد أركون. القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني. ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة بيروت. ط2

القول الذي هو بطريقة ما إقامة للحياة بالصلة بين الأفقين؛ فهو فعل: حمد، وتعظيم، وذكر، وتزكية، وعبادة ويقين، (إياك نعبد وإياك نستعين) ودعاء (إهدنا الصراط المستقيم)، وتذكير واتعاظ من تاريخ يعيد نفسه من السابقين إلى اللاحقين؛ (وبالعموم يمكننا ان نسمي هذه السورة كما يتضح منها سورة الدعاء لما فيها منه وما فيها من الذكر وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الدعاء هو العبادة أو مخ العبادة. فالصلاة بذاتها مقرونة بالفاتحة، التي هي كل هذه العبادات معا. ثم استنكار وربط صلة بإعادة العبادة القولية/ كلام الله في شكل سنة في الصلاة (السورة أو قراءة ما تيسر بعدها)، وبين القيام والركوع والسجود والاستقامة، تتمثل دورة الحياة وحركتها، فيتمثل للعبد قيمة النظام، والتكرار، والتعاقب، وقيمة الزمن وعلاقته بالقولي والفعلي وكيفية الموازنة بينهما، بالإضافة إلى ارتباطها بأوقات مخصوصة دون غيرها. هذا النظام الفعلي والقولي الذي يبدأ به اليومي عند المسلم وينتهي به. وهي بالإضافة إلى كل هذا استنكار للحادث الأول الذي من أجله خلق الإنسان ولهذا نجد في خاتمة سورة الفاتحة "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ولا الضالين" فإن التنازل لعظمة الله والتواضع له هو خلاف لعقيدة الشر بين إبليس والخليقة وبين إبليس ورب الخليقة.

وتفتتح السورة بفعل الحمد (والحمد أعم من الشكر)¹؛ الذي هو أصل الفضائل ورأسها. ثم بالذكر والتمجيد لمن يستحق الحمد، بعد ذكر قيمته ومقدار ملكه إنها مقسمة تقسيما منطقيًا بين الطرفين، وبين أعمال السابقين ما صار صفة لازمة فيهم حتى قيل أن ما يقدمه ليس إلا أساطير الأولين وهي التي ستكون ركيزة في التوجيه والمنهج، استحضارا للأخطاء وتجنبها/ استحضار تاريخ الخير والشر والمرجعية المرفوضة في أعمال السابقين.

¹ - أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج 1. تفسير سورة الفاتحة ص 31.

فقد ذكر في عديد التفاسير أن سورة الفاتحة هذا الخطاب القصير المتشكل من سبعة آيات، مقسمة بين العبد وربّه فنصفها لله ونصفها لعبده.

فنصفها الأول: المخصص لفضيلة الحمد المقترنة بالعبد في حق الأحق بالحمد المالك للعالم ولأمر العبد والمكان بواقعيه ومفترضه والزمان والتاريخ، ونهاية الزمان، ليكون جزاء فضيلة الحمد منتهى الجزاء الرحمة. إذ يتوسط الحمد نصياً الرّحمة فهي مسبوقة عليه بمختلف صيغها، وهي لاحقة له أيضاً بصفتيها، الفعلان والفعيل، السماوية والأرضية، فرسم الرحمة مقرونة بالمصدر فعلان تجعل منها صفة تربط الأرضي بالسماوي بما يهيء رسمها (الرحمان) ولا متصف بها غيره، وهي الصفة السابقة أو القبليّة لصفة الرحيم التي تأتي بعدها في المرتبة، التي هي صفة يشترك فيها الخلق والخالق (باسم الله الرحمن الرحيم_ الحمد لله رب العالمين_ الرحمن الرحيم) فتكرر هذا الفعل جزراً أربع مرات في هذه السورة، الرحمة التي هي منتهى العفو مع كل شيء مقابل فضيلة الحمد الإنسانية التي هي منتهى الشكر. ورغم قصر الإحالة في السورة والتعبير عن تاريخ السابقين بالصفات؛ إلا أن آخر آية في أم القرآن (الفاتحة) استنكار وتأمّل وتفكّر وقراءة للتاريخ والماضي والعودة إليه للتذكّر وعدم الوقوع بأخطاء الماضي وتجارب الإنسانية السابقة، حيث أثبتت هذه التجارب التي يصفها النص فيما بعد مفصلة بحيث يحيل عليها هنا فقط، في قصص الأقبام والأنبياء السابقين، كتجارب إنسانية ومرجعية.

فهذا النص الذي استوى فيه عمل العبد (الحمد) الذي يأتي كمقدمة في ناصية الصلاة كدلالة على أنّ البشريّ محاط بكون من الفضائل التي لا يستشعرها مع وجودها الفعليّ إلا بفضيلة الحمد قولاً وفعلاً كمنبه قولي وفعلي في الصلوات الخمس والتي تقترن عادة بأحوال وازمنة (الفجر، الزوال، العصر، المغرب، العشاء) تدعو إلى التذكّر والتدبّر. وحتى الصلوات في تسميتها مقترنة بأزمنة التحول اليومي من حال إلى حال مخالف؛ ما يدعو إلى الحمد والتذكّر. وعليه كان من التوازن مقابلة هذا الحمد من العبد جزاء متوقّفه

العفو (الرحمة)، على الرغم من قصره كان شاملا للكتاب وسيدا للنصوص اللاحقة. وحال العبد فيه في كل حال؛ في حالة بين حمد ورحمة.

2_ النص مستحضرا القارئ العام:

جزء عم سور للملكية العامة:

يتحقق في هذا الجزء (والجزء من القرآن هو نص يتشكل من عدد من الآيات وأحيانا عدد من السور، وقد تستوفي سورة واحدة أكثر من الجزء كسورة البقرة التي تتشكل من قرابة الثلاثة أجزاء) خمسة أحزاب وثلاثة أرباع الحزب، بحيث كلّ حزب هو عدد من الصفحات المقسمة إلى أرباع وأنصاف لتسهيل قراءة الورد وتيسير الحفظ، ويشكل كلّ حزبين جزءا واحدا طالت أو قصرت آياته، تعددت أو قلت سورته؛ وأجزاء القرآن متساوية فهي تحوي الحزبين في كل جزء، أما في المساحة القرائية ربما عادل الجزء قرابة العشرين صفحة.

أما هذا الجزء (جزء عم: وسمي بذلك لابتدائه بسورة النبا التي مقدمتها: عم يتساءلون عن النبا العظيم...) فهو يتأسس من مجتمع سور يقدر بربع القرآن (من مجموع السور الـ114) تقريبا إذ يتألف من 37 سورة: النبا، النازعات، عبس، التكويد، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطارق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، البيّنة، الزلزلة، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الاخلاص، الفلق، الناس.

يجمع بينها هندسيا ومن حيث جغرافيا النص؛ القصر النصي، وجلها مكي عدا ثلاثة سور هي الزلزلة والبيّنة والنصر، يتراوح عدد آيات السورة فيها بين الـ46 (النازعات) والـ3 آيات (الكوثر)، وهذا الجزء عموما يحوي أغلب قصار سور الخطاب القرآني. يجمع بين هذه السور خيط دلالي يصدر عن ظاهر الخطاب، خاصة إذا اجتمعت الرؤيا للنص من خلال

تسمية وعناوين سوره، كإجماعها تقريبا على التفكير والقسم في الخلق وبالخلق، والقسم بالأزمنة والأمكنة: العصر، الليل، الضحى، الطارق، النجم، والقسم بالمخلوقات: الإنسان..... وحتى إن لم يظهر ذلك على مستوى العنوان، أحاط به المتن: **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (سورة الطارق).**

ومن المظاهر اللغوية الغالبة على هذه السور/ (الخطاب)؛ أنها خطابات تتكى على القسم بالظواهر الكونية (كالليل والسماء والشمس، والأرض والزمن، الفلق...) وبعض الخلق: (كالإنسان والتين والزيتون)، وهي في مجملها سور مكية كما سبق وذكرنا أي أنها تخاطب معارف بسيطة وعقول لم تتوصل بالمعرفة الحقة بعد أي معارف لم تزل بدائية، إنما يذكرها الخالق بما حولها من محسوسات، وما حوله من ظواهر لا قبل للإنسان بمجابتها ولا تغييرها؛ وانتهاجها طريقة في مخاطبة متلقيها في صرفه إلى التدبر في خلق الإنسان وأحواله، وإمكانية تبدل الحال والزمن في معالجة للغيبي (الزمان والمكان)، بمساحة من التخيل يفرضها الخطاب؛ خاصة حين يقسم بمظاهر وأزمنة وأمكنة لا يعرفها الإنسان ولا يمكن تصورها، إلا من خلال دخوله في حالة من المعرفة العرفانية اليقينية؛ **(الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5))** القارعة الآيات 1_ 5. وحتى حين يحاول إسعاف هذه المخيلة فإنه يحاصرها ببعض من المتخيل الذي لا يمكن تصيره أو تصوره، ما يفتح المجال للتسليم واليقينية، ولعل هذه السور بعينها، تجمع عليها كل الآفاق المتخيلة كحالة من العجز التصوري المتواضع عليه. بطرح أزمنة لا تدركها المخيلة سواء كانت مسلمة له أم لم تسلم؟ لأن هذه النصوص بما هي عليه من قصر، وبساطة دلالية أقرب إلى الفهم، وهي بمثابة المفتاح إلى معرفة أعلى ودرجة جديدة من طلب الفهم.... ذلك أن هذه النصوص أقرب في وصفها إلى نصوص التسليم، ونصوص ملكية عامّة فلا يمكن لشخص مسلم مهما كانت مرتبة معرفته، وصفته العلمية أو العقديّة، إلا وهو يسلم بهذا النص، ويدركه ويفهمه، إن هذه

النصوص القصار هي نصوص تتلاءم مع مختلف القدرات الذهنية والعلمية. المناسبة بين طول السورة وقصرها.

والقرآن الكريم جاءت نصوصه بين طوال وقصار وقصار جدا؛ ولا تجد في السور القصيرات مسلما واحدا لا يفقه الإخلاص ولا يقول بها، أولا يحفظ الفاتحة ولا يبدأ بها، فقد يسرت هذه السور بقصرها فهمها وحفزها وتيسير تداولها، وقد أعطيت كثير منها قيمة كبيرة؛ فقد تجزئ في قراءتها ثلث القرآن كسورة الإخلاص، أو ربعة كالماعون، ... هذا الترغيب في قراءتها وتداولها والعمل بها ووقرها في القلوب والأذهان؛ وسهولة حفظها لممارسة اليومي بها. يقول الخليل بن أحمد: " يطول الكلاميكثر ليفهم، ويوجز ويختصر ليحفظ، وتستحب الإطالة عند الإعذار والإنذار، والترهيب والترغيب، والإصلاح بين القبائل، كما فعل زهير والحارث بن حلزة ومن شاكلهما، وإلا فالقطع أخير في بعض المواقف، والطوال للمواقف المشهورات"¹. وبهذا المعنى فالله عز وجل صاحبنا ومنزلا للخطاب، سماه في كل حالاته سورة وقيمه ليست في عدد آياته، ولا في مقدار تطويله، أو تقصيره، ولكن العبرة بالالتزام بمعرفة هذه الذات وإن معرفة بسيطة مسلمة، وهي معرفة مقبولة ومجزاة.

3_ مسافة_ مساحة النص وجهد القارئ:

التوازن بين جهد القراءة وطول النص أو قصره، مع أن المعنى أحيانا يكون مركزا في النصوص القصيرة، فالبلاغة الإيجاز كما هو معلوم عند العرب، فأكثر من ثلث سور القرآن (40 سورة) هي من قصار السور كما ذكر سابقا، ليس هذا فقط، فهي أيضا تخاطب وعيا بالمحسوسات والمخلوقات ومكونات الطبيعة والكون. ما يرتبط به الإنسان مباشرة. لكن سبعة من طوال السور استطاعت أن تقارب في القرآن نصفه، خص بها أمراء المعرفة القرآنية وائمتها لما فيها من التزامات عقدية وترتيب لمنهج الدين، ومنهجية اتباعه.

¹ تاريخ النقد عند العرب، مرجع سابق، ص16.

ولقد أمّر الرسول محمد ص من يحمل البقرة في صدره على من معه؛ لا تمثل سورة البقرة كخطاب متتالية من الجمل والفواصل والآيات القرآنية، ولا تمثل أطول نص قرآني فقط، فهي من حيث مسافتها النصية تتشكل من جزأين وثلاثة أرباع الحزب، وهي نص الأحكام المطلق، في سورة البقرة ثلاثة محطات قصصية لاغير، قصة الخلق/ قصة سيدنا آدم، وجزء من قصة سيدنا موسى أو بني إسرائيل، وقصة سيدنا ابراهيم مع النمرود. وقصص فرعية كقصة طالوت والاختيار الالهي له، وعزير ونبوته ومحاورته الإلهية، وهي بصورة ما تفرع عن القصص الأولى بنو إسرائيل مثلا. هذه المحطات الثلاث، جزء من سير وتاريخ مرجعي، لأقوام وممثلين عنهم، حاولوا إصلاح البشرية في أزمنة سبقت محمد الى الخير والصلاح، وهي مرجعيات أصيلة لا فرعية في تاريخ النبوة. فآدم وموسى وابراهيم، شخصيات غيرت معالم حياة أصحابها، كما أن مجاباتهم مع أقوامهم/ مع فرض أن آدم امتلك تجربة يصلح أن تكون عبرة لكل البشرية برغم عدم وجود قوم معينين له أو أتباع. هذا الجدل القائم بين حامل المعرفة/ النبي والمعارض له/ قومه، كانت تجارب تمكن حامل النص من الخبرة والوعي، ما يجعله بامتلاك هذا النص وحفظه ومعرفته، أميرا وخليفة على غيره، ففي الإمارة تحمل للشدائد ومعرفة للأحوال ووعي بالمشقة وحضور البديهة لعلها. أما القسط الأكبر من هذا النص فهو أحكام في أغلب أركان العقيدة، والتعاملات المختلفة بين البشر، في الزواج والتجارة والإنفاق، والصوم والحج، والصلاة، وكيفية التعامل مع الحياة في يومياتها، كالتعامل مع فطرة البشري في شهواته، وفي سهوه، وفي خطئه...

4_ البلاغة اختيار دلالي يتناسب مع الخطاب أم ترف لغوي؟

_ اتفاق المجاز القرآني والمعنى العقدي؟

في إحصاء قرآني للسور وخصائصها تميزت سور عن أخرى بالتّ البيانية، وبالتّرف البلاغي وبسطوة المحسنات، كسورة القمر والنجم، والرحمن.. إن السؤال المطروح هنا في

تناسب النص وهذا القدر من البلاغة؟ هل يتفق هذا مع الدلالة المرجوة؟ إذ " يتمتع المجاز في الفكر الديني بأهمية مركزية حاسمة، لأن الفكر الديني يشبه الشعر في أنه يستخدم اللغة أحيانا بطريقة فنية جمالية تماما كالشاعر، ولكنه يختلف عنه في أنه يدعي الصحة الكاملة والحقيقة المطلقة لكل ما يقول... هذه اللغة الدينية الجمالية التي تؤثر في من يسمعها أو يقرؤها، تدعي أن كل ما تقوله أو تنقله للبشر صحيح مطلقا. كل ما تقوله صحيح بمعنى أنها تعبر عن حقيقة الأشياء وحقيقة الإنسان"¹. إنها لغة تعبر عن العالم بواسطة المجاز، المجاز الذي هو طريقة تفكير أيضا، لقد ربط سيدنا محمد وهو يسمع حديثا مسجوعا لا فائدة ترحى منه بتفكير الكهنة ولغتهم: (أسجعا كسجع الكهان)، لما في تزيين الكلام من تعمية، وجذب تخديري مؤقت لعقل المستمع !

فـ " ما حقيقة البلاغة؟ وما سرها في النص القرآني؟ هل هي مجرد شكل أو صياغة لمضمون؟ هل هي محض أسلوب؟ هل هي زينة وتنميق؟ وهل يتناسب الترف المجازي الدلالة الدينية العقديّة والعملية المرجوة في الخطاب المتخّم بالآلة البلاغية. ففي سورة الرحمن تعتمل الثنائيات الجمالية التكرارية من أول السورة حتى آخرها، ويلتزم الخطاب بذكر ثنائيات خلقية يقابلها بلازمة تتكرر مع كل حديث عن ثنائيات خلقه، في أسلوب لغوي تقريرى يصف أزمنة وأمكنة بين الحسي والغيبى، وكلها ثنائيات تبدو ضدية أحال الوصف التخيلي فيها والبيان الطافح حين التذكير بها كعلامات للاستنكار، ويقابلها في الخطاب بسؤال استنكاري (فبأي آلاء ربكما تكذبان) هذه اللازمة التي تقررت كجواب استنهامي، على الإنكار الذي تمارسه ثنائية الخلق في التفكير في المعطيات التي حولها.

ربما تكون البلاغة قد فهمت كذلك ولكن فهمها على هذا النحو يفقد الإعجاز كل طاقته الرؤيوية وأبعاده الروحية، وثرأه الدالي. من هنا لم يعد بمقدورنا أن نفهم البلاغة

¹ محمد أركون، قراءات في القرآن، الوصية الفكرية الأخيرة لمحمد أركون، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، لبنان، ط1 2017، ص662.

على أنها خلية للمعنى أو تنميق في الأسلوب. فليس البيان أمراً زائداً على المعنى. وإنما هو طريقة في القول، تبدل في المعنى وتغير في دلالاته، طريقة يتم بواسطتها اجترار المعنى ذاته. وإذا كان المجاز هو أداة البلاغة وآلة البيان فإن المجاز هو فعلاً اجتياز دلالي، اجتياز من الشاهد إلى الغائب. ومن الواقعي إلى الرمزي ومن الدال إلى المدلول، إنه ارتحال في عالم الدلالات والمعاني...¹. ولهذا كان الخطاب في سورة الرحمن خطاباً متكناً على المجاز في وصف الغيبي والمشهود: "فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ 37 فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ 38 " الرحمن 37_38 " يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ... وَلَهُ الْجَوَارِي الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ " الرحمن 22_24. دلالة على الإنسان ذي الأبعاد لا البعد الواحد. الذي يملك أكثر من حياة، أكثر من زمن، أكثر من جغرافيا، فهو يعمل ليربط بانتظام بين كل هذه الجغرافيات.

5_توازن النص مبنى ومعنى:

سورة الكافرون: العبادة مركز توازن كوني:

يذكر في هذه السورة أن مجيئها كان رداً من الله على مشركي قريش الذين دعوا نبيه إلى عبادة آلهتهم عاماً ويعبدون معبوده سنة²، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية³ فقال: " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) " الكافرون 1_6.

¹ _ م نفسه ص 26_27،

² _ كل التفاسير التي بين يدي ذكرت ذلك، فهم القرآن لعابد الجابري تيسير القرآن للسعدي وتفسير القرآن العظيم، التفسيرالميسر لعائض القرني، تفسير سورة الكافرون.

³ _ الامام اسماعيل بن الكثير، تفسير القرآن العظيم، دار الجيل، ج4، بيروت، ص565.

ونعود مع سورة الكافرون إلى المتأسس على الفعل (قُلْ)، حيث القول أو فعل القول هو خطاب إلى متلقين بالتراتب يتناولون الخطاب فيملكونه، وحيث كل قارئ للنص هو قائل ومرسلٌ مسؤول مطالب بالقول، ومأمور وفقا لفعل الأمر: (قل). بفعل القول واستعمال الخطاب.

وحيث الخطاب موجه أولاً إلى قارئ أول معنى بالأمر؛ محقق له بفعل التلطف، لأن محمدا يملك هذه القناعة / (الاختلاف في الدين)، والخطاب هنا مركب، فهو يتوجه إلى قارئ يقيني/ مخصص بفعل القول ثم أدائه ثم يتوجه بالأمر إلى قارئ منكر، وفي نفس الدرجة (القارئ المخصص بفعل القول/ يقع المتلقي الأشمل). الذي تتحقق به الرسالة في شموليتها، فهذا الخطاب رغم مخصصة المرسل إليه البشري الأول/ الرسول، إلا انه خطاب للبشرية لا يستثنى منها أحد، وفي قلب كل بشري مؤمن وكافر بالمفهوم الديني، يرسـخ لذلك الأحاديث القائلة بسوء وحسن الخاتمة. أي أن أي كافر أو فاسد أو خارج عن منظومة الخطاب القرآني الديني الأخلاقي والاجتماعي قد تكون خاتمته خلافا لما عرف، ويحدث العكس مع من ثبت التزامه وانضباطه فحاد عن حسن الخاتمة. إذ لا يتعلق الأمر بالانضباط مع المعبود فقط والاقرار بعبوديته، بل يتعلق الأمر أيضا بالاستمرارية في العمل وبالالتزام بالرابطة الأخوية التي تجمع الانسان بالانسان وبباقي المخلوقات وتحتم عليه احترام قانون التعايش والتراحم.

أولا تحمل السورة من الترابط الإيقاعي ما يشكل ترابطا شكليا ظاهرا، باتكاء أواخر الآي أو الفواصل على النون، هذا الحرف الذي شهدنا سيطرته على نصية الخطاب القرآني، بالإضافة الى تكرار الكلمات مختلفة الصيغة على ذات الجذر الفعلي/ عَبَدَ.

(وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) الآية 3 و5. ينفي عبادة المناصفة عنهم لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله فعبادتكم له المقترنة له بالشرك لا تسمى عبادة. وكرر ذلك ليبدل الأول على

عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفا لازما¹، فصيغة الفعل (أعبد/ تعبدون/ أعبد/ أعبدتم/ أعبد) ونلاحظ هنا تكرر الفعل (أعبد) في الخطاب بالتعاقب، على خمس آيات، يتعلق مبناها كفعل بالدلالة الزمنية وتغير الحدوث، فيما تنتقي في صيغة اسم الفاعل الارتباط بالزمن، وفي سورة الكافرون كما ذكرنا تكرر الفعل من الجذر عبد خمس مرات واسم فاعله ثلاث مرات، جاءت أفعال العبادة المنسوبة إلى الكافرين متغيرة زمنيا (تعبدون/ عبثتم) في الماضي والحاضر والمستقبل، أما الفعل الذي فاعله هو الرسول الكريم (أعبد) فقد جاء على صيغة واحدة ثابتة لا تتغير هي أعبد (وتدل على الآنية والمستقبلية والديمومة) فهذا الفعل الثابت المتكرر ثلاث مرات جاء على الصيغة ذاتها في كل حالات المقرونة بالمشركين، في حين يدل الفعل المتغير بناؤه وزمنه عند القرشيين الذين طالبوه بتغيير العبادة وتقايضها زمنا بزمن، على تأرجحهم وتخبطهم في عدم اليقينية والصواب. إذ في ذلك ما يثبت تخالف الطريقتين في الوعي بمفهوم الله والرسالة السماوية وهو وعي متعصب لا تغيير فيه، لهذا جاء الفصل في آخر السور انسجاما مع مناداتهم ومخاطبتهم الابتدائية (قل يا أيها الكافرون..) فيأتي الفصل نهائيا (لكم دينكم ولي ديني) ففسرت الخاتمة مناداتهم بالكفر أولها.

أما في فعل العبادة في صيغة اسم الفاعل (عابد) فقد تكررت ثلاث مرات جاءت في الآيات على الترتيب التالي: (عابدون، عابد، عابدون)، وقد تكررت الصيغة المتعلقة بالعبادة كصفة لازمة في الكفار لما يعبدون مرتين في صيغة اسم فاعل؛ وتكررت صيغة الآية تركيبيا مرتين، إقرارا بعدم تغييرهم وتأكيدا على ذلك، في حين جاءت الصيغة واحدة وقد توسطت اسمي الفاعل حين تعلق الأمر بالنبى محمد.

¹ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مقدمة محمد بن صالح العثيمين، دار الامام مالك، الجزائر، ط1. 2009، تفسير سورة الكافرون، ص872.

واستخدم الله عز وجل فعل العبادة في السورة بثمانية صيغ مختلفة (أعبد، تعبدون، عابدون، أعبد، عابد، عبدتم، عابدون، أعبد) تتخذ كلها من الجذر (ع ب د) أصلاً لها، كإشارة إلى جذر العبادة الواحد/ كيقين وثابت، لكن أشكالها وصورها ومعبوديتها مختلفة ومضطربة، وهنا تكمن مقبوليتها من رفضها. لأن العبادة في حقيقتها:

- غير مقرونة بدين دون آخر. العبادة فعل يقيني ثابت يتخصص بمعبود ما، الاخلاص فيها يكون تاماً أولاً يكون. ورغم ذلك فإن فيها المقبول والمرفوض والأصل فيها عدم الإشراف بالمعبود الواحد ومتى تحققت الشراكة انتهى مفهوم العبادة. فهي ليست سلعة معروضة للمناقصة التجارية كما اقترح كبار القرشيين على محمد آنذاك.¹
- حرية المعتقد لكل بشري، فالعبادة لا إكراه فيها.
- العبادة علاقة بين طرفين، علاقة أقوى من كل الروابط الأخرى، وفعل ثابت وأصيل راجح لا دخيل فيه، لا تغيير يطرأ عليه، وكل دين إذا اختلف أصله يختلف فرعه أو ما يصدر عنه.

ثم فصل بين الفريقين فصلاً تاماً فقال: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الآية 6 الكافرون. وفيه إشارة إلى حرية العبادة واختيار الدين بلا شروط، وتتفق هذه الصورة تماماً في دعواها إلى الإخلاص في العبادة كما تدعو سورة الإخلاص أو (قل هو الله أحد) الآية 1. وهما كلاهما تفسير لعبارة الشهادة (لا إله إلا الله)، ما منحهما درجة أن تعدل الأولى_ بما بلغته من معنى الإخلاص في العبودية لله وحده_ حسب التفاسير ربع القرآن " وقد تقدم في الحديث أنها تعدل ربع القرآن وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن"²، وتعدل الثانية ثلث القرآن ففي البخاري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك

¹ محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، الط6، 2016، تفسير سورة الكافرون، ص72.

² الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، تفسير سورة الكافرون، مكية.

عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: "الله الواحد الصمد ثلث القرآن"¹، وأنها براءة من الشرك كما جاء في الحديث.² وهو ربما ما جعلهما خطابين متلازمين في أغلب الصلوات السنية المخصوصة كصلاة الفجر، وركعتي بعد المغرب.³ وصلاة الشفع والوتر، وأدعية وصلوات ما قبل الهجوع. وعادة ما ترتبط بأوقات الوحشة والأزمات وأزمة السكون والحاجة إلى تهدئة الرّوع والسّكينة وتعزيز الصّلة بالخالق، حيث الحاجة إلى المعبود أكبر. وتوق النفس إلى مسكّن أولى.

¹ _ الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، تفسير سورة الإخلاص/ مكية، ص571.

² _ الحافظ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، تفسير سورة الكافرون/ مكية.

³ _ المرجع نفسه، ص564.

الباب الثّاني:

الخطاب القرآني

من أسئلة بناء الذات إلى أسئلة بناء الكون

الفصل الأول:

الحواس وصل النص بالعالم

من خطاب الحواس_ نحو خطاب العقل

1_ من خطاب الحواس إلى خطاب العقل:

يتأسس الخطاب القرآني في تأثيره لأجل أن يكون نصا وخطابا موجها للأدائه وتجسيده معتمدا على متلقيه والعمل به على أساس من معرفتين محققتين بنوع متلقي النص والعمل به، فهو ينحو من الذات المادية (المتلفظة والممارسة)؛ التي تتعامل به ومعه كخطاب إلى العالم الذي تعيش ويحيط بها، أو تتأسس مفهمته وتأثيره على أساس انتقاله من نص تهديبي مادي، يتحقق في مجالي الواقعي والاجتماعي إلى خطاب عقلي يؤثر التفكير وإعمال التدبر والنظر في العالم والماحول، ونهاية بكونه خطابا روحيا يرتقي بالذات المادية إلى الوقوع بين زمنين متخالفين يعمل أحدهما (الواقعي، المستمر حتى وقوع نهاية هذا الزمن) لوصل هذه الذات بالزمن الآخر (الغيبي). تكاد الذات تتعامل به فتكونه، فيتماهى المادي في الروحي. وتتحقق له الرؤيا التي لا ينالها إلا مؤول عارف وعليم وأقصى درجات التأويل النبوة. وعليه تتحقق النصية في انسجام بين المعارف الثلاث المادية والعقلية والروحية أو العرفانية. وستحاول الدراسة تتبع بنية الخطاب منتقلا من اعتماده او توجهه إلى المعرفة الحسية ثم العقلية فالعرفانية.

أ_ النص والحواس وعقل المسلمات:

(الجزء التاسع والعشرون والجزء الثلاثون):

الجزء في القرآن الكريم من الناحية الخطية والملفوظية حزبان ما يساوي وردا قرائيا يوميا، وهو مقدار حاجة المسلم من القراءة في حياته اليومية، واستمرار تكرار ما يهمله كمسلم ويعيد وصله كإنسان بدستوره ومنهج حياته. والجزء الذي نريد تناوله مجموعة من السور المجسدة لأفق متقارب معنويا، تتفق أغلبها أنها تعتمد على تحريك المعرفة الحواسية في تقريب المعرفة العقلية والغيبية.

فقد اتخذ القرآن له بعدا توصليا، يسمح بتوافق النص ومأموراته ونواهيته، النص كخطة حياة، يستطيع استيعابها المخاطب به_ بالنص_ على تعدد أوجهه وحالاته، "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" يوسف الآية 108. يقول محمد متولّي الشعراوي في أحد خطاباته المصورة الذي يمثل كرجل دين صورة الانسان في دوره الوسيط كإمام بين مرحلتي المسلم العام والنبوي: "إني أجاهد بكلمة طيبة أحمل بها منهج الله إلى الناس"، لهذا سهل طريقه إلى قارئه، سواء كان المتلقي العام، على بديهته وهون فهمه وذلك من خلال خطاب يتجه ليدرك بالحواس ومن خلال تجربة الحواس فقط، خصص لمتلقيه قصار السور وآيات من السور الأخرى، فقد "عمل القرآن الكريم على ابتكار أساليب تواصلية فعالة، حيث نجده ينوِّع هذه الأساليب بحسب المقام والسياق، مما يجعله يتجاوب مع النفس البشرية في أبعادها المختلفة والمتنوعة، فمرة يخاطب فيه العقل، ويرشده إلى أعمال الفكر والنظر، والتفكر في الخلق، واستتباط السنن الكونية، ومرة يخاطب فيه الروح بأشواقها وتطلعاتها، وآمالها وآلامها. ومرة يرشده إلى الاستدلال المنطقي، ومرة يفتح عينيه على البديهيات. ويستعمل أسلوب الترغيب والترهيب، والقصة والمثل. مما جعل

من القرآن الكريم منظومة تواصلية بالغة التأثير في المتلقي.¹ لأنه اتخذ له سبيلا تدريجيا في إيصال الخطاب لمن وجه إليه الخطاب، فحتى يقع التأثير استطاع هذا الخطاب أن يسبر حالات الشخصية التي تستقبل الخطاب، في مختلف صور المعرفة، متدرجة من الحسي إلى العقلي والتجريبي مرتقية إلى الروحي، ذلك أنه حتى يؤسس الخطاب شخصيته القرآنية متجاوبا مع حالات النفس البشرية في تطلعاتها المتباينة، استعمل طرقا متفاوتة في الخطاب؛ تنسجم مع كل من هذه الحالات، أو حتى يرتب للتصاعد من مرحلة الى أخرى كان يتدرج إلى الروح عبر خطاب الحواس أولا ولهذا نجد أن قصار السور _ والسورة كما سبق هي نص يتراوح بين الطول والقصر يبدأ تشكله من آيات ثلاث حتى قرابة الثلاثمائة آية _ هي خطاب موجه لذهنيات أولية يمكنها إدراك المحسوسات أكثر من إدراكها للمجرد، يمكنها ان تتقبل العبادة والمأمورات والمنهيات بطرق يسيرة وخطاب مبتسر، لكن لا يسعها التأمل والتدبر، الدين عندها مرتبط بالحاجة، حاجة هذا المخلوق السفلي إلى ذات عليّة تتدبر أمره، وتكفيه حاجته، ويرجع إليها حين عجزه، أو هو مرتبط عنده بعجزه قلة معرفته، ولهذا فإن هذه السور التي يصل عددها قرابة الأربعين سورة أي ما يعادل ثلث القرآن، اعتبارا من الجزء التاسع والعشرين (29) وحتى جزء (عمّ) أو الجزء الأخير في القرآن الكريم، بمعدل حزبين إلى أربعة أحزاب، وأكثر من الأربعين إذا جمعت كل النصوص التي تستغرق في مساحتها الكتابية بياض الصفحة أو الصفحة والنصف. أما قرائيا، تستغرق مساحة بين الثواني والخمس دقائق؛ هي نصوص تتناسب وطبيعة هذا العقل _ بدائي الفهم، أما استخدامها اليومي للمتعاملين بالخطاب الديني الإسلامي في مختلف صورهِ (الصلاة، التعويذات، الدعاء..) فهو استخدام مشروع للعقول كافة على اختلاف تدرجها، لأن أي مرحلة تتطلب هذه المرحلة وتمر بها من أجل الفهم. فأبي عقل مهما كان مركبا هو محتاج لحواسه لإدراك

¹ _ خديجة إيكور، مقدمة رسالة الدكتوراه المقدمة للمناقشة بتاريخ، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة المغرب، في موضوع: " لسانيات الخطاب القرآني: مظاهر الاتساق والانسجام"، 28 ماي 2007م.

العالم من حوله، وفهمه والتواصل معه يتم عن طريق هذه الأدوات. فالمعرفة الأميركية كما يزعم الاتجاه التجريبي تلتزم بدور الحواس لتمرير واستيعاب المعرفة. وأن العقل يمتلك وسيلتين للارتقاء إلى معرفة الحقيقة، الحدس والاستنتاج كما يقول ديكرت.

إن المساحة الزمنية التي تسمح بها المساحة النصية/ اللغوية في قصار السور هي مسافة قصيرة مقارنة بالزمن اليومي، مساحة تسمح بوجود الدين في الحياة اليومية دون إخلال بها، المساحة الروحية التي تعد وصلًا لاستمرار الدينونة، لاستمرار اليومي والرتيب، فواصل زمنية تكفي للتذكير والربط بين الخالق والمخلوق. تذكير بالنقص والحاجة والضعف أمام التطلع الدائم إلى المعرفة الكاملة والوصل بالقوة الكاملة. ثم العودة إلى اليومي، وصل بين حياتين وزمنين يعيشهما من يتعامل بالخطاب القرآني، زمن واقعي وزمن غيبي، وقطع مسافة بين علي وسفلي من خلال القراءة. والمعلوم عند العرب أنها عرفت أوزان الشعر بدءًا بالرجز تقول منه البيت والبيتين في الحرب والمفاخرة، ثم انطلقت إلى أوزان مختلفة، وكانت تقارب في هذه الأوزان بين الصوت والمعنى، وتقرن الوزن بالحالة الشعورية كالفرح والحزن والمفاخرة والغضب... و"كلّ وزن منها يوافق نوعًا خاصًا من الشعر؛ كموافقة الطويل وطواعيته للشعر الحماسي، وكموافقة وزن الوافر للفخر، والرمل للفرح والحزن، والسريع لتمثيل العواطف..."¹. والتزمت في ذلك بإنشاده على طول أو قصره؛ وستأتي الفصول القادمة كلها في علاقة النص بتأديته.

ومع هذا فإن الخطاب القرآني استدرج هذه المعرفة البسيطة أيضًا بأسلوب القصة والمثل، لأن المعرفة البسيطة في حاجة إلى أمثلة تقتنص إواليه وبديهية الفهم فيها، فخاطب الحاسة قبل العقل في معارف الإنسان القاصرة، والمعرفة البسيطة معرفة تجربة وتجسيد، إذ كلما تقدمت المعرفة لم يحتج الإنسان إلى المعجزات، بل حقق الإنسان معجزاته بيده؛ وهو

¹ _ م ن، ص 15.

بذلك يزداد تمردا وبطرا لتفوقه. ولهذا فإن العقل البدائي كان في حاجة إلى تجسيد الغيبي، والإحاطة بما يعتبره مستحيلا ولا متحققا وفتح المجال لرؤيته بالعين، لأن الإيمان عنده لا يحصل الا بالتجسيد، ولا تحققه الا الحواس في إدراكها للمحسوسات، ولهذا تحققت المعجزات في وقت ما، ولم يكن البشري في حاجة لتحقيقها الآن ولا السؤال عنها، لان ما يفعله إنسان اليوم كفيل أن يكون معجزة في ذاته _ وهو ما وصلت اليه النبوة في تدرجها للفهم والمعرفة بصورة ما؛ وسيأتي تفصيل هذا لاحقا _ ولهذا فإن خلق الجمال والخير في الأشياء لن تسعه المعرفة بالرؤية المجسدة إن ما يقود إليه حقا هو تدرج المرید إلى المعرفة بالروح، دون طلب التأكد بالمحسوس، فكأن هذه الدرجة الدنيا من المعرفة هي مرحلة شك تنال الرائي بما يحسه، لا ما يستشعره بقلبه، فالقلب يرى ويعقل، كما يعقل العقل، وتلك درجة أخرى استطاع النص أن يخاطب فنتها بالبيّنات والعقلي، كما استطاع أن يخاطب القلب كجواز للأرواح التي هي ليست مبنية على المادي فيها فقط، إنما هي في تشكّلها الإنسي؛ جسد وفي وعيها وممارستها الرؤية بالقلب روح، وهي في المرتبة في الخلق وسيط بين الخلق والخالق، بين السفلي والمتعالى. الأنبياء والصدّيقون والحكماء والصّالحون، ومن تمثّل بهم من العارفين والأولياء. الذين عادة ما يرون الحقيقة المثلى والجمال في أجل صورته في الخير وما يقرب أو يؤدّي إليه، قبل غيرهم لتجاوزهم مراحل من الفهم والمعرفة. فالخير أعلى قيم الجمال؛ بل هو مصدره كما يقول ويرى أفلوطين: " أن الجميل يكمن خلف الخير، ويصدر عنه. كما يعد مصدرا لكل شيء، فالخير هو المبدأ الذي ينبع منه الجمال والحقيقة. وبسبب هذه الطبيعة الخيرة للجمال فإن أنسب وسيلة لإدراكه الروح أما الحواس فإنها ليست سوى انعكاسات هي ظلال الجمال"¹. فالمرحلة الأولى من التواصل مع أي شيء تتم عبر الحواس، لكنّها تحقّق معرفة لا كاملة، ورغم ذلك فإنه لا يمكن تجاوزها كأدوات للإفهام للآذان العامة، التي قد تتوقف عندها ولا تستطيع الوصول إلى معرفة أوثق تتجاوز الحواس، وإذا كانت الحواس تنقل

¹ _ عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992، ص35.

هذا الصنف من المعرفة المادية التي لا تعقل بغير اللمس والسمع والرؤيا... فإن مفهوم الحواس العاقلة والمسؤولة في الخطاب القرآني نقلنا إلى وظائف جديدة لهذه الحواس؛ فهي حواس تعمل وظيفتها الأولى في فهم العالم، ثم تترقى إلى عقل ما تعرفه.

ب_ النص والحواس فهم العالم وعقله:

(السمع والبصر والفؤاد): الحواس العاقلة:

كانت الحواس وسيلة للفهم، والتواصل مع العالم، فالسمع محيط بكلّ الحواس وهو أول حاسة موصلة لمعرفة وفهم الآخر وبداية للتواصل معها، فـ" أصل اللغات كلها من الأصوات المسموعة"¹؛ والسمع والبصر حاستان يملكهما كل كائن حي، لكن الإنسان هو الوحيد الذي خوطب بهما كفضيلتين تمنحان الإنسان حق الفهم والتواصل مع العالم، واستكمال دورة الإنتماء وتحقيق الكينونة والارتباط بالعالم والماحول، وهي أدوات عاقلة كمن يملكها. إذ تنتقل هذه الحواس من درجة البهيمية إلى العقل والوعي عند الإنسان:

_ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل 78)، والفؤاد ليس هو العضو المعروف إنما أداة لعقل المعرفة وإيصالها. فحين يقول النص: "إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا" (الإسراء 36)، فإنّ هذه الأجزاء من الجسد لا تعود أجزاء مادية كما هو متعارف عليه، إنما هي أعضاء عاقلة ومسؤولة، تتحمّل نتائج أخطائها ثم تحاسب عليه في زمن آمنت به، وهي جزء منها، وتظلّ أدوات للفهم والوعي بالعالم موصلة إلى الحقيقة الكاملة ما دامت موصولة باليقين الأكبر، موجدتها ومالكها. " قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ" (يونس 31). " مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ" (هود 20).

¹ _ محمد مفتاح، المعنى والدلالة، م ث العربي، ص 38.

_ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ (المؤمنون 78).

_ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212 الشعراء)، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كُذِبُونَ. (223 الشعراء). وفي هذه السورة جاء ذكر السمع مرتين مقرونا بالكذب والعزل أو الصم. وهو حين يتحدث عن انعدام عمل حواس هؤلاء وتعطلها، فإنما هي موجودة بالفعل لكنّها معطلة عن فهموتوصيل الحقيقة.

ثم هناك حاسة أخرى أعظم وأوكد للفهم، تتجاوز الحواس أو تجيء بعدها، إنها مرحلة أخرى من الفهم والوعي بالتواصل مع العالم، ما تشكله التجربة والمعاناة. التي تتفوق على المكابدة الحواسية وتمر من فوقها، فتصيران أدوات عاقلة لمعرفة أعلى وأوكد وأيقن. تتحقق بالفؤاد حينها لا تسأل الحواس ولا تشك، ستصير حواس عاقلة تجيب عن الأسئلة التي تطرح بتمريرها على كير الفؤاد العاقل والموقن.

هناك معرفة تحتاج إلى معاينة وتقريب للصورة، "حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله " هكذا يقول علي بن أبي طالب، لأن الإنسان لا يصدق إلا ما يعرف. ولعلّ هذا الذي خاضت فيه أسئلة اللا أدريين، "حيث لا يمكن إثبات وجود الإله، ولا نفيه، حيث آمن بالحواس وعملها وليس غير ذلك، لأنه لا برهان يوجب الإيمان بوجوده؛ كما لا برهان يوجب إنكاره هذا الوجود"¹ والحواس التي يخبر بها النص القرآني في النصوص السابقة كوسيلة للمعرفة، وكوسيلة لتحقيق اليقين، وكسبيل وأداة لمشاهدة الحقيقة_ الغيب لا يمكن أن تكون حواسا عادية، ترى وتسمع بفعل العادة، هذه الأدوات هي أدوات عاقلة تتحد مع العقل، فيستجيب ليقر بالروحي كأنه مشاهدٌ يراه ويسمعه ويحسّه "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" (ق 37). حتّى يصبح الوعي بالحقيقة الكاملة ووجود الله

¹ طه عبد الرحمن. روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الانتمانية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط3، 2013، ص 59.

الغيب كمشهود، إن عملية التواصل بين العالمين تتطلب مكابدة.. لحظة الإجابة التي يمر بها الأنبياء/ الوسطاء، لإيصال المعرفة الحقيقية لنا، ليست لحظة سهلة، وإن الإجابة لا تتأتى لمن كان، هذا ما يفسر حالة الهلع الأولى التي أصابت محمدا البشري الرسول أول الوحي، وهي ما ظلت تصيبه طوال نزول الوحي. كإنسان يملك الحواس التي يملكها أي بشري، يقابل حالة من الاستجابة لما فوق السمع والبصر.

وسيكون القالب النموذج: محمد الإنسان ثم النبي والوسيط بين العالمين، إن لحظة تنزل القرآن على محمد على جبل من جبال مكة، لحظة تتحدى التحديد العلمي فحالة الشك والتهيه¹؛ حالة الاضطراب والخوف التي اعترته كبشري وجعلته يهرع إلى مقربه، حالة الصدمة والدهشة ما يحيل أن ما أصابه يمكن أن يصيب البشري العادي، من يكتشف حقيقة غائبة، لا يعرفها سواه، حقيقة وجود عالم وكائنات أخرى تتواصل مع هذا البشري وتكلمه، فنحن كبشر كما تقول ليزل ينفعل ما بوسعنا لتجاهل الحقيقة، إننا لا نمتلك الحقيقة دائما، وإننا لا نستطيع تفسير كل شيء سواء كنا عقلانيا أو روحانيا سواء اعتقدت أن تلك الكلمات التي سمعها جاءت من داخله الواضح أو أنه مر بتلك التجربة.

إحساسه بنفسه وما حوله، هذه الحقيقة اللا مرئية والتي قرنت ووصلت بمعرفته وإدراكه ووقوعه بين عالمين، حوّل رجلا متواضعا إلى داعية راديكالي للعدالة الاجتماعية والاقتصادية. خوفه كان ردة فعل إنسانية، لم يكن بلا حواس، وهو يواجه عالما لا يفهم بالحواس وحدها، لقد هلع كإنسان وشكّ وخاف، النقص الموجود في كل ذلك، هو الذي جعله حقيقيا بالنسبة لي جعلني أراه بصورة كاملة.. فالشك ضروري للإيمان². لأن في الارتباب والشك تجسيد لحقيقة الضعف في الإنسان وعدم الاكتمال التي يسعى لإكمالها بطريقة ما؛ بالتواصل مع ما ومن يكمله. الذي يتم عادة بالمشاهدة، وفي حالة النبوة هناك اتصال

¹ سيرة محمد. ليزلي هازلتون. خطاب مصور على موقع يوتوب ومذبل بالنص كاملا.
² المصدر نفسه.

وتواصل أقرب إلى المباشرة، وفهمه الحقيقة يكون أسبق من غيره. فالتشك كما وصفه غراهام غرين هو جوهر المسألة؛ ثم يعتري المستجيب (نبياً بشرياً، ثم عبداً تقياً منيباً مخبتاً...) حالة متفوقة على الاستجابة المادية؛ مرحلة تجاوز الحواس؛ أن لا تثق فيها لما ترى وتسمع، وتحتاج لتشكك تجربتك كمفرد إلى تعدي الحاستين، إلى التجربة والمكابدة، **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** (السجدة 9).

_ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ (الملك 23)، مرحلة النشأة ثم مرحلة الجعل، تتوظف الحواس حينها لمعرفة عوالم لا ترى ولا تسمع، إنما تتأكد كيقين بالقلب بتعدي الحواس، **تَعَدَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ**، لا تثق فيما قال الآباء والأجداد، كون تجربتك بنفسك، هذا هو العلم في القرآن¹. فكل امرئ يرى ويسمع يستعمل حواسه كما استعملها سابقوه، وكما يستخدمها محدثوه ومعاصروه، لكن الأفضلية للحق في التغيير، وفيمن يتعدى السمع والبصر، فيمن يقف خلف الرؤية البصرية ليرى بعين القلب؛ ويسمع بإصخائه. فإن الوصول إلى الموجود بالموجود دال عليه، وكل موجود هو متصل بالحقيقة المعرفية الكبرى التي تسعى إليها الحواس العاقلة، فكل الموجودات توصل إليه؛ فكل ما يوجد يوجد في الله، ولا يمكن لأي شيء أن يوجد أو يتصور بدون الله².

ولهذا فإن النص جاء وثيقة خاصة وعامة، وخاصة ثم عامة؛ هو يخاطب كل فرد بفردانيته، ثم يخاطبه كفرد في الجماعة، كل متلق للخطاب هو مسؤول عنه، كل شخص هو نبي إن استطاع المكابدة وتحمل المعاناة، **" تلق رسالة الله بجهدك الشخصي، ومعاناتك المثمرة، اجعل العلم معاناة"**³. تبدأ المكابدة عندما يعي القلب **" وَمَنْ أَنْظَلْ مِنْ ذُكُرٍ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ**

¹ _ مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل ص 196.

² _ اسبينوزا، مرجع سابق، ص 45.

³ _ مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص 196.

وَقَرًّا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا" (الكهف 57). لهذا فإن العلم/المعرفة التي قصد إليها الخضر كعالم يعرف ويتجاوز معرفة موسى الحسية، هي معرفة محلها القلب لا الجوارح والحواس، إنها معرفة يوصل إليها بالمجاهدة والمعاناة، " قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا " (الكهف 78). التأويل إجابة عن حالة الشك الحسية في مقابل معرفة يقينية متجاوزة عند الخضر العارف والمجيب. فالمكابدة التي لم يطقها موسى، " إقامة الجدار وخرق السفينة وقتل الغلام" رغم أنها تنكئ في ظاهرها على الحواس: السمع والبصر والحس، هي وقائع في المقابل تحتاج معرفة بالماحول والمرجعيات تحتاج معرفة بالمستشرف والمستقبل، أحوال المجتمع وأحوال التاريخ وثقافة العصر، لكنها لاتدرك بالعقل وحده، إنما هي رؤيا قلبية تسوقك حيث الخير جمعي والأنا مشتركة وإنسانية، فلا عمل مما قام به الرجل العالم هو عمل لذاته، إنما هو عمل وجهد لخير الجماعة. هذا الاستشراف المنطقي والعقلي الذي حدث بجمع القرائن، والمعطيات وما تقدمه من نتائج تصدر عن معطيات قلبية من الخير والشر.

هو عمل وعلم، سماه الله علماً، فالوصول إلى اليقينية تسليماً هو معرفة تامة، لا معرفة بعدها. لأن الأحداث التي قابلها النبيان، أو الرجل الصالح والنبي؛ معرفة أقرب إلى الغيب، لكنها في الحقيقة رسم لما سيحدث واستشراف له، تعرف الحواس وتدرك، ثم يعي العقل، لتوقن الأرواح وتدعن وتسلم، ولهذا قرنت هذه الثلاثية؛ أصحاب الكهف، ذو القرنين والروح. هنالك مكابدة لإيقاف محور الشر، هناك استكناه للأرواح الخيرة، وقراءة لما سيحدث لها. ما حدث على يد الرجل الصالح ليس ما رأته الحواس، تلك معرفة أولى، أما ما حدث فهو قراءة لما سيحدث لأصحاب القصص الثلاث. إنها نبوءة وتأويل. فالصالح يجازى صالحاً في ولده وماله ويؤول إليه، والظالم يجازى بظلمه وجبروته وذلك مآله، من كان يوقن أن نهاية فرعون الغرق. لكنه العلم الأوثق من الرؤية بالشاهد. ومن السمع والبصر. "كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ.. " الشعراء الآية 62.

فالسَّمْع والبَصَر ناقلان للعلم، ولولا ذلك ما تبع موسى الرجل الصالح وصحبه ورأى وسمع وعرف، لكنّها معرفة شكّ لم توقن في القلب كما وقرت عند الخضر. فالقلب أوثق للمعرفة لهذا فإنه لا تعمى الأبصار ولكنه عمى القلوب. فالمعرفة الوثوقية لا تتطلب عينا لترى وأذنا لتسمع، "سَأُنَبِّئُكَ.."، ستحتاجهما لتدرك، وتأول، صعودا وارتقاء إلى المعرفة النبوءة التي لا تتطلب السمع والبصر فقط، " وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا.."، إذن هي معرفة أساسها الصبر. وقوام فهمها وتأويلها معرفة حقيقة العلامات، والعلاقات بين العلامات، " سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"(الكهف 78)، يحتاج الأمر إذن إلى تأويل، يحتاج قلباً عارفاً، هناك معارف تحتاج من طالبها الانقياد لها، والتسليم فإذا حدث، حُقَّ للعارف منتهى فهم العلامات وتحقيق الفهم والتأويل. فالوحي إذن في كل ذات موجود، عليك أن تستفز إدراكه بالمتابعة والمكابدة والتعاشيش، تجتمع الأزمنة في فهم الحياة، فالغلام كان عاصيا (ماضي)، والسفينة كانت لمساكين يريد الملك أن يأخذها (حاضر)، والجدار كان ليتيمين أراد ربك ان يستخرجا كنزهما (المستقبل)، فالقلوب الموقنة تتجاوز قراءة المعلوم، لتستشرف ما هو غير معلوم فتستحضره كغيب تغير فيه بيقينها، وتصحح الماضي، مسبقة لمستقبل أفضل يحلّ محلّه.

2_ الجسد وفهم الخطاب:

استطاع البشري فهم العالم من حوله بتغييره بما يملكه من حواس، ثم استطاع فهم أخيه الإنسان باللغة التي كفلت له التواصل، وبلوغ غايات ما كان ليدركها بجسده فقط؛ لكنه احتاج إلى جسده ليتمكن من لغة جديدة، تتحمل الدلالة وتغني عن اللغات المتخالفة والتمايزة، فلغة الجسد مكّنت من استبعاد حاجز اللغات؛ فقد " شكّل الجسد عاملا مهما من عوامل الخطاب الإنساني منذ أقدم الأزمنة، ولم يكن أداة للقراءة وإيصال المفاهيم بين أبناء الجنس البشري فحسب، بل إنه مصدر ديمومة الحياة والتفاعل معها، بشكل إيجابي وبمظاهر

شتي، فمرة يكون مظهرا من مظاهر العيش الإنساني، وتارة عنصرا مهما من عناصر التفاوض مع الطبيعة والتآلف معها، وبشكل آخر يكون تعبيرا إنسانيا عما يختلج في نفس الإنسان من فرحة وحزن¹. فاستخدام الجسد كوسيلة للتواصل هو لغة يفوق حيز التواصل بها حيز أي لغة منفصلة، وكان التخاطب به وسيلة للدخول في الطقس الديني والتعبير عنه. فقد "شكّل الجسد في المراحل السابقة لانبثاق الدراما عند الإغريق أداة مباشرة ومركزية في تحقيق الخطاب الذي تأسس على فهم خاص لعلاقة الانسان بالكون والآلهة. فكان خطابا يتسم بالتعبير عن الاحتفال الديني. والذوبان في الطقس الجماعي بشكل يؤيد الانتماء الى الموضوعة الاحتفالية"².

إن النص الذي وصل للبشر عن طريق شخص النبي، لم يكن كتابا مخطوطا بل كان خطابا مؤدى يتداخل فيه اللغوي بالجسدي، والرسول الذي أوصل هذه الرسالة (النص)، صار ما يصدر عنه خطابا تابعا للخطاب المركزي ومكملا له، واعتبر ما يؤديه _ فضلا عن ما يقوله _ هو نص يحق أن يحفظ عنه ويتبع؛ ولهذا فصلت السنة النبوية (وهي كل ما يصدر عن المرسل النبي محمد) إلى لفظية وفعلية وتقريرية، لكنها شكلت في الأخير هذا النص الذي يعد نصا شارحا، أو نصا مكملا للنص القرآني، ونصا للحياة مؤديه النبي البشري الذي يربو يسمع ويتحقق كموجود. خطاب لا تستكمل دلالاته أحيانا إلا بهذا التوازي. وأصبح هذا الخطاب الذي يؤديه البشري/ الرسول: خطابا ذا مصادر متعددة ولا يستكمل إلا بها: مصادر تصدر عن الأصل؛ الخطاب القرآني:

– مصادر قولية مفسرة وشارحة تصدر عن النبي الرسول.

¹ _ حسن عبود، خطاب الصورة الدرامية، منشورات صفاق الاختلاف، الأمان، بيروت الجزائر، المغرب، ص 15.

² _ المصدر نفسه ص ن.

- مصادر تفهم من الإيمان وتعبير الجسد، فيفهم منها ما هو متفق عليه وما هو مقبول، ويفهم منها ما استنكر أو رفض بحركة الجسد، وهو ما رجح تسميته بالتقريري. " حين كانت الجمل في الخطاب النبوي، تدل على المتكلم بها من خلال الأدوات الإشارية المتعددة التي تخلق حالة التداخل بين القصد الذاتي للمتكلم ومعنى الخطاب، ليصبح فهم ما يعنيه النبي وما يعنيه الخطاب واحدا¹. لأن الخطاب الموجه والشّارح الذي يصدر عنها، لم يكن نصا مؤدى كالصلاة، ولا قوليا كالحديث النبوي، إنما فهم من حركة الجسد وإشارته.

3_ النص / الجسد / الشعائر:

يتكئ الخطاب الديني في تفعيله باعتماد طقوس وأداء حركات كما يستلزم التقيد بحالات من الدخول في السكينة والتأمل تميز كل عقيدة عن ما يختلف عنها، وتميز كل متدين عن غيره، حتى وإن كان في العقيدة ذاتها؛ لكنها تبقى عناصر مكملة تشته بالمحسنات التي لا يفتقد المعنى بدونها، لكنه يقوى ويتضح بوجودها. كما أنها عناصر لاستكمال حاجة الروح الى البدن، وحاجة الخطاب في دورته إلى علاقة الملفوظ الذي يعتمد الكلمة كعنصر مركزي بعناصر التلفظ وإن كانت تبدو كمالية في تحقيق الدلالة. إنها أيضا مخصصات تميز الخطاب وحامله.

فالنص القرآني يظل خاملا، يظل خطاطة ساكنة المعنى (ككل نص في الحقيقة يتحرك بالقراءة أولا ثم بالتخاطب حيث بإمكانه ان يحقق تفاعلا أكبر) ما لم يرتبط بما يمثله من إنسان يتشكل من أوامره ونواهيه.. من الطقوس التي تعد في الحقيقة شكلا ومظهرا، لكنها وسيلة للتعرف على الانسان القرآني. إن تجسد نصيته تتمثل في أدائه الإنساني، ولولا ذلك لاختار له مرسله ملكا رسولا؛ بل الأسوة في الجنس من جنسه لا في من يفوقه، بل بشريا

¹ - وجيه قانصوه، النص الديني في الاسلام، ص165.

يتحرك بهذا الخطاب الجسدي عما تضمنته العقيدة. وأول هذه المظاهر الصلاة وقد ذكرنا علاقتها كفعل بالاشتغال بالقولي فهذه "الشعائر أفعال بدنية رمزية للدلالة على الطاعة، تعبير بلغة الجسد عن مضمون العقائد"¹.

وقد يكون ذلك بالصوت مثل ترانيم المعابد، وترتيل الكنائس، وتجويد القرآن والنطق بالشهادتين. وقد يكون بحركة الجسد والتراقص أمام المعبود مثل بعض حلقات الرقص الديني الراجح فيآسيا وإفريقيا، او حتى أداء الصلوات الإسلامية بأفعالالركوع والسجود، والحج والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمرات والطواف، وفي الصيام يكون بالإمتناع عن الطعام والشراب. وهما فعلاّن من أفعال البدن.

وقد تكون بالقداس وإشارة الصليب وسير الرهبان وحمل القضبان والمناولة والركوع، أمام تمثال المسيح، والعدراء، وإطالة اللحي والشوارب، ووضع غطاء الرأس، والتوقف عن العمل يوم السبت. وكلها أفعال للبدن تعبر عن عقيدة مختلفة. والطهارة والغسل والإمامة أيضا. أفعال للبدن، والنظافة والصحة والعافية.²، فلا يتحقق استيعاب أي نص ديني دون إقراره بالأفعال والحركاتالمعبرة عنه، والتي عادة ما تكون خاصة به دون غير ه من الديانات. ولا يتحقق كمال النصي، إلا بالفعل والقولي.

كذلك تختص العبادات بأزمنة وأمكنة تحيط بالنص الأصل، فتشكل طقسا مكملا من طقوسه، فعند الأماكن التي يلفها التقديس تحتجب الأبعاد والمقامات البشرية، وتعلو روح الإنسانية؛ لتستجلب اللحظة الشعورية الأولى التي أنجبت النص المقدس.

¹ _ حسن حنفي وآخرون، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت _ لبنان، ط1. 2005، ص 11.

² _ حسن حنفي وآخرون، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، ص 11.

فالجسد يلبي حاجة الروح إلى الرّفعة والتسامي بطقوس مختلفة، يعمل لوصل الزمنين، زمنه والزمن الذي ضيعه، يتوق البشري إلى الوصل بالأعلى لأن هذا هو موضعه الحقيقي، ومكانه القبلي، وقيمه المطلقة؛ او ربما لتصحيح خطيئته فقد سقط الانسان من عل/ المكان الأول بسبب خطئه، وهو يتوق من خلال طقوسه إلى الارتقاء السماوات ليكشف غيبه، ماضيه الذي كان. ويعيد نقيا كما كان، هذه هي علاقة الإنسان بالمكان كطقس يلجأ إليه للتطهر، "وقد رُفِعَ المسيح أيضاً. وتغلبت الحياة على الموت، والرفع إلى السماء على الدفن في الأرض. والتضحية بالحيوان بديل عن التضحية بالإنسان. وقد كانت القرابين عند الساميين أحد مظاهر التقوى والعبادة. ومنها الختان في اليهودية والإسلام. ضحّى قدماء المصريين بالإنسان في احتفال مهيب بعروس النيل حتى يعم الفيضان والرخاء. وأنقذ الإسلام الإنسان. ونسخ الأمر الأول الذي وقع في منام إبراهيم، عليه السلام، بذبح ابنه إسماعيل بأمر ثانٍ وهو التضحية بكبش تنفيذاً للأمر الإلهي، وفي نفس الوقت اعترافاً بأن الإنسان قيمة مطلقة، وذبح الحيوان لإنقاذ الإنسان. بل إن بعض الملل والنحل أيضاً تحرّم ذبح الحيوان كما هو الحال في الهند أو لدى جماعات الرفق بالحيوان الحديثة.¹ "ورغم أن الطقوسية في كل عقيدة هي متممات، لكنها تظل مميّزة وعلامات لفئة على حساب فئة وعقيدة على حساب عقيدة، إذ ينفر اليوم العالم من المقصر والملتحى والقبعة الإسلامية والعمامة لأنها اقترنت بأيدولوجيا الرفض والعنف التي ألصقت بهذه الطقوس التي عدت وفق هذه الأفهام جزءاً مترابطاً مع الخطاب الأصل.

¹ _ م نفسه، ص، نفسها.

4_ تأدية النص / مسرحته:

أ_ التّواصل الشفوي للخطاب القرآني:

التواصل الشفوي للخطاب القرآني في مصدره؛ ثم استيلاؤه كرسالة خطابا شفويا مشذرا وفق الأحداث والحاجة يوافق المقام القبلي، ثم يؤسس لسياقاته بعد ذلك، وهذا ما يصفه البعض بأنه صالح لكل زمان ومكان _ رغم أن هذه العبارة تثير امتعاضي كباحثة ولذلك أسبابه _ خطاب يتوافق مع الحاجة في سابقه ولاحقه؛ "ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً". الكهف: الآية 54. فهو يتفق مع حاجة الناس، وهنا ولقد صرّفنا فيه للناس لا للمؤمن فقط، إنه نص الإجابات، وخطاب الحلول. لا يمكن أن تضيق بك الحلول، إلا ولك فيه مخرج.

أمّا في وصوله إلى متلقّيه، اعتبر بدور الجسد وقيمة الصوت، بناء على هوية الخطاب العربية، " الهوية الشفوية للنص هي أيضا هوية الناس"¹، والهوية الشفاهية عربية خالصة لأقوام قدّسوا وأخلصوا للسان والسماع. ولهذا فضل الخطاب القرآني تداوله وتلقيه الشفاهي، وترديده الترتيلي، فهو في دورة خطاب شفوية دائمة. واللغة كظاهرة اجتماعية تعتمد على الصوت للتعبير عن الاغراض كما يقول ابن جني² وعادة ما يلقي اثره إثر احتكاكه التواصل كنص مرتل، أكثر مما يصيبه بالقراءة، فالقراءة المرجوة في النص هي قراءة العمل والتدبر، لكن التأثير مرجو بالتلاوة. وكثيرا ما تلازم هذه الطقوسية/ (النص + الصوت+ الأداء) النصوص الدينية، وحلقات الذكر والتذاكر، وتلازم حتى الشعائر البشرية، كالاحتفالات والمناسبات، في الأفراح أو في ظروف الموت والحزن، إذ لا يلتزم الإنسان

¹ _ محمد حجو، الإنسان وانسجام الكون، العربية للعلوم، الاختلاف، الامان، بيروت الجزائرالمغرب، ط1 2012، ص 106.

² _ أبو فتح عثمان بن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، ج1. دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، سنة 1976، ص33.

بنص ما يتناص مع الموقف، بل يتعداه على التردد وندنة المقول. يضاف إلى هذا النص إثرها الكثير من الشحنة العاطفية الملازمة للموقف والتي تدفع للتأثير والتأثر أكثر.

لقد عرفت العرب الإنشاد وعرفت معه النصوص المطوّلة، وقد كان النابغة الذبياني ينزل عن راحلته ويجثو على ركبتيه معتمداً على عصاه منشداً في موضعه، ويغرق في طقوس الإنشاد حتى يستقوي بها على النص القوي، والقافية المستعصية، محاولاً تجسيد المعنى وتعظيم النص المجسدة في هيأته؛ وإنه ليزوي وهو ينشد نصه، وإنه ليتهاك وهو يؤديه، يحرك به الأسماع والقلوب، ويشفع لذلك ما يثيره في مشاهده، كما ذكر عنه وهو ينشد:

عَرَفْتُ مَنَازِلًا بِعُرَيْتِنَاتٍ فَأَعْلَى الْجِرْعُ لِلْحَيِّ الْمَبْنِ..

فالرجل اختار قافية متعبة، أنهكته وآتت عليه حتى نوت عصاه في الأرض، فاقرنت القافية الصوتية المتعبة، والتي تدل على قوة الرجل وقدرته الشعرية والمعرفية أيضاً. بقوته في الخطاب وكشخصية اجتماعية مؤثرة.

وقد قال حسان وهو يسمع قافيته، هلك الرجل، وقد رآه يتبع قافية منكراً، فما زال ينشدها حتى أتى على آخرها.¹ فربط الإيقاع بالجهد والتعب، وأثبت النابغة بهذا الرسم الموسيقي الصعب والصوتي المجهد قدرته الشعرية وتفوقه؛ فارتبط الجهد الجسدي المبذول بقيمة النص الشعري.

ب_ جسدة النص:

الجسد خطاب مؤدى

¹ _ عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ط 4، 1986، ص 31.

تقوم فكرة الصلاة كفعل على تجسيد النص الخطي، وكذلك الطقوس الجسدية المختلفة؛ حيث يصبح الجسد في ذاته خطابا وليس مجرد أعضاء مادية إنما جسدا وأعضاء مفكرة تمارس وظائف عقلية تمكنها من تطبيق النص تصل بها حتى المعرفة الروحية حيث تتلاشى الأشياء ويرتقي الجسد. وهي بما هي طقس روحي تجمع بين الفعل الجسدي والفكرة والخطاب، التزام أفعال محددة في أزمنة محددة بحركات وايماءات تتكرر دون زيادة أو نقصان تجمع بين فعل الترويض وفعل الاسترخاء وفعل تجديد الطاقة وفعل رسكلة الخطاب أو تجديده أو إعادة تفعيله الى أداء. تمثل الصلاة جسدنة للنص وتثبيتا لصورة المؤمن الذي يتفق مع نصه، وتشكيلا للإنسان المتكامل، القولى والفعلى والقيمي والأخلاقي انتهاء بالارتقاء الروحي؛ إنها تمثيل للسجود والاقتراب، فكما دنا الجسد، كانت الروح أعلى وأسمى وأقرب. فالذي يحدث جسديا هو تمثل الاقتراب الروحي ذهنيا كحاصل ومائل، كغيب مشهود.

"نشأت فكرة الجسدنة أو تجسد الذهن موازية لفكرة الاستعارة المفهومية، فالاستعارة تمثلُ لمجال على أساس مجال آخر. والجسدنة تمثل للمفاهيم المجردة على أساس الجسد من قبيل: الغضب الفرح الخوف الحزن والقلق... الخ...¹؛ إذ لا تبلغ حدود الجغرافي المادي في الصلاة مساحة القدمين، لكن تبلغ حدود التفكير والتأمل والحلول والنحول، والذوبان، والتدرج في الصعود والارتقاء مبلغ الثقيل الخفيف السابح. لا تلغي الطقوس في عبادة الصلاة العقل، إنما للعقل والجسد قيمتهما، لكن هناك مساحة بين كل هذا وكل واحدة تسمح بالاجتياز الى الأخرى كمرحلة من مراحل التجريد والاستغناء. إنه الجسد المفكر والأعضاء العالمية.

وبينما "يقوم الفكر الكلاسيكي _ والعبارة للايكوف _ على اعتبار العقل (أو الفكر) تجريديا صرفا لا صلة له بالمادة أو بالجسد، فالفكر متعال يتجاوز كل حدود المادة أو

¹ _ الازهر زناد، نظريات لسانية عرفنية، العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، دار محمد علي، لبنان الجزائر تونس، ط1. 2010، ص 186،

الجسد¹؛ تقوم الفكرة الحديثة على عكس ذلك، حيث تمثل الأعضاء، ويمثل الجسد بطاقة العبور ورقعته. فالإنهاك في القيام والصوم، والنحول في اللهثة والذكر، والقشعريرة في برد الفصول وحرها بالزام النظافة والطهارة الدورية، كل هذا الفعل البشري لتحقيق الفضيلة السماوية بروح أظهر وذات أكثر تقرباً. "وأما الفكرة الحديثة فقائمة على خلاف ذلك، إذ نرى أن للعقل أسساً جسدية، فهو يمثل كل ما له صلة بالذوات المفكرة، بل هو وظيفتها، فيصبح على هذا الجسد المفكر، بما له من طرق وأدوات في العيش في المحيط، مركزاً للمباحث المهمة بالعقل".² ولهذا فإن مفهوم القوة يتغير مع ثنائية الجسد والتفكير الروحي.

حين تتحول الأجساد _ مسلّمة ومطبعة _ إلى خطابات، أدوات عاقلة للبلوغ إلى محطات يتفعل فيها دور الجسد فلا يعود مادياً فقط. فـ " في التجريبية دور الجسد يتحول إلى أداة تمكن من التفكير وليس مجرد تحقق للفكر فيه، فالفكر ينبت في الجسد في بعده الفردي والاجتماعي، من حيث تكونه الوراثي الجيني، ومن حيث طبيعة المجال الذي يعيش فيه ومن حيث طبيعة اشتغاله في ذلك المحيط. فالفكر ينبت وينشأ ويتبلور في ذلك جميعاً. على حد عبارة لايكوف³. ولهذا تأخذ الصلاة قيمتها لا من القول فقط بل مقترناً بحركات الجسد، وتأدية القول.

" فالجسد في الدماغ (الذهن المجسّد) لا يشكل بالجسد فقط، وإنما يتشكل كذلك بما يكون للجسد من تفاعل بمحيطه، فيكون الحاصل من جميع ذلك أن العرفنة⁴ تتشكل بالجسد _ في الدماغ _ في _ العالم: (العالم: الجسد: الدماغ)"⁵، ولهذا أولت العبادات الإسلامية والخطاب القرآني قيمة للقول مفعلاً بالجسدي، ومؤسساً على أفعال وحركات وشعائر لها

¹ _ الازهر زناد، نظريات لسانية عرفنية، ص 184.

² _ لزه زناد، نظريات اللسانيات العرفنية، ص نفسها.

³ _ م نفسه ص نفسها.

⁴ _ العرفنة مفهوم أشار إليه الازهر زناد وربطه باللسانيات، وهي عقل الأشياء.

⁵ _ مرجع نفسه ص 186.

مدلولاتها وقيمتها. حيث يتحرك القولى وفعل الجسد في آن معا، ليبدلي الجسد أيضا بخطابه، و"النحو الكوني (ركزه تشومسكي منذ الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن الماضي) ويتلخص الموقف الأساسي فيه والنحو التوليدي في أن اللغة تدرس لا من حيث كونها ظاهرة مجردة أو مواضعة اجتماعية وإنما من حيث ما يفهمها به الناس ويستعملونها"¹. فالاستعمال والتواصل باللغة يحققها ككوني.

يتجاوز الجسد مفهومه كمادي، ليصبح خطابا؛ كلمة؛ وهو في حد ذاته دليل لغوي. وقد تجاوز بيرس الحدود التي وضعها دي سوسير بل ذهب أبعد من ذلك ففي رأيه أن الكلمة أو الدليل الذي يستعمله الإنسان هو الإنسان نفسه... والإنسان باعتباره كينونة لغوية مفكرة فهو دليل لغوي أيضا. ولهذا تسمى الأشياء كلمات الله وسمي المسيح الإنسان والنبى كلمة الله.

¹ _ المصدر نفسه، ص 47.

الفصل الثاني:

من خطاب العقل نحو خطاب الروح

1_ إيداع مفاتيح المعرفة والإدراك في الإنسان:

جدل الإنسان العلم واللغة:

الإنسان كائن يفكر، هكذا فصل التفكير وما يحدثه من تغيير بتفكيره، بينه وبين بقية المخلوقات والموجودات حوله إذ "يشكل العقل عند الفلاسفة اليونان، الطبيعة الجوهرية للإنسان، وعرف أرسطو الإنسان انه كائن عاقل"¹. فهل الإنسان هو العقل فقط؟

أم هل هو الكائن العاقل الناطق؟ أم هو الكائن الذي يفكر ويتأمل، يشك، ويحلل ووفقاً لهذه الثنائية؟ فهو كائن فعال انطلاقاً من ربط النص الإنسان بهذه الخصائص. وهو أيضاً كائن اجتماعي تواصلية مُنح قيمته الكبرى من اللغة التي يتواصل بها، يتفاعل ويحقق رغباته وتفكيره. "وينقد الفيلسوف الألماني كانط ذلك التعريف التقليدي للإنسان باعتباره كائناً عاقلاً، ولا يرى ثمة قيمة لهذا التعريف لأن القيمة الحقيقية عنده ليست هي ملكية الإنسان للعقل ولكن ان يكون الإنسان قادراً على استخدام العقل فالقدرة على استخدام العقل هي التي تشكل الجوهر الحقيقي للإنسان، على أساس استخدام العقل تكون عقلانية الفكر الناقد مردوده الى عقلانية المنهج"².

وقد جاء في تفسير القرطبي للآيات الأخيرة من سورة آل عمران³ ومن ثم القيمة التي تبلغها في الخطاب القرآني، في صرفها الإنسان إلى قيمة عقله، لفهم وجوده وحقيقته، وكذلك تحقق يقينه بالتفكير واستخدام العقل فيقول: "ختم تعالى هذه السورة بالأمر بالنظر والاستدراك في آياته، إذ لا تصدر إلا عن حيّ قيّوم وقدّوس سلام غني عن العالمين، حتى يكون إيمانهم مستنداً إلى اليقين لا إلى التقليد " لآياتٍ لأولي الألباب"، الذين يستعملون عقولهم في تأمل

¹ فريال حسن خليفة، النقد ومستقبل الثقافة العربية، دار رؤية القاهرة، ط1. 2013، ص132.

² المرجع نفسه، ص نفسها.

³ محمد بن أحمد القرطبي الإمام. الجامع لأحكام القرآن. تحقيق عبد الله التركي. مؤسسة الرسالة. ج4، ط1 2006. تغير سورة آل عمران.

الدلائل. وروي عن عائشة أنها قالت: لما نزلت هذه الآية على النبي، قام يصلي، فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة، فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال(ص): "يا بلال، أفلا أكون عبداً شكوراً — ولقد أنزل الله عليّ الليلة آية: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ؛ وَيَلْمن قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا"¹. والآيتان: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)" آل عمران: 190 و191؛ أصحاب العقل يتصعدون في المعرفة بفضيلة التدبر وعبادة التأمل، التدبر هذا الزمن المستقطع الواصل بين الأومنة المتخالفة الأرضية والسمائية حتى لا يعود البشري حيوانا ناطقا، يعيش في قطيع يأكل وينام ويموت. أصحاب العقل الذين يتفضلون بالذكر والتذكر، وبتفكيرهم، وعودتهم إلى وقود المعرفة الكلية. والوصول إلى مرحلة الرؤيا واليقين. " رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا.. " آل عمران الآية 191.

أم أن أناسة الإنسان هي بفعالها وكونه وكيونته كائنا يحقق فاعليته فيما حوله، أو كما يقول مارلوبوتتي حول وجودية الإنسان " قد دخلنا الكوني بفضل ما نملك من ميزة لأن كل إنسان هو إنسان بصفته كونيا فريدا"²؛ إذن الإنسان هو إنسان بفضل ما يملك من خصيصة التميز والتفرد، فهذا الجنس البشري لا يعترف بنظام القطيع لأن كل عنصر فيه هو حالة كونية فريدة. والمجتمعات الخلقية التي تعيش معه، تعتمل حياتها على الأرض، تتعامل وفق نظم معيشية لم تتطور، إلا بفعل تأثير الطبيعة، لكنه خلقة مختلفة، ينتصب جسده الحيواني إلى السماء، على خلاف الخلق الآخر. فالإنسان هو الكائن الوحيد المنتصب، فالمعرفة عنده

¹ _ الامام محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ج4، ط1 2006، ص310.

² _ الفلسفة الغربية المعاصرة، مجموعة من المؤلفين العرب، الاختلاف، ضفاف، الجزائر لبنان، ط، ص843.

هي وسيط وتطلع بين الأرض المبسوطة له ولغيره، وبين الكون/ وفي خلقته يتحقق هذا التواصل بين الأرضي والسمائي، كل الكائنات بإمكانها العيش والغذاء والحركة بشكل أفقي يتوازى مع الأرض ويظهر فيه البعد الواحد، همزة الوصل بين الأدنى والأعلى ويظهر أن له الخيار في ذلك، بإمكانه الارتقاء كما بيده الضعة والانحطاط والدونية الحيوانية إذ لا ينفعه انتصابه إلا في اختلاف نوع حيوانيته حينها؛ فهي حيوانية زائدة، وهو ذاته الإنسان الذي تحدثه عنه أول القصص في الخطاب القرآني (الآيات 29_37) من سورة البقرة¹: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (29) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (36) فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38))². يذكر الله عز وجل قصة الخلق، ولكن قبل سبق في سياق الحديث عن هذا إلى التعرّيج على الحالة التي سيعالجها في قصة الخلق

¹ - السورة رقم 2 في المصحف، 91 حسب ترتيب النزول المصدر فهم القرآن الحكيم لمحمد عابد الجابري.

² - البقرة: وتسمى سفاسط القرى ناو الغياتان هي وآل عمران وهي أطول نص في القرين الكريم.

ولماذا؟ لماذا خلق الانسان؟ وبماذا تميز الانسان؟ فتحدث قبلها عن فعل الإنزال: "الذين يؤمنون بما أنزل عليك واما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون". البقرة الآية 4. وتحدث عن مرض القلوب، (الآية 8 و9) وتحدث عن الكبر: (أنومن كما آمن السفهاء) الآية 13. ثم عن ضعف كل الخلائق: الآية 20. يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم" الآية 21، الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء. (فحتى خطيئة الإزال تصير فضيلة يبني عليها الجزاء في الارتفاع إلى الجنة، وهي جزء مطلوب لتكملة القصة) ثم: وأنزل من السماء ماء (فضائل الإنزال) (وهو فعل مركزي في النص على أغلبه الذي كان حتميا) ثم: وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا....اليقين بالانزال. ثم قوله: الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.... جزاء الخطيئة والخطيئة المتجددة. التي تعلن عن معرفة يقينية وثوقية رافضة ومنكرة؛ تتمثل في المخلوق الذي رأى فأنكر.

ويفسدون في الأرض/ البقرة الآية 27. (جاء على ذكر الإفساد الذي ستذكره الملائكة لاحقا كذريعة لمنع الجعل والخلق، وقد سبقه الله في خطابه قبل حديث قصة الخلق)، ثم أظهر حقيقة الخلق التي هي العدم (وَكُنْتُمْ أََمْوَآءًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ...) الآية 28 البقرة.

ثم جاء إلى ذكر الأرض والسماء وتسويتيهما لتحقيق الوظيفة التي خلقا من أجلها، والتي سيذكرها في آيات قصة الخلق: (وَالَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مآ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة الآية 29) وهنا تذكر مفردة العلم لأول مرة قبل اطرادها وتكرارها في آيات قصة الخلق. فعملية الخلق للارض التي سبقت خلق السماء ثم السماوات وتسويتهن، تثبت الوظيفة التي خلقت من أجلها الارض قبل الإنزال (إنزال آدم) / الإنزال هنا عملية عامودية على الأرض الأفقية. او عقوبة الهبوط من الجنة (وسبقت الآية آيات خلق الإنسان في الترتيب). وأنها كانت ميسرة منذ البدء لهذه الوظيفة ولهذا يستكمل الخطاب بقوله" وهو بكل شيء عليم" الآية 29.

وفي الآيات العشر السابغات: (من 29 حتى 38 من سور البقرة) تكرر فعل علم ومشتقاته تسع مرات؛ (عليم أعلم تعلمون علم علم علمنا العليم أعلم اعلم)، والعليم العالم بالخفي، ومادام علم الخفي فأسهل منه علمه بالخفي. وقدم في آيات الخلق الحكمة على العلم، إنه هو الحكيم العليم. والحكمة تسبق العلم في تحقيقها الدال على المعرفة والتفكير. مقابل فعل القول ومشتقاته: أحدا عشرة مرة: (قال قالوا قال فقال قالوا قال قال أقل قلنا قلنا قلنا قلنا، وإذا اعتبرنا تلقى _أي تلقى قولاً_ محيلة على القول فهي الثالثة عشر)، فيبدو أن مدار الخلق وقصته هي بين هذه الثنائية، وأن ما ميز به الانسان وأنشأت لأجله الأرض والسماء هو هذا الجدل القائم بين الثلاثية: فعل الوجود (الإنسان) واللغة (القول) والفكر (العلم). وأن درجة التفاوت بين المخلوقات قائمة على قدرة التفكير باللغة، والتغيير بواسطتها، وإحداثه الجديد في حياته، واختلاقه او اختراعه، إذ " الإنسان يتميز عن الحيوان بكونه يلجم نفسه؛ فيكبح شهواته ولا يحقق رغباته دون وسيط، فاللغة والعمل والآخر هي وسائط لا يمكن للفرد أن يحقق وجوده بدونها، وهكذا ينطوي الانسان على (نقيضه) ويحمل في ذاته مبدأ تجاوزه لنفسه كما يعبر هيجل¹.

وهذا ما تميزت به البشرية عن الملائكة "فهي: البشرية/ المخلوق الذي يخطئ ويصيب" تميزت عن المخلوق الذي لا يخطئ الملائكة ما جعلها تسجد لتفوقه وإصابته المعرفة: (ذكر الأسماء وعلمها)؛ فقد أثبت الله من خلال النص وخطابه للملائكة، حجم النقص الذي تملكه المخلوقات اتجاهه وإن كانت الملائكة (المخلوق الذي يملك عقلاً بلا خطأ، ويقينا بالرؤية ورؤيا تتكى على مرجعية وتجربة) قصة إبليس وفساد الجن وسفكهم الدماء بناء على عقلهم تجربة سابقة في الخلق)، وحين كان اعتراضهم (أتخلق فيها من يفسد فيها ويفسد الدماء) كان علمهم قاصراً وتفكيرهم مقتصرًا على التجربة الظاهرة التي رأوها سابقاً، وكان الرد/ الخطاب الإلهي مقتصرًا على توضيح متسع المعرفة الذي يملك ليخلق هذا

¹ _ علي حرب، التأويل والحقيقة، ص 129.

الخلق الجديد (وهي معرفة لا تحدثها التجربة فقط)، (إني أعلم/ ما لا تعلمون)، وكانت إجابته في وجود البشري هي تفوقه في التفكير وطريقة الربط بين الأشياء، فهو مخلوق يعلم ويخطئ (قراره بتجريب التمتع بقدرته الفردية على التسيير وأكله من الشجر — ما يحيل على إرادة إنسانية خالصة، بعد المنع (التسيير)، وحتى فعل الخطيئة الذي وقع فيه الزوجان، كان فعلا ناتجا عن التفرد والتميز بالتفكير، فعل يدل على حرية هذا الإنسان في الخيار، فالخالق سن له قوانين، يهتدي إليها (كزوج وشريك / فعل المشاركة في الخطيئة) بين الزوجين/ فأزلهما، ثم الهبوط) ويفرق بين الصالح والطالح بما منحه خلافا عن غيره من الخلائق. ثم ان هذا المخلوق كانت ولا تزال وظيفته مربوطة بوصله بين جنتيه الأرض (منفاه/ أو مستقره حتى حين)، والسماء (جنته المفقودة والموعود بها إلى حين)، من خلال الثنائية التي يملكها ولا يملكها غيره. ثم محاولة تصحيحه خطأه، وعدم الإصرار عليه باللغة والعلم الذي ملكه وإرادة الحرية وتخير القرارات. والإنسان بهذه الصورة هو وصل بين السفلي والعلي فهو يتأجج بين صورته المثلى التي كان عليها، وبين خطيئة يكررها في نسله، ويظل التغيير حاصلًا مادام الإنسان يفكر، وبعد أن انتهى الوحي وانقطع السماوي بالأرضي، لأن الوحي والرسالة طاقة تواصلية ظلت تعكس علاقة الانسان المنتصب الى أعلى. " هناك سمة تواصلية في لغة الوحي أو النص الديني، تعكس علاقة الإنسان بالله (وبالعكس) وتجعل نصا معينًا نصًا دينيًا"¹، ثم فإن حقيقة الرسالة المقدسة تكمن في ما يدور داخل الذات. فليست صفة القداسة وحدها من يعطي هذا النص قيمته، لأنها بحد ذاتها صفة مؤجلة تطلق بعد عدد من المبررات التي تسمح لنص أن يكون مقدسا، من بينها هذه العلاقة التي تجمع بين المؤله والعبد، (فليس كل نص نص دينيا ولو جعل كذلك في مرتبة الإجماع والاعتبار، إلا إذا جاء في سياق التعبير عن تجربة العلاقة مع الله نفسه. كما أن العبرة ليست فقط في طبيعة التعبير أو تقنية الصياغة الحاصلة في النص، بل في الواقع ————— التواصلية

¹ - وجيه قانصوه، النص الديني في الإسلام، ص 283.

القائم بين الله والإنسان والذي يمر عبر وسائط متعددة، كالملاك جبريل والنبي والحواريين وغيرهم.. في وصول كلام الله إلى البشر)¹.

وما ما تحيل عليه الأفعال: (القول والعلم) ومشتقاتها ففيها مستويات فالقول والعلم صدر عن: الأعلى فالأدنى، اللهم كانت الملائكة تعلم قبل الإنسان، ثم ظهر العجز والتوبة لعدم العلم بالتراتب من طرف الملائكة ثم آدم، ثم بنو الإنسان تبعاً له. وتتواتر الآيات التي تحمل ابن آدم على المعرفة والعلم (التفكر والتأمل والتدبر في الخلق)، لأنها الخصلة الوحيدة التي فرق فيها بينه وبين الخلائق، وهي وحدها طريق الوصول إلى اليقينية الخالصة. قال سبحانه: (أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ) [الأعراف: 185].

(أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى) [الروم: 8]. وجعل محل المعرفة القلب العاقل، ولاستيعاب الإنسان للعلوم وتعلمها وتعليمها، أودع فيه الله - تعالى - بعض مفاتيح المعرفة (التفكر، النظر، العقل، البصر، القلب، اللب...)، التي هي خصائص ومراتب لا تؤتى كل متعلم أو عالم. هذا القلب الذي تتأسس معرفته وعرفانيته، من محطة الوصول إلى المعرفة الأخيرة، الحقيقة واليقين، حيث يتجلى فيها المخفي وتكشف فيها اللا معلوم ويرى فيها الخفي واللا ظاهر، " أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا " [الحج: 46]. فالقلب العاقل، هو الفارق بين إنسي وإنسي؛ إذن ليس كل إنسي هو عاقل. مرحلة من القرب لا يرقى إليها إلا المخلصون، ابتعاد عن المادي، واقترب من اليقيني وحلول فيه. "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" [آل عمران الآية 7].

¹ - وجيه قانصوه، مرجع سابق، ص نفسها.

فهذه المفاتيح المعرفية تَسْمُو بالإنسان إلى الطاعة والخضوع لله تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" [فاطر: 28]، وتُجَرِّدُه عن التَّبَعِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ والتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى. في قصة الخلق منح ابن آدم المعرفة ومزية اللغة، واشترط عليه ثمنها لها إتباع الأمر، والنهي عن المنهي، اشترط عليه بصورة ما التواضع والضعفة، لأن خلقه جاء كرد فعل عن الكبر وقد كان إبليس فيما ترويه التفاسير عالماً أودى به الكبر. فلا يتفق علم مع كبر، ولولا ذلك لمنحت مزية ابن آدم لابليس وبنيه، فقد هدم الكبر قيمة هذا المخلوق ومرتبته عند خالقه، ولعله الحاصل، فكلمنا اتفق للناس التدرج في مقامات المعرفة فتحت له المغاليق في المعرفة الإلهية، فاكتشف انه اقل معرفة مما يعرف، فحدثت له الخشية والتواضع. "إنما يخشى الله من عباده العلماء" فاطر 28.

وَالنَّظْرُ وَالتَّفَكُّرُ وَالتَّعَقُّلُ، والاسْتِدْلَالُ بِالْأَدْلَةِ الَّتِي نَصَبَهَا اللَّهُ لِمَعْرِفَتِهِ مِنْ أَوْجِبِ الواجبات بعد الإيمان الفطري الجبلي بالله تعالى، وإلى هذا ذهب البخاري - رحمه الله - حيث بَوَّبَ في كتابه (باب العلم قبل القول والعمل لقول الله عزَّ وجلَّ: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) محمد 19. ذلك ان العلم رهين بمحطات للتصديق، ومراحل الوصول إلى اليقينية والوثوقية العالمية. وهي مراحل يحدث معها الخطأ والزلل والشك والجدل من أجل البلوغ والتسليم فـ" ليس الإنسان معطى مباشراً، إنما هو تعارض وقلق ومغايرة"¹.

وقد جاء الخطاب القرآني على ذكر الإنسان في نصه خمسا وستين مرة _65 مرة_، وضح النص في أغلبها ضعف الإنسان ووهنه وحاجته ونقصه. ولعله الكائن الوحيد الذي كان جدل القرآن قائماً عليه؛ "وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا" [الكهف 54]. هذا المخلوق الذي تذكر النصوص خلق السماء والأرض لأجله، هو المخلوق ذاته الذي تنازعت فيه الملائكة وإبليس مع الله، خالقه، اذ استنكرت الملائكة/التي تمثل طرف المعرفة اليقينية الثبوتية والخير؛ خلقه حسب الخطاب القرآني

¹ _ م نفسه ص نفسها.

(أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) مستتبطة ذلك من أحداث الخلق الأسبق، صورة نمطية مسبقة عن الخلق والفساد، أما الشيطان فرفضه كطرف يمثل المعارضة والندية/ الشر. لمقارنة في نفسه، بين خلقه ومادته واعتقاد تفوقه على هذا المخلوق. (خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ).

والإنسان هو المخلوق الذي هيء منذ أو قبل الخلق للهبوط إلى الأرض، ثم صار المخلوق الواصل بين الأرض والسماء وتلك وظيفته الأولى، حتى في خلقته والتي كانت محل مقارنة في جدل إبليس ومحاجته مع الله، هي خلقة مختلفة. مخلوق منتصب إلى أعلى. (وفي انتصاب الإنسان ورسمه وخلقته دلالة على ذلك/ الوصل بين العالمين كما فصلنا فيما سبق في الفرق المبدئي بينه وبين الخلائق ما يظهر من خلال تشكيلة جسده وظيفته الحقيقية). والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي اتفقت الأديان انه يقتل صنفه ويحاربه، إنه عدو نفسه، ومنذ حادثة الجريمة الأولى/ القتل، والإنسان ابن القتل أو ابن الجريمة الأولى؛ هكذا تقول الحقيقة المرة، وتقول الكتب والعقائد؛ وتظهر المخطوطات الهندية في القرن الأول قبل الميلاد أن:

النفس تمجد نفسها

ولا تعتقد أنها دنيئة

والنفس أيضا هي العدو الوحيدة لنفسها،

لهذا فهي تكبح نفسها بنفسها،

وكذلك تصادق نفسها، وما إلى ذلك

وحينما تضل فهي تقهر نفسها،

الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) 1 الأنعام.

ومفهوم الهداية هنا ارتبط بالتعدي الوظيفي للحواس، حيث لا تعود الحواس تكفي غير أنها تقود إليها. فالمعرفة الحاسوبية معرفة أولية مطلوبة للتدرج في الوعي بالعالم _، فبعد أن أدرك إبراهيم/ الإنسان العالم بحواسه (الرؤية) والتي لم تعد تسعه أو تنفعه في إيجاد المعرفة الحقة، بعد أن أدرك أن المعرفة الأفقية خاطئة، وهي التي توسمت بالحواس وأغلقت على العقل، ارتجى معرفة جديدة توصل بها لإدراك ما لا يدرك إلا بتجاوز المألوف. حيث الجهد الشخصي والمكابدة المعرفية باستخدام العقل، (رأى كوكبا.. هذا ربي.. هذا اكبر، فلما رأى القمر بازغا) فمكانة النجم العلية_ إذ بالنسبة إليه لا يمكن لكائن أرضي أن يكون إليها مادام هنالك ما هو في أعلى وفي العلية تسيد وتآله بالنسبة لكائن أفقي_، ومكانة الإله الاستعلاء_، فالرؤية (الحسية) للبرزوخ والالتماس النور والضوء واختلاف الكائن في نورانيته وتبديده للظلمة هو ما سمح لإبراهيم البشري بتقديسها بادتًا، كحالة من الدهشة التي يثيرها له ما يمكن للعين أن تراه، هذا أولاً وإلى هنا يبقى فعل الحواس معملاً عمله، ليتدخل العقل الإبراهيمي البشري بالبحث في نفعية الإله بالعقل: (بازغا، هذا أكبر..)، بعد التماسه بالحواس، (فلما رأى..)، ليتحول مفهوم الرؤية من الدلالة المادية التي تقوم على المشاهدة

1_ الأنعام 74_83.

إلى الدلالة القلبية، حيث لا تفي الحواس وحدها شغف العارف بالسؤال. لتتحول إلى المعرفة القلبية.

وفعل رأى على تعدده في النص القرآني يتدرج من المعرفة الحسية إلى التفكير والتدبر فالرؤيا القلبية؛ وكذلك مفهوم الرؤية في الحديث عن يوسف؛ "إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ" يوسف آية 4. ثم تحوّلت هذه الرؤية إلى تأويل للرؤيا.

وتكرر فعل الرؤية وجذرها في سورة يوسف في قوله: " يَا بَنِيَّ لَا تَفْضُضْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ. وفي قوله تعالى: إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا. وفي قوله: إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ... وفي قوله إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ وَاخِيْرَا قَوْلِهِ: يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا.. الآيات: سورة يوسف. فالرؤية التي كانت مشاهدة ثم غيبا أو مناما صارت حقيقة وتأويلا. وهي أيضا صورة لكل تجربة حياة. تبدأ من المعاناة الحسية إلى الفهم والصبر في الجب والبيت والمحاصرة في البيت والسجن، وهي رموز لكل معيق. لم تحدث فيها الرؤيا لكن بدأ في فترة المكابدة هذه تأويل الرؤيا، والعبور فوق تغلقها وتمنعها عن الوضوح. حتى الجواز الى الرؤيا بالتأويل للوصول إلى الحقيقة الغائبة.

" وقد حدث القرآن على اتساع الأفق واعتبره عونا على قبول العلويات"¹. إذ يرى الباحث ما لا يراه سواه، فيوصله إيمانه ويقينه إلى حقيقة الكون فيتجليه الأعلى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تَأْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...) (البقرة 260). تعدى إبراهيم الرؤيا الإنسانية، ليطلب العلاقة بين الغيبي والمشهود. فصيل من الرؤيا المدعومة بالحجة، تكرر فعل الرؤيا في الآيات المتعلقة بمحاججة ابراهيم خمس مرات، اختلف فيها

¹ - مصطفى ناصف، مسرولية التأويل، ص 193،

مفهوم الرؤيا، والانتقال من مدلول الرؤية البصرية إلى المعاينة والتفكير العقلي، بلوغا إلى مرحلة اليقين والعرفان الروحي نقضا لكل متغير ورفضاً لكل ناقص.

وقد جاء في الحديث: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس "أفهي مدخل إلى كل الشهوات، والشهوة قوة دافعة كما يقول العلماء إن لم تروض أهلكت. وإن دربت عرفت وأيقنت.

3_ ترويض الحواس:

من الرؤية إلى الرؤيا:

تشير الاتجاهات التجريبية والمادية إلى أنه ليس هنالك معرفة دون الجواز على الحواس، وإن المعرفة لا تتم إلا بما نراه ونسمعه ونلمسه ليستطيع العقل ان يستوعبه. أمّا حينما تدرك الحواس فترتقي بما تدركه وتطوعه من شك للوصول إلى اليقينية والتسليم، فتسلم الكائنات للعبد حينها؛ حيث تكون نقطة التساوي ثم العبور من المادي إلى الروحي.

انطلقنا في الفصل الأول من مسلمة أن معرفة الحقيقة تبدأ بالتدرج من المحسوس إلى المجرد، لكن الحواس تعقل، وترى ما خلف الجدر وما بعد جغرافيا الزمن والمكان. فـ"الحواس طريق إلى القلب. والقلب هو الخزانة السرية التي يتم فيها الإمتحان"²، " (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي...) " البقرة الآية 260. لقد طمع إبراهيم في الرؤية التي تحقق له اليقين، أو تثبته. فالاطمئنان معرفة أخرى توثق بالحواس. وطلب الرؤية هنا هو طلب رؤيا توثيق وتسليم. فإذا علمت الحواس تجاوزت الرؤية وكثر شكها وزادت أسئلتها حتى تصل إلى اليقين؛ المعرفة بالمحاورة والمعاينة. فـ" إذا طمعت

¹ _ سعيد غانمي، الكنز والتأويل، قراءات في الحكاية العربية، العربية للعلوم_ لبنان، الاختلاف _ الجزائر، ط1. 2010، ص 73.

² _ سعيد غانمي، كنز التأويل، ص 72.

الحواس بالعالم، انفتح القلب. وإذا لم تطمع، بقيت أسرار الزاهد مكنونة حتى يجد قلبه بين يدي علام الغيوب"¹، وهنا تسمح الرؤية الحسية بالكشف الأول، تسمح بالمحاورة ثم تبيح الشك والمناظرة، إنها معرفة تقود إلى معرفة أقوى وأكثر رسوخاً؛ فـ "كيف تصل الأشياء إلى القلب؟ هناك حاستان مرشحتان لإيصال الأشياء إلى القلب؛ السمع والبصر"². وقد تأكد انهما ليستا فضيلتان لربط الانسان بالعالم من خلال الرؤية فقط، إنما لتحقق اليقينية والوثوق بالرؤيا.

ومفهوم الرؤيا مفهوم لا قبل لمن لا يفكر بقلبه به، لأنه يؤجل ما لا قبل له برؤيته، ليحصل على ما لا يحصل برؤيته. فإن بعض الرؤية يوقع في العمى:

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نُوَلِّا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا (21) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا (22) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24) وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا 28 لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الفرقان.

¹ م نفسه ص 72،

² سعيد غانمي، الكنز والتاويل، ص72.

إن طلبهم الرؤية (رؤية الله والملائكة) هو طلب مكابرة وعناد (ممن لا يرجون لقاءنا)، عدم اليقينية أوجب رؤية المشاهدة. لأنهم لو بلغوه لطلبوا ما هو أكبر وهكذا العتو.. كما حصل مع بني اسرائيل والبقرة، رؤية لا تقود إلى اليقين بل لدحض اليقين وترسيخ الكبر، وتاماً كما رأى إبليس ربه وعصى. ورأى ما لا يراه غيره، عرف اليقين وأنكره. الرؤية ليست دائماً مدخلا ومفتاحاً لليقين، " وينقل الغزالي عن الفضيل قوله: يقول إبليس: النظر هو قوسي القديمة، وسهمي الذي لا أخطئ به"¹. ولا السمع ولا الإحساس، لقد عرف أبو طالب وأحس وجاهد مع محمد كرحم، لكنه أبى ان يسمع ويحس عرفانا ويقينا. في حين فتح السماع بالمصادفة باب العقل عند عمر الكافر مرة ومرة ومرة..، فاستحال استماعاً، وإصخاءاً ثم تحرك إليه ومشى حيث هو، مستسلماً بجسده وعقله، ليدرك معرفة أجدر بإصغائه، ثم ينصته فينتقل إلى درجة العلم باليقين. حتى قيل "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه" رواه الترمذي. فالسمع طريق أوصلت عمراً إلى قلبه. فـ "الأذن كالعين، طريق تضيء إلى القلب"²، وتتعلق الأنفس بالأسماع أكثر مما تتعلق بما ترى، فقد قيل ليس الخبر كالمعاينة، وتسمع عن المعيديخير من أن تراه. "وقد شبه الغزالي القلوب بالخزائن، والأسماع بمفاتيح الخزائن"³، فإذا كان النظر امتلاء المرء بالفضاء، فإن السماع ولوج العالم الى داخل الروح وتحريك للقلوب، " ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9)".

إنهما حاستان تتحولان من أدائهما لوظيفتهما الحسية، فتتصعدان إلى وظيفة قلبية باطنية فحين يربط الخطاب بين السمع والبصر والفؤاد فإنه في موقع ذكر حواس لا يملكها كل الناس، تقضي إلى الدواخل لا إلى المحسوسات، وسبق في ذلك السمع على مجموع

¹ _ سعيد غانمي، الكنز والتأويل، عن إحياء علوم الدين ج3، ص103.

² _ سعيد غانمي، الكنز والتأويل، ص75.

³ _ سعيد غانمي، الكنز والتأويل، ص75.

الأبصار؛ إذ "القلوب والسرائر خزائن الأسرار، ومعادن الجواهر، ولا منفذ إلى القلوب إلا من دهليز الأسماع، فالسمع للقلب محك صادق، ومعيار ناطق"¹. يقول صلى الله عليه وسلم في تفسير سورة المدثر: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً... فأتيت خديجة فقلت دثروني.. وفي موضع آخر فبينما أنا أمضي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض..²، لقد اعتمد التواصل الأول بين محمد البشري والملك الموكل بالتواصل معه وتوصيل المعرفة، على السمع والرؤية، لقد سمع ورأى، لتحدث دهشة المعرفة الجديدة التشتت والضياع بهذين ومن خلال هذين الحاستين البشريتين، أو كحاستين بشريتين، ليتحوّل بعد المعاودة في الحفر عميقاً بالقلب إلى حاستي بشر غير عادي.

ويسبق السمع الرؤية، فالسمع يلف ويحيط بالمكان. ويسبق إلى الأذهان. الخطاب الذي حمله جبريل كان يتطلب إدراكاً بالحاسة لأنه نزل شفاهة. يُطرح إشكال هنا، لماذا نزل النص شفاهة؟ لقد كانت العرب تحصل على معارفها سماعاً. ذلك أن: "أفضلية السماع تستجيب لآليات الثقافة الأمية أيضاً، لأن الأذن تشكل بؤرة حسية أساسية في الثقافة الشفوية التي تؤثر المسموع وتفضله على المرئي والمكتوب. فالمنقول شفاهة أكثر ضماناً ومدعاة للإطمئنان والموثوقية من المنقول كتابة بغير مشافهة"³؛ ينال هذه الموثوقية من عدم القبض عليه، وغيابه وعدم رؤيته ولا معاينته فما تراه العين، ينزل تقديسه وتقل قيمته، يأكل الطعام

¹ _ سعيد غانمي، الكنز والتأويل، ص75، ينظر احياء علوم الدين، ج2، ص268.

² _ ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة المدثر.

³ _ سعيد غانمي، مرجع سابق، ص76.

ويمشي في الأسواق؟؟ إضافة هنا للتعبير عن أن ليست الثقافة الأمية فقط من تحض على السماع إنما أيضا التي كسبت المعرفة اليقين بالإحساس بالغييب كأنه حاصل ومرئي.

ومع ذلك؛ يكتسب السمع أيضا قيمته من حلوله في المكان وفي كل اتجاه، والإحساس به يضع المستمع في قلب هذا العالم المغدق عليه بالصوت من كل اتجاه " يقول دارسو الشفاهية بأن النظر يباعد، والصوت يخالط، فحيث يضع البصر المراقب خارج ما يراقبه، وعلى مسافة منه، ينهمر الصوت على صاحبه، الرؤية تحلل ما تراه، كما يقول ميرلوبونتي، فهي تأتي للإنسان من اتجاه واحد، وفي وقت واحد، ولكي أرى غرفة أو منظرا، فإنني أسمع الصوت وفي وقت واحد من كل اتجاه. فأنا في قلب العالم السمعي الذي يغلفني موطدا إياي في جوهر الإحساس والوجود"¹. حيث تعقل الحواس وتصير أداة لتوثيق اليقين، وحيث تكون قنوات إلى القلب المفكر، لقد سمع الوليد بن المغيرة الخطاب القرآني، وكان خير من يعرف الخطاب ويميزه في العرب قاطبة، أكان شعرا أو كلام كهانة أو خطابة أو غيرها..؛ لقد أدركت حواسه الخطاب وقد سمعه، وفهمه وعقله لكنه لم يجاوز حواسه. فلم يوقن ولم يعرف ولم ير؟

" وجوهر الإيمان بالتنزيل فيما يقول الدكتور محمد كامل حسين: أن هناك نفوسا نقية ترى الغيب رأي العين وتسمعه كما تسمع الأذن، ويتحول الإحساس النفسي الى محسوسات تتأثر بها نفوس أكثر الناس"² [المعرفة/ اليقين عند الخضر عليه السلام وقد سميت علما فيسورة الكهف]. غير أن هنالك من تعمى حواسه فيضل قلبه (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) [الكهف 57].

¹ _ سعيد غانم، الكنز والتأويل، ص76.

² _ مصطفى ناصف مسؤولية التأويل، ص 194.

وهنا يحيلنا الخطاب إلى مفهوم (القلب المفكر). "لقد نادى القرآن بني الإنسان [يا أيها الناس.. يا أيها الذين آمنوا...] دون جدر ولا موانع، بين السمائي والأرضي؛ فيما تصبح الحواس المجسدة مجرد قنوات إضافية تتجاوزها الحواس القلبية" لماذا ننكر قدرة النفس على التواصل بالغيب¹ وفكرة النبوة تقوم على هذا الصفاء والنقاء والطهر لتحقيق الوصل بين الأرض والسماء وفي العالم. والإنسان هو المخلوق الوحيد في صورة انتصاب على أقدامه في حين يعلو رأسه جسده ولا يكون أفقياً عليه. هذه الرسم الإلهي هو وصل بين الأفقي والسموي. بين المعرفة الدنيا والأعلى.

والمعرفة والعلم في القرآن تكشف رسالة الله، الكون رسالة، والكتاب المنزل رسالة. والحياة الدنيا رسالة. والتنزيل رسالة، وكلمة رسالة نفسها هي كلمة الوصل، والوصل يحتاج إلى عطاء الإنسان نفسه لله. أنت تعطي نفسك أو تسلم نفسك لله فتتلقى رسالة. الرسالة أخذ وعطاء. والعلم إذن؛ عطاء الإنسان نفسه وإسلامه تلقينه². لقد سأل موسى ربه عن اقتناع بما يملكه من علم، ودرجة علمه، فألقى إليه (هناك من هو أعلم منك)؟ وكان مطلوباً من موسى أن يرى رأي المشهود، ما كان غيباً والتمسه الخضر قبله، لكن كانت أولى بوادر التعلم هي الصحبة والمتابعة، والاتباع طوعية، يطلب العلم الطوعية والإذعان، وثانيها المشاهدة، والتي لم تكن كافية لبلوغ العلم الغيبي. إذ العلم مطلوب فيه السؤال والشك: (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ نِكْرًا (70)...) (66_70 الكهف). فكان من موسى المشاهدة دون حجة، وكان الخضر يرى ما لا يراه موسى يرى اليقين بغير حاجة إلى حجة. هذا الفرق في العلم، بين من يرى

¹ مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص نفسها.

² م نفسه ص ن.

ومن لا يرى. ليتعلم درس أن ليس كل المرئي على حقيقته الظاهرة. والنبوة معرفة تعتمد على تجاوز مرحلة الشك بالحواس: صبر ومكابدة. والمعرفة جهد ورؤيا. كان محمد إنسانا، حتى تلقى ما لا يرى أو يطاق بالسمع، يتناوله بالحواس ليتجاوز الحواس.. ثم أطاقها صبورا ومكابدة ليصير نبيا.

لا يصبر الإنسان عما لا يعرفه، ويطمئن الى ما أخبر به فعرفه. فقد حاز الخضر درجة من المعرفة لم يحزها موسى معرفة تقتنى بالصبر والمكابدة، فكان أعلم منه، (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي..)، فقد حقق الخضر المراد، للتغيير، وكلها أفعال تحدث دون ان نعرف أسبابها أحيانا إلا تهيئة من لدن خبير عليم، تحدث الموت، فنقول سنة الحياة، ويحدث الزل وتعتل الآلة فنقول كذلك، ويلبي حاجتنا من نجدهم عونا كزاد تخبئه الحياة، ... القدر أيضا مرحلة من مراحل المعرفة لكن الفكر الإنساني القاصر _ وإن كان في شكل النبوة_ إلا أنه لا يزال قاصرا، لم يتمكن من التوصل بها.

ويرافق الرجل وفتاه رجلا آخر لا يعرفه في البر والبحر، يقوم حسب معرفته (البشرية) بأفعال، وأقوال لا قبل له بتبريرها من خلال ما يسمعه ويراه ويلمسه ويعتقده، بل إنه وفقه يخطئ ويعصي ويخون رسالته، لكن الرجل يسمع ويرى ما لا يراه موسى والفتى معه، أي علم هذا الذي يتصل بقتل النفس، ويتوسل بالهدم والبناء، أي علم يقوم على الإحسان في غير أهله؟! كانت هذه أسئلة موسى لمن توسم فيه علما، زاحم الشك ما علمته الحواس وجانب اليقين، ليكون رجلا قاتلا وظالما وفق رؤيته، وفق سمعه وبصره البشريين، ولو أرسلناه ملكا رسولا لكان بشرا وفق ما يمكن للبشري أن يفهمه، إن ما نتوصل إليه اليوم من تفتح آفاق المعرفة بما يبهر، يشبه السحر لما يثيره من دهشة، لن يستطيع إنسان القرن الفائت فهمه ولا استيعابه، ولعل إنسان العشرية الفائتة لا يفهمه ولا يستوعبه...

إنها حقيقة المعرفة هذا الذي يكون غيبا فيتحقق، ولو انزاح من مكانه إلى ومن سابق عنه، لاعتبره الإنسان خرقا، تماما كأحجية موسى والخضر، إنها أمثلة المعرفة الرؤيا؛ تظل المعرفة غيبا حتى تتحقق. بصورة ما يقول الخطاب، يقول الخضر بتصرفاته المتجاوزة للسمع والبصر وفعل الحواس: يعيش الإنسان غيبه حتى يتحقق فيصبح زمنا ماضيا. علم النبي/ الخضر؛ هذا الوسيط الذي يمشي بين الناس كغيب وعلم، يغير ما سيحصل، لأنه شاهده في الغيب حاصلا، كواصل بين الغيبي والإنسي، إذ " العلم في القرآن ليس قوة وسيطرة، وامتلاك، وليس بطشا وغزوا، وانتهاكا. وليس تدخلا فجا. العلم خلافة الله وتواضع لله".¹. فبعد أن كان الخضر يدا لتحقيق ما لم يعرفه، نسب هذا لله. وسمى ما عمله عن علم علما، وأعاد موازين الأحداث، كأنه يرى الأحداث ونتائجها بعين الله ويغيرها بيد الله، ويمشي إليها بقدم الله. يرى ويعلم بما علمه الله، تسمى هذه الظاهرة الإلهية حديثا بظاهرة **ديجـافو**، أو **شاهد من قبل أو وهم سبق الرؤية** لكنه في الحقيقة ليس وهما إنها الحقيقة حيث تراها وتريد تغييرها لكن الاستطاعة بيد الواصل. هناك رؤيا لشريط الأحداث على قدر التربية الإلهية والعلم به. رغم كون النبي بشر.. مجرد بشري يقرأ ما لا يستطيع أن يقرأه غيره فيغير ويعيد بعث الأحداث والحياة.

وعلى هذا الأساس كانت النبوة تأويلا، ورؤيا لمستقبل أو حاصل أو يحصل بناء على نتائج ما حصل. لأنها إعادة ربط للعالمين، تأتي النبوة في شكل ذات بشرية تستوعب الخطاب العلوي وتقربه إلى الأفهام والأذهان، يخطئ البشري فتجيء الرسل بما يوجهه، ثم تقتضي الحكمة أن يبقى الصالحون وتتهي دابر المتكبرين والطغاة والأرباب والرأسماليين. ثم يعود الإنسان لينسى ويخطئ وتعود دورة أخرى لإعادة البرمجة وفق النموذج الإلهي، " العقل محتاج إلى الدوام إلى معاودة ما يعقله، وكأن الأشياء تنقلت من المعقولة باستمرار"².

¹ _ نفسه ص نفسها.

² _ نفسه ص نفسها.

ويحاول النبي البشري أن يكون نموذجاً عن الخطاب المرسل في تطبيقه على الأرض، فالنبوة وسيط يقرب بين مسافات النص ومسافات التلقي، وفهما للنص بالأفعال والطقوس.

فالنبوة فعل تأويل أولي للخطاب، تلق خاص ومسبق للنص قبل تلقيه العام ونشره، تلق مخصوص بالتأويل والفهم المقرونين بالنبيّ دون غيره من المؤولين، ومحاولة لتبسيط الرؤيا وفك الإلغازية؛ تلق جامع بين عالمين مختلفين، وتحقيق للوصل بين السماوي والأرض، ومحاولة لفهم وتحديد المقاصد، إذ تقع النبوة في مفترق طرق فاصل وجامع بين السماوي والأرضي، بين العالمين الغيب والمشاهدة، والنبي هو قرينة الفهم للعالمين، فالنبي هذا النص الظاهر هو توقيع للمشاهدة عن عالم مفترض هو مؤولّه؛ "التأويل في الواقع نافذة العقل العربي إلى الحقيقة وجسد انفتاحه الأقصى على الوجود. وكما كان العقل العربي أزهر كل تلك المدارس التي أزهرها في الشريعة بواسطة الاجتهاد، حسب تعبير محمد إقبال، كذلك فان العقل الفلسفي والصوتي على نحو خاص أبدع أروع الفتوحات الفكرية بواسطة التأويل فكانت التأويلات الحقة أكثر محاولات العقل العربي رحابة وعمقا وأصاله"¹.

والنبوة تحمّل لعبئ الفهم ولمهمة التوصيل والتبليغ لمعنى يريده الرسل، ووصلا بمعنى يريده النص، وآخر يرجحه المتلقي " هذه القصدية ليست قصدية الذات المتكلمة، وإنما هي قصدية الصور النصية"² فالنبوة رؤية قبلية للنص قبل أن يستقبله الإنسان العادي/ المتلقي العام. إنها الاقتران الأول للنص بالبشري، حيث يصير البشر/ النبي جزءاً من النص وعلامة لفهمه. ومفتاحاً لتأويله، فالنبي البشري حد من حدود التأويل. "والنص يقبل بطبيعته التأويل،

¹ _ على حرب التأويل والحقيقة، ص118.

² _ حميد لحداني وآخرون. تحولات الخطاب النقدي المعاصر. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، (أعمال المؤتمر النقدي الحادي عشر، جامعة اليرموك) 2006. ص 279.

والعقل ينزع بغريزته إلى النظر والتأول¹، النظر طريقة فهم للحياة والوجود إعمال للعقل بالتجربة، فمفهوم النظر يختلف عن معنى الدلالة النهائية، ففيه من معنى الاشتباه وعدم اليقينية، فيه معنى البحث للإبانة والتوضيح، "إن النظر عمل العقل، والتأويل هو نهجه لاستطلاع الموجودات"²، حيث كان من خصال النبوة البحث والنظر في الأشياء والموجودات، على مراحل وأزمنة. والنظر تحريك فكر ورؤية، (قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) يونس/ الآية 101. التأمل والفحص والتقليب والمساءلة تأويل. فعل نبوة ثم فعل يطلبه النص من كل بشري. فالنظر تأويل ومستويات، والتفكر إعادة وتجديد للحياة و"العقل لا يقبل بطبعه الخضوع والكف عن ممارسة نشاطه. بل هو ينزع إلى نبش الأسس أي نزع الطابع المؤسس. فالعقل المتفتح يمتنع أن يتحول الى مؤسسة أو نسق أو نظام، فهو يبحث دائما عن نوافذ يفتح من خلالها على الأشياء"³.

التفكر تأويل لا حدود له، لأن كل تأويل هو مظهر من مظاهر الحقيقة فالحقيقة هي صورة الحق، والحق يرى في كل صورة⁴؛ ومع كل الأزمنة المتعاقبة لم يحرم الحق الإنسان من المعرفة والتقرب، فكما رأى فيهم الإبتعاد قربهم بنص جديد ورؤيا محققة في نبوة منهم، يمثلهم ويشبههم ويوجههم ولأن الإنسان خلق ضعيفا، لا يمكنه فهم النبوة أو احتواؤها كرؤيا لا تشبه ما تعارف عليه البشري العادي لأنها لحظة التقاء الأرض بالسماء فـ"الرؤيا أو النبوة لا يمكن القبض عليها أو احتواؤها"⁵؛ لأن الفهم والتأويل يعني أولا أن الدلالة أغنى وأوسع من ان تحصر وتضبط، ويعني ثانيا النفاذ الى الباطن والعمق من خلال الظاهر

¹ _ علي حرب، الحقيقة والتأويل، ص 117.

² _ نفسه ص نفسها.

³ _ نفسه ص نفسها.

⁴ _ مصدر نفسه ص 118.

⁵ _ علي حرب، التأويل والحقيقة، ص 43.

السطحي، ويعني ثالثاً، استكشاف الأصل من جديد وعلى نحو جذري¹. ولهذا يختلف المؤمنون، من يعتقد جزماً ويقينا، ومن ينكر جزماً ويقينا، فلكل تأويله وحصره للرؤيا.

" وما اختلاف التأويلات وتباين المقالات فإنه دليل على غنى الثقافة وتتنوعها، فالوحي أرحب من أن تضبط دلالاته، والحق يتسع لكل الطرق"²، ذلك أن أي معالجة قرائية وتأويلية، قائمة على التفسير الذاتي أولاً، " لأنه إذا كان العمل الأدبي (النص) استجابة لتجربة المؤلف فعند القارئ التفسير استجابة لتجربة قراءته"³؛ ومن هنا جاءت التفسيرات محملة بحيثيات من التاريخ والحياة كما يقول هيدجر.

والتأويل الواحد يتحول إلى مذهب ومعتقد/ يخلق الحجاج والدفاع عن المغلق، وهذه هي خاصية العقل الأيديولوجي، الذي لا يرى الا وفقاً لدلالة مغلقة. فالدال الواحد إذ يضيف إلى دلالة واحدة، يتحول العقل معها الى منظومة مغلقة، ترفض التعدد والاختلاف والتمايز الذي هو أساس الانسجام. لا تنتج إلا مقدماتها. "يصبح التأويل فعل تعدد وتشتيت، ولكن مع التأكيد مجدداً أن الوحي يشكل فعل توحيد في دلالاته الأصلية"⁴. فالآفاق في الفهم التي يفتحها التأويل وجاء بها فهم الوحي، هي مدارج لفتوحات للعقل والروح بعدها؛ " لقد مثل الوحي من حيث الرؤيا الأصلية التي انطوى عليها والمنهاج الذي أتى به والمقاصد التي عينها، تغييراً جذرياً في الحياة العربية ومن ثم في الحياة الإسلامية على الصعد المعرفية والدلالية."⁵ ولنا في الثورة العقلية والعلمية والمعرفية والعرفانية التي تأسست على الوحي في الإسلام برهان وواقع، وعي تأسس على الوحي. " وهكذا كانت الشريعة الإسلامية عامل دمج

¹ _ المرجع السابق، ص نفسها.

² _ علي حرب المرجع السابق، ص 118.

³ _ اميرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، م ث ع، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2000، ص 46.

⁴ _ علي حرب، المرجع نفسه، ص نفسها.

⁵ _ نفسه ص نفسها.

وتوحيد من القبيلة أو الشعب، إلى الأمة، ومن اللهجات الكثيرة إلى اللغة الواحدة، ومن التاريخي إلى المتعالي".¹

لتكون ثورة ومنهاجا؛ وتغيرا زمنيا وجغرافيا حادثا ومستحدثا على طول الشريطين، واقعا ومتوقعا؛ ثورة فردية وجماعية، تنهل من الخطاب لتتحقق الذات ويترسخ الجمع.

¹ _ مرجع نفسه، ص نفسها.

الفصل الثالث:

النص_ الرّسول والآخـر

1_ الرسالة/ الوحي:

جغرافيا الغيب والحقيقة بين الأرض والسماء:

سمحت الرسالات السماوية (النصوص) بتوسيع جغرافيا الأرضي (المادي_المتناهي)، ووصلها بالسماوي (اللامرئي_ اللامتناهي اللامحدود) فتتشكل خطاطة من الجسد والرؤيا بإحداثيات بين المجهود والغيب، لتحقق امتدادا لا محدودا للإنسان الذي يعتقد بجسده المادي المحدود الاحداثيات، فيغيب الروحاني أو يتأجل، وبلوغ الجسد مراتب تتلاشى فيها المادية لتوصل بالمثالية من خلال اتباع المنهج ورؤيا الغيب المائل.

وقد ارتبط الخطاب القرآني أيما ارتباط بالنبوي/ البشري، إذ ظل الوحي يتنزل طوال فترة النبوة، لينقضي بانقضائها، والنبوي يتلقى النص كبشري، فيكون نقطة وصل وجزءا هاما من تأويل هذا الخطاب، فبنزول النص وتنزله، واستحضار النبي البشري له وتحمله وحمله له (ونحن نعرف ما يصيب النبي من حالة انفعال شديدة باستحضار الوسيط السماوي واجتماعه بالوسيط الأرضي)، هذا التلقي الأول/ والتواصل مع الفوقي يصير النبي فيها ذاتا حاضنة للنص، وبقدراته العادية كبشري يتم توصيله للخطاب وتبليغه وفق رؤيا النبي كإنسان للعالم؛ فالنبوة في القرآن هي رياضة بصيرة الإنسان، دونما اعتماد على روعة الخوارق، ودهشة الغيب المجهول¹. والنبوة أيضا جهد ومعاناة، وعلم النبوة: معرفة خالصة. لهذا يستطيع أن يكون كل بشري رسولا ونبيا، فالنبوة فهم خاص وخالص ومكابدة. وليست غيبا ودهشة وانتظارا للمجهول، لقد بدأ محمد بشريا، وظل كذلك ثلثي عمره الزمني (لأربعين سنة من عمره) شخصا بشريا عاديا. يعيش بين الناس ويتخصل بخصالهم، وسبقت بشريته زمنيا نبوته، "أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا

¹ _مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، ص 196.

كِتَابًا نَقَرُوهُ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا" الإسراء 93.¹ وفي النص تسبق صفة البشري على صفة الرسالة في النبي محمد، ولعل من أسباب إدراك النص وفهمه، هو توصيل الرسالة وتبليغها بفضل هذا البشري لا بصورة غيره، والله يرسل كلا على شاكلته، لأن الإنسان أفهم للإنسان، بل إنه يتضح أن جزءا كبيرا من فهم النص تكمن في خصوصية النبوة البشرية، " قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (الاسراء 95). لأن كلا أدري بخاصية جنسه، وأفهم لحاجاته وطبيعته. ونقاط الضعف في هذا البشري هي نفسها نقاط القوة في النبي _ الإنسان، حيث تجتمع هشاشة البشري، بقوة ورؤيا النبي، هذه الخصائص البشرية التي اعتمدها المغاير والمعارض ليجعل من شريته ضعفا فيكون هزوا في مجالسهم، وأحاديثهم، وهو ذاته ما نلاقه في الجاهلية الجديدة في واقع المسلمين اليوم، لعل الأزمنة تتغير لكن الأحوال تعاود نفسها، يلاقي مسلمو هذا الزمان ما يلاقونه من استضعاف، كدعاة وحملة ورسول للمنهج وهذا الكتاب، وكمثلين ذنبهم الاختلاف عن غيرهم في اختيار طريقهم ومذهبهم في المعرفة؛ " وَإِذَا رَأَوْكَ إِِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا " (الفرقان 41). ورغم ان هذا النبي البشري، الذي كان وسيطا لتوصيل أمانة عظيمة هي إصلاح الدين والدنيا، ومنهجا بشريا للاتجاه بالبشر المختلفين إلى ان يصبحوا فيما بعد إخوانا برابط الأخوة في الدين؛ قد طبع على حسن الصفات والخصال، عرف بالاتزان والتوازن في الأمور والتصرفات وعرف قبل النبوة بالتوازن في العلاقات بين الأهل والأصدقاء والمجتمع؛ إنسانا يتحقق فيه انسجامه كبشري مع جماعته ومجتمعه.

وفي لحظة وصل الزمنين الواقعي باليقيني، تتحرك فيه هشاشة البشري وخوفه في مواجهة واقع اقوى من طاقته، مطالب بالتغيير التأسيلي لذاته أولا (اقرأ)، مطالب بالتأمل في

¹ _ الإسراء، 93.

الكون والماحول، الخالق والمخلوق، منذ بداية الوصل، تأتي الرسالة في شكل فعل أمر صريح: اقرأ..

وحال الخروج من زمن المواجهة بين الزمنين والجغرافيتين، كان من المناسب للمقام أن يتعثر فهم المتلقي للخطاب وتتشتت قراءته للمقول: اقرأ..، ويظهر عجزه كبشري، يلتقي في زمن لا يتفق مع الفهم الحواسي؛ ما الذي يقرأه رجل بسيط متفرد جاء يتأمل في جبل محاط بصحراء، وحين يأتي الرد من مخلوق يتجاوز التعامل معه التعامل مع اللحظة المنطقية والواقعية، يأمره بأن يقرأ باسم ربه الذي خلق، فيقرن الموجود بالغيبي، والخلق الضعيف من علق بالخالق الأكرم، يعلمه بالقلم، هناك إذن خطاب لما يستقبل من الزمن تم تعليمه بالقلم والفعل علم مصدره العلم: اليقين، وإدراك الشيء بحقيقته. علم الطريق ما ينصب ليهتدى به. وعلم أيقن وخبر وثقف¹، وهومنتهى المطلوب في الخطاب.

هو أمر إذن أصعب من أن يدركه مفرد ويقدره متحنث معزول يبحث عن التغيير الذي يحصل بين نقطة بين الأرض والسماء (الجبل)، حتى تباغته لحظة الوصل، فيعود إلى واقعه ليطلب المشاركة والمعاونة من الأهل والخاصة؛ لأن فعل الاحتضان الأولي، هو معادل لفعل الاحتضان المابعدى، هذه المشاركة (مع أقرب الناس) تعيد التوازن العاطفي والروحي، والجسدي لهذه الشخصية التي طبعها التوازن والالتزان (التدبير والتزيميل) الذي ما هو في الحقيقة إلا طلب احتضان قوي من الجسد البشري الأقرب إلى الرسول البشري، وحين يقول لخديجة: لقد خشيت على نفسي، تقول: " كلا والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"²؛ وهي الخصال الإنسانية التي تجمع بين الخطاب والمطالب به وتحقيق الخطاب

¹ مادة علم المعاجم العربية الصحاح والوسيط والقاموس المحيط.

² عمر رضا كحالة، المرأة في عالمي العرب والإسلام، ج 6 و 7، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1982، ص 26.

والتي سمحت لمحمد أن يكون نموذجاً وقائداً، الخصال البشرية التي عيب لأجلها من معارضيه؛ فما بال الرب لا يرسل ملكاً، ويرسل بشرياً، " وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (الفرقان 7)؛ فالرؤيا القاصرة تريد أن يجيئها خطاب علوي، لا بشري، لأنهم الأحق مقاماً وفقاً مكانتهم الدنيوية من أي بشري. وطاعة أي بشري هي مهانة وخزي، وَلَئِنِ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ (المؤمنون 34). لأن في ذلك زلزلة للمعايير البشرية التي وضعت لاختلال الميزان. زلزلة السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعقدي. لبناء واقع جديد يقوم على قيمة الفرد ككفاءة وما يقدمه لواقع الجماعة وصالحها كمسؤول عما يقدمه.

2_ الرسول¹: النص الوسيط:

شكل الحديث في الخطاب الديني السنة القولية للرسول محمد، والسنة² هي المنهاج، واستمد الحديث مقامه في المقدس العربي على أساس من علاقته بالخطاب المركزي؛ ومن مكانة شخص الرسول محمد، وقدرته على التوصيل والتبليغ وتبسيط العلائق بين الجغرافيتين المادية والروحية " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44)" النحل 43_ 44. فهذا الوسيط يحمل في ذاته وشخصه مسؤولية التبليغ بالذِّكر وإبانتته للناس، فالرسالة التي يحملها اكتملت به هو كبشري، أو لكانت أرسلت لكل بشر رسالته، فهي لاتكتمل إلا بهذا الوسيط إذ يحمل النص ويؤديه ويفسره، ويأوله ويبيئه.

¹ الرسول: شخص بشري ينقل رسالة من طرف إلى طرف، وقد يكون من الملائكة.

والرَّسُلُ الجماعة أو القطيع (القاموس المحيط) والرسول الموافق لك في النضال ونحوه، والرسل الفرق، لسان العرب. الرسالة الخطاب، والرسالة كتاب يشتمل على القليل من المسائل، ورسالة الرسول ما امر بتبليغه (المعجم الوسيط) ومثله في (مختار الصحاح).

² مادة سنن. مختار الصحاح.

فقد تكون الرسالة مكتملة لكنها تكون غير واضحة. وهذا ما انتهى إليه اجتماع وحاجة النصين إلى التكامل الحاصل فيهما كوشي " وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4) " النجم 3_4؛ والوحي يتشاكل منهما معا الخطاب القرآني والحديث كتأويل للخطاب المركزي وفهمه عن طريق المعلم والمؤول البشري الأول. ولهذا جاءت الأحداث والأقوال والأفعال التي صدرت عن المعلم وسميت بالسيرة النبوية لتكون نصا ومنهاجا يشكل الإنسان القرآني؛ ومصطلح الإنسان القرآني: هو مصطلح نقصد به تشكيل إنسان جديد بفعل مقومات النص، ثم إعادة تفعيل النص من خلال هذا الإنسان، ومفهوم الانسانية مفهوم جامع، فالدين الذي هو أحد مقوماتها يعترض في خطابه على كل ما يمس الإنسانية وما يعارض الحفاظ على الإنسان وحياته وكيونته، الإنسان الكامل الذي سعت الحضارات لتشكيل مقوماته باستخدام القوة والحروب والارتقاء بالمادي على حساب الروحي، لتحقيق التقدم، إنسان جعلت منه الأديان والعقائد روحيا مثاليا، وأبت الإنسانية المادية إلا أن تجعل كماله في قوته، إذن مكنم الاختلاف في القوة فأين مركز القوة الحقيقي، الروحية أم المادية.

3_ البشري في الإسلام (الرسول الإمام، الفرد) خطاب مؤدى:

منذ أول آية في المخاطبة القرآنية، وقع الخطاب بين عالم/ عارف أو ناقل للرسالة (الملك/ جبريل) ومتعلم يتهيأ للتلقي، متعلم غير عارف ومستقبل أمّي/ رسول هو (محمد): ليدعوه "اقرأ.."¹، يدعوه أو يأمره ليقراً ما حوله، ليتهيأ لتلقي معرفة، ثم لنقلها.

ومنذ لحظة الوصل الأولى تأسست علاقة كونية بين الأعلى والأسفل، بين السماوي والأرضي، بين المشهود والغيبى، انبنت علاقة بين الإنسان والنص، المكتوب من جهة والمنطوق على صعيد آخر، فهذه الرسالة احتملت وجود خطاب منطوق ومستخدم، واحتمال

¹ _ الآية 1 سورة العلق.

وجود خطاب كتابي يطلب القراءة، يجسده فعل الأمر (اقرأ)، فهذا النص الموجه للاستخدام والتعامل، أو بعبارة أخرى خطاب ميداني حياتي، يبدأ بحمل الرسالة على اتجاه واحد من الأعلى إلى الأسفل وتحقيق التواصلية الأولى بين جغرافيا الرسول الإنسان والرسول الملك، بين جغرافيا الأرض والسماء، ثم حمل وتوزيع الرسالة أفقياً بين البشري والبشري، وهذا لم يتطلب إلا إنساناً منسجماً مع الجماعة، ولهذا تحقق اختيار بشرٍ / رسولٍ يفهم لغة البشر وحاجاتهم، يستخدم الجسدي المادي، وبحاجة إلى الارتقاء إلى الروحي، هذا التوافق المطلوب في إنسي يجمع بين رسالة السماء واستقبال البشر، كنقطة جامعة لتحقيق التوافق والانسجام بين العالمين، وتحقيق التواصلية.

والوحي، بما تشير إليه الكلمة لغوياً، هو الصوت، والصوت يحتاج إلى سامع أو منصت؛ والوحي: المكتوب، والكتاب بما تحيل كلمة كتاب أو مكتوب إلى حاجة للتواصل بين طرفين أو أطراف؛ تحقق التواصل الذي يتأسس من خلال تفاعل الطرفين، بين التلقي والإجابة.

هذه السمة التواصلية والتي سيأتي على ذكر أنها لا تتشكل في دورتها من اتخاذ اتجاه واحد لها هو من الأعلى فالأدنى، بل يحمل الدعاء (كخطاب تواصلية بين طرفين) هذه السمة التواصلية ويعززها ولكنه يتجه على العكس من الأسفل إلى الأعلى.. "كما أن العبرة ليست فقط في طبيعة التعبير أو تقنية الصياغة الحاصلة في النص، بل في الواقع التواصلية بين الله والإنسان والذي يمر عبر وسائط متعددة كالملاك جبريل والنبى والحواريين....] وكذلك الخطاب اللحم أو الرؤيا] في وصول كلام الله إلى البشر"¹.

¹ _ م نفسه ص نفسها.

معنى ذلك أن هناك جماعة تشترك لإيصال هذا الخطاب ونقله من حالة إلى حالة أخرى، من الحالة السماوية الروحية، وشكله كخطاب يتلقاه فردٌ مخصوص في زمن مخصوص، إلى الحالة الأرضية الإنسانية حيث يتلقفه الإنسان ويستفيد منه بالتفاعل معه، ثم تتطبيقه والعمل به، فيصير وسيلة للتواصل وقانونا للعمل. وعبر الوسائط السماوية والأرضية والمادية وليس فقط اللغوية. والحالة التي يكون عليها الرّسول محمد صلى الله عليه وسلم لحظة الوصل وتسلم الخطاب. وهي حالة وهيئة البشري الضعيف: (تصعب عرق، دهشة، حالة هلع، توتر، انزواء، صلصلة..). حين يقترن مع آخر أقوى ليحقق التماسك بين الزمنين والجغرافيتين.

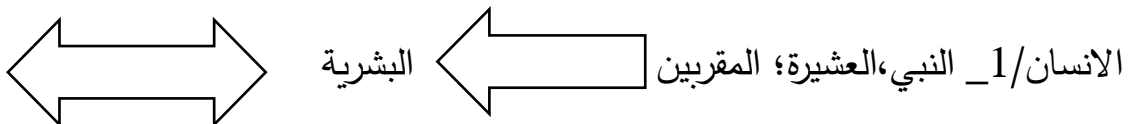
لحظة وصل ومفارقة بين السماوي الى الأرضي. ثم استمراره كخطاب للبشرية للقراءة والتواصل والتبليغ والعمل به. ويوصف بالخطاب" وهو توصيف يوحي بالتواصل قائم بين متكلم ومخاطب. ولعل هذا ما يميز النص القرآني عن غيره من النصوص الأخرى، هو أنه لا يلقى معارفه ويترك الخيار للمتلقين، بل يتوقع منهم استجابة **كفاعلين** ورد فعل معينين، ولا يعرض نفسه أمام القارئ بل يقيم معه حوارا ويدعوه الى الدخول في عالمه، إنه نص يتحقق بتفاعله داخل الوجود الإنساني. خطاب يحتاج متلقيه ويحتاجه متلقوه.

المرسل: الله

الرسالة: من الأعلى

عبر الوسيط جبريل

المرسل إليه:



الرسالة: أفقيا.

لقد انتهت النبوة مع توقف الوحي السماوي القرآني ووفاة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام البشري المحقق لهذا الخطاب في الأرضي، لكنها بقيت متواصلة كرسالة في البشر الذين يفتقدون بهذا البشري، فالنبوة التي هي في حقيقتها ثورة على السائد والخطأ النمطي المتعارف عليه والمقبول من طرف الجماعة_ التي تصبح فيما بعد جماعة الأقوياء_، جاءت في صورة النبي محمد (أو غيره من الأنبياء السابقين) لتعلم البشري أنه بإمكانه أن يكون نبيا متى أحدث التغيير وكان فردا متفردا بحريته وقوة الإرادة فيه، ولم يكن غيره. فالرسالة السماوية بلغ من توافقها أنها أعطت قيمة للفرد والجماعة كل في مجاله وأينما حقق كينونته، فكما أن هناك شعائر فردية؛ للفرد حرية القيام بها متفردا ويحق له الزيادة والنقصان، وهنا يبدو من توافق الدين وانسجامه احترامه للفردية، فقد جاءت عبادات كثيرة غير مرغمة ولا محددة بكم أو مقدار للفرد خاصة ما يقوم به لنفسه، في حين توجب شعائر أخرى الاجتماع والتوحد كصلاة الجماعة وفيها تحترم خصوصية الجماعة والالتزام بأدابها والتقييد بزمنها ومكانها. إذ أنه وحتى مع الطقوس الدينية لا يلزم الفرد بأن ينحل نهائيا في الجماعة فله حق الالتزام بواجباته مع ربه وغيره من حيث هو فرد، كما توجب أخرى المشاركة والتضافر.

ولهذا فإن هذا النموذج الذي هذبه ربه؛ إنسان يمشي بين الناس يعلمهم، ويأخذون عنه التجربة والطباع والطريقة، مريدون وتابعون، يتبعون المنهج في أدق تصرفاته، ولهذا قال فيهم، "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ"¹. وتمثلت صفات محمد في صحابته وأتباعه حتى في مطعمه وملبسه، ووصل بهم أن هناك من غير طباعه وأهواءه لتكون طبقا للنموذج الإنسان والنص؛ وهذا أنس بن مالك يحكي عن طبع ليس فيه، وهو في

¹ روى عن البخاري، ومسلم؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ".

محمد، جعله يغير هواه ويتبعه حتى فيم يحب من مطعم، حدثنا قتيبة عن مالك عن إسحاق بن عبد الله بن طلحة أنه سمع أنس بن مالك يقول: إنَّ خياطاً دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه، قال أنس فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يتتبع الدُّبَاءَ من حوالي القصعة قال فلم أزل أحب الدُّبَاءَ من يومئذ¹. فحتى الأذواق والأهواء الشخصية تلغى في سبيل أن تكون الجماعة رجلاً واحداً، ولهذا جاء في سنته: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه".

وبلغ بالتابعين أثر المنهج المحمدي، أن احتجم الإمام أحمد فأعطى الحجام ديناراً، ولما سئل عن ذلك؛ قال: احتجم رسول الله وأعطى الحجام ديناراً. إنه اهتمام بالنموذجية تعيش الذات الحاضرة في النموذج الغائب: (الرجل والنص الأمثل) محمد؛ يتكرر هذا النص السابق كبشري في كل بشري لاحق يلتزم بالنص، تتخالف الأجساد والأزمنة، ويظل المعنى شامخاً متنسقاً ومتآزراً، فلا يصح للامة ان تكون واحدة والأهواء متخالفة، وحتى في دقائق الأمور التي تعد أصلاً في التميز والمغايرة، لأن هجرة هذه الأصاغر ستدفع إلى التخلي التدريجي عن النص/ المنهج؛ الذي بفضلها يصبح الجمع واحداً، رجلاً في الخصال والأفعال. ما يعني انسجام الجماعة المحمدية، وارتباطها.

يحتاج الأتباع الى تطبيق السنة_ النص الموازي في الحياة فيكونوا محمديين، أنبياء متزمنين يتوافق كل إنسان مع السيرة حتى يصير نبياً. التاجر والمعلم والتلميذ وفي الأسرة وفي شعائرتنا وطقوسنا وحيواتنا. معرفته حق المعرفة أولاً ثم تعلمها ومعرفة أخباره واحواله. حل المشاكل التعامل مع الآخر... ففي الأثر عن زين العابدين بن علي قال: كُنَّا نعلم مغازي رسول الله كما نعلم السورة من القرآن². يقول. سفيان بن عيينة: إن استطعت ان لا تحك

¹ _ فتح الباري شرح صحيح البخاري، باب الأطعمة، ج9، ص434.

² _ موقع إسلام ويب.

رأسك إلا بأثر فافعل. وبلغ بهم التماس الدقة في اتباع المنهج، أن يتبعوا الأثر في التسميات والصفات والكنى فقد قيل أنّ الإمام أحمد اشترى جارية وسماها ريحانة كجارية رسول الله. للمباشرة بعمل عمله. فاتباع المنهج عندهم بدأ بذقائق التفاصيل حتى أشدها، هذا التماثل الذي يجعل محمدا متكررا في أتباعه، محققين كينونة الإنسان الخليفة.

فتشبهوا به في كل صغيرة وكبيرة وأطاعوا واتبعوا المنهج المحمدي من غير صدام أو تنافر، فكان من المحبة الصادقة ان هواه الذي بقلوبهم سير الفرد منهم سامعا مطيعا. وكانت كل ذات هي الآخر في المجتمع القرآني، فعنأبي بكر الصديق الذي لزم محمدا جل وقته وأحواله وتحولاته، فكان صاحبا ورفيقا، كان أنا محمديا متكررة ومنهجيا مطبقا على الواقع، ومن التماهي أن تلاشى الجسد في الجسد: يقول أبو بكر عن محمد: "شرب رسول الله حتى ارتويت".

ولا ينفي هذا عن صحابته أن يكونوا أجسادا بشرا ليتحولوا بفضل المنهج المتحرك بينهم (محمد_النص/ البشري_ المرجعية) أرواحا ونماذجا. ومحمد البشري إذ يقرب صاحبيه كنبّي إنما لأنهما ناقلان للمنهج حاستان تفهمان العالم وتنقلان الفهم النبويّ إلى العالم؛ وأعضاء تواصل للروح بفعل هذه الصحبة_(وكان مجديا لو أفردنا بحثا لمفهوم الصحبة والنص)_ حين يقول عن صاحبيه عمر وأبي بكر: "هذان السمع والبصر"، يكونان أذنا تسمع وعينا ترى خارج الجسد_ الأنا، حين ينتفي الجسد لتستمر الأنا في آخرها، في الصحبة والمشاركة، إن قيمة الرجل في صحبته، وقيمة المرء ليست في كينونته المفردة أو فردنته، فالأنا في الخطاب القرآني أنا جماعية ليس فيها شيء لا يقبل القسمة على الآخر، وما تشبيه النبي محمد صلى الله عليه وسلم صاحبيه بحاستي السمع والبصر إلا لدليل أن هذا الجسد، جسد الدين لا يقوم الا بالمشترك، و"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد"، جسد لا تقوم أعضاؤه إلا بالمشاركة ولا يقوم إلا على التواصل والعمل المتمم للآخر.

ثم جعل منهم نجوما (علامات مادية تحقق النص وللمنهج)؛ "أصحابي كالنجوم بأيهم اهتديتم" هذه المشاركة التي لا تكون فقط في الصحبة بل تعدتها حتى إلى المشاعر والأهواء والرغبات كما ذكر سابقا، تقول الخنساء:

" ولولا كثرة الباكين حـولي على إخوانهم لقتلت نفسي "

إن فعل المشاركة يقلل حجم المصيبة ويهونها، ويرفع الهمم ويعليها؛ ولهذا كانت الأعمال والأفعال والعبادات أفعال مشاركة في أغلبها، وأفعال المشاركة أكثر قيمة من العمل الفردي بدرجات كبيرة. ولم تنته الرسالة في الشخص الرسول المقتدى به محمد، فقد بقيت فعلا متكررا ونموذجا في مريديه وأتباعه. فسنة الإقتداء واتباع الأثر، أن تجعل لناصيتك قائدا، ومثالا ذلك أن الأمم بقادتها، هذا النبي البشري، الذي وصل العالمين وسيطا أمينا ومبلغا حكيما ورحيما. جاء من أجل العامة "رحمة للعالمين"، العامة التي يتقل كاهلها النسق الاجتماعي الطبقي والحياة السياسية غير العادلة.

ولهذا رتب الخالق الرسل كقادة وكوسائط رحمة، كما أن الرسالة المحمدية هي رسالة رحمة وتغيير حياة إلى الأفضل؛ (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ). الأنبياء آية 107. في أزمنة يحاول الشر فيها محو الخير، فيعيدون بالمنهج الإنسان إلى إنسانيته، وجاء محمد ليبقى أثره منهاجا نكون فيه كلنا هذا الرجل الأمي البسيط الاجتماعي الخلق، وصل بشكه وبحثه ويقينه إلى المعرفة والحقيقة وقاد البشر إليها، وأوجب العبادة والتواصل مع الخالق، وجعل الخلق ربانيين حتى في اخطائهم، يخطئون ثم يصححون الخطأ فيقبل منهم، إنه مسرح تجارب وتدرج إلى الحقيقة ولا يتأتى هذا إلا بالخطأ. ثم ترك هذا المنهج للبحث عن الحقيقة "الفردي في الجماعي"، وكل فرد ملزم بذاته للبحث عن الحقيقة كممثل عن نفسه وعن جماعته. "يمثل الإنسان الثلث الناشط "بوعيه" _ ولقد شقي بوعيه هذا_ بين المخلوقات،

بسبب كونه كائناً تتجاذبه عوامل (الخير والشر)، والذي سعى الأنبياء إلى دفعه نحو دائرة الخير عبر رسالاتهم تجنباً لجميع عوامل الأذى والألم والعبودية والاستغلال والاستبداد، وتأكيداً لأخلاقيات التكليف وإذا كانت فكرة الخطيئة الأولى قد وصفته بالنقص الدائم حسب الفهم التوراتي حاولت المسيحية تحريره منها، بتضحية السيد المسيح عليه السلام بنفسه، نيابة عن الإنسانية. قال الإسلام بالمسؤولية الإجرائية عن تلك الخطيئة حين تاب الله سبحانه وتعالى على آدم وحواء، وجعل لهما الأرض ميداناً لامتحان هذه التوبة¹، ثم جعل خلائفهما من نكر وانثى رهن هذا الاختبار الأبدي، وكيفية التكفير عنه.

والإنسان اليوم يتغير ويتحول إلى مجرد آلة كالألات الكثيرة التي حوله، ورغم أنه صانع ما حوله المستغني عنه به، إلا أنه يفقد في ظل هذه الأزمة كينونته كإنسان وحاجته إلى إنسانيته، يتعلق الأمر أكثر بإنسانية اليوم، إنسانية قلقة ومضطربة لا قيم مطلقة تسير ضمن إحدائياتها؛ فـ "الإنسانية المعاصرة هي إنسانية قلقة أكثر من أي وقت مضى، ويتبدى هذا القلق فيما يقوي الإنسان الحالي من الاضطراب في نظرتة إلى نفسه والشك في قدرته، والتساؤل الحادّ حول مصيره، أي في كونه يعاني أزمة هوية حقيقية تتمثل في غياب المعنى ذاته"². فطغيانه بما يصنعه، العجب الذي تملكه، جعله مجرد آلة سرعان ما تنقلت الأشياء من قبضته إن أصابها عطب لا متوقع ولعل ما تتخبط فيه البشرية بسبب وباء المسمى (كوفيد 19) والذي جعل الانسان يركن الى زاوية ضعفه، تستعبده الأشياء الضعيفة التي لا قوى له بها، وتستقوي عليه الأشياء التي يصنعها، وفي السورة الأولى أو الآيات الأولى التي نزلت على الإنسان يذكر الله هذا الإنسان بعجزه، عجزه المقرّون بالعلم: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ

¹ علي حسين الجابري، محنة الإنسان بين العلم والدين والفلسفة، دار نينوى، دمشق_سوريا، 2009، ص177.

² المرجع السابق، الصفحة 59.

الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)) الآيات 1_5 سورة العلق. فالأمر بالقراءة لمعلوم هو الإنسان والمقروء مجهول تعلمه الآية التي انتهى عندها أول خطاب بين السماء والأرض: (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) الآية 4؛ والأمر بالفعل هو الأكرم، وكل علم هو منسوب له، علم مكتوب إذن على الإنسان أن يتبع الخطو لقراءته، ثم يجعل الله لهذا منهاجا وطريقة للتعلم. إن طغيان الإنسان غلب عليه علمه، غلب عليه ما صنعه بيده، ولهذا (إِنَّ إِلَيَّ رَجْعُكَ الرَّجْعَى 8) العلق. العودة إلى القيم المطلقة التي تحكم الأخلاق وتعيد إلى الإنسانية المعنى المفقود.

ترتبط هذه السورة أو آياتها بصورة ماوتترابط بنص التعليم الأول حين يعيدنا إلى قصة الخلق (حيث يتأسس ظهور المخلوق البشري واختلافه على قرينة العلم)، أو قل هي استذكار لحادثة التعلم الأولى، التي تعلم فيها آدم الأسماء، تعلم اللغة والكون، تعلم علوم الكون، وعلمه العليم، لكنه وبعد أن سجد له من هم افضل منه خلقة "الملائكة"، أطاع من امتنع عن السجود، ولهذا تجد السورة في نهايتها حلا للعودة، وحلا لاسترجاع الإنسان لأناسته، إنه السجود والإقتراب، ان السجود بما هو انحناء وحركة إرادية تشير الى العودة والالتحام بالارض، مرجعية الكينونة المادية الوضيعة، حركة تعيد التوازن الى الإنسان المتعدّي في الأرض، حركة تقرب بين عالمين، فالإنسان المنتصب قامه يسجد ليتوازن، تذعن الحوأس والأعضاء لتقوض سيرة المدنس..! (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)، أي اقتراب إذن؟ اقتراب نحو الأعلى، اقتراب يوجبه السجود، حين تؤمن الأجساد بهائها الأول ولا قيمتها (الخلق من طين حمى لازب ومسنون)، وحين اقترانها بالأرض: أصل كينونتها، تقترب من كينونتها الربانية التي جعلت لها أول مرة، ترتفع، إنه اقتراب نحو السماء وحيث التسامي. وفي هذا التواضع والحطة قربان وتقرب، إنها إذن ليست حركة دونية، إنها حركة تعيد التوازن إلى المركز والماحول. فعل السجود يحقق الخروج من دائرة الانتباز واللا انتماء، ويعيده إلى مرجعية الخلق وسببه. وحين تمام الآيات تشعر بفصل بينها وبين الآيات الأولى،

(كَأَلَّا لَا تُطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)، ففي هذا السورة المفتحة للخطاب القرآني زمنيا، مقدمة ناصية الكتاب لمحمد في مرحلة ما بين بشريته ورسوليته، فهي أول خطاب نزل بمكة،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى (6) أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (11) أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (14) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَدِّدْهُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19).

يقول العسكري البدايات أمهات البيان، هذه السورة مفتحة للنص القريني وآياتها الأولى هي دستور لحقيقة الإنسان (المطلب الأول للنص) المخلوق من ضعف، والذي يتجبر كلما علم من نفسه القوة، ويستغني كلما عرف ورأى والرؤيا مفهوم خاص في الخطاب القرآني. فالإنسان الذي تعلم ما لم يعلم، ثم ألم يعلم بأن الله يرى، لأن منتهى العلم منتهى الرؤيا، العلم الذي كان حجة الله في المحاجة الأولى للخلق، على الرؤية (مشاهدة الملائكة) "فالإنسان يشعر يوما بعد يوم بالرغم من التقدم العلمي الهائل، وبالرغم من امتلاك تقنيات جبارة يشعر بفقدان السيادة، بأنه ليس سيد مصيره ولا مالك زمامه، بأن الأشياء تقلت من سيطرته وتأبى الخضوع لخطته واستراتيجياته تتنمر عليه وترفض أن تسخر له. فما صنعه الإنسان يكاد يطغى عليه. والتحديث الذي تميز به عقله، صار مقلقا ونافيا لحقيقته كبشري. " فالدولة التي صنعها الإنسان لتدبير أفعاله تطغى عليه وتبتلعه"¹؛ ليصبح مجرد شيء

¹ _ علي حسين الجابري، محنة الإنسان الحائر، ص 131.

تتحكم به الآلة والتغييرات التي خلقها فاستفحل خطرها وشيئاً، وبات كسر الفوارق بين الأمم وإلغاء الفوارق كلية أيديولوجية يسير نحوها مجبراً تبتلعه أو فتستبدله بالآلي والتكنولوجي، كأنه لم يعد ذا أهمية بوجود البدائل الكثيرة. " لقد استفحل خطر الكلائية¹ وباتت تهدد الوجود السياسي للمجتمعات، بقضائها على إمكان المشاركة والاختيار عند الفرد، وبلجائها الى برمجة المجتمع على نحو شامل وتحويلها الحكام الى مجرد منفذين.² وحتى النظم الجديدة التي فرضت استفادة البشرية من التجديد، أخذت بالمقابل منها أناستها وقيمتها وأفضليتها، وكأنه أصبح أسير المنظومات التي بناها والأنساق التي خلقها.³ اذ لم يعد الانسان سيدا بعد أن صارت الأشياء المادية تقوم بأعماله وصار بإمكانه أن يستغني عن أخيه الإنسان (أن رآه استغنى)، الأمر الذي عزز محاولات السيطرة على الآخر كنوع من العبودية الجديدة؛ أو تغيير ثوب الاستعمار الذي ظل مرفوضاً في أشكاله السابقة، حتى بعدما اتخذ عباءة التنوير والفتح في محاولاته تلك، لكنه وجد لنفسه مساقاً وحجة بفضل طغيان الآلة واستعبادها للإنسان، الذي يعتقد في مفارقة عجيبة أنه هو من يمتلكها، لكن حقيقة الامر تثبت انها أكلت الازمنه وانهدت الجغرافيا، والحدود، اجتياح جديد يلبس ثوب الحريات والمواطنة العالمية، تذويب الجنسيات والاختلاف في نوع واحد، تتحقق فيه السوبرمانية الجديدة، فالانسان الأعلى بها هو الانسان الذي يتحكم في التكنولوجيا، أو تتحكم به التكنواوجيا في مرآة الواقع.. ! في حين أنه كان سيد الأشياء حتى إذا أمرها انتمرت.

تتكرر قصة آدم أبا ونبيا في الخطاب القرآني سبع مرات على التوالي حسب ترتيب المصحف: في: البقرة الأعراف الحجر والإسراء، طه، الكهف وص. وتركز القصة في كل

¹ _ الكلائية: فلسفة الدولة التي أفضت إلى الطغيان وما اصطلح عليه بالكلائية هو طغيان المؤسسة على الفرد، عكس الاستبداد الذي هو طغيان الواحد على الكل.

² _ م نفسه ص 131.

³ _ م نفسه ص 59.

أحداثها وجوانبها على مدار السبع سور، على أن السجود كان اختباراً، ثم صار خياراً وعلامة اصطفاءً. لقد رفع السجود ابن آدم حين سجدت له المخلوقات، وهو ذات السجود المطلوب منه ليكتمل ارتقاؤه واقترابه (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)، ليس السجود اذن سوى إعادة للتوازن، وضبطاً لإيقاع القصة الأولى وانسجاماً للحدث مع الحدث، لكن السجود غير الهبوط، لقد كتب على آدم وابنه السجود اقتراباً، وكتب على ابليس السجود هبوطاً (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) الأعراف الآية 13.

كان الهبوط جزاء عن الكبر و(الترفع) رفضاً للآخر، واعتقاداً بالتمايز والاختلاف الملغي للمغاير، وكان السجود تكفيراً عن خطيئة، فكما سجد ابن آدم اقترب، وأعاد محله في مقامات الارتقاء، إنه يقترب إليه، حيث جغرافياً الخطيئة الأولى وحيث موقعه الحقيقي (الجنة). (كَلَّا لَا تُطِعْهُ، وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) العلق الآية 19. كلاً لا تطعه هو نفسه الخلق الذي طغى وتجبّر ممثلاً في كل تابع له، سواء كان هو إبليس أو أبا جهل¹ أو من ماثلهما...

لكن تكرر القصة في أكثر من سورة، يظهر أن عاقبة الطغيان عاقبة التأله البشري هو الذلة والتشتت والضياع، فكما تكبر البشريّ تشتت وتاه، وكلما بلغ مبلغه في العلم حتى اعتقد انه الإله، وأن ليس غيره، وقع في مكائد صنيعة حروب وأسلحة وتكنولوجيا تتحرك بطرف العين، لكنها تجر معها الوبال، يصنع الإنسان ما يحكمه ويعيد استئلاها الآلة بديلاً عن خالقه فيعجز. "وكأن ثمة قوى غفلا لا قدرة له على التحكم بها، وكأن ثمة منطقاً خفياً يتجاوزه ويتعالى عليه. فهل نحن إزاء حرب جديدة من ضروب الجبر؟ هل نحن إزاء قدرية من نوع آخر؟"² يرتد على الإنسانية وبال طغيان المادة وتأليهاها. حتى يضيع هو "الإنسان" كمفهوم، وعوض ان يتحكم هو صار متحكماً به.. إن هذه الأزمة الحضارية التي يتنفسها

¹ ابن كثير دمشقي. تفسير القرآن العظيم. تفسير سورة العلق.

² المرجع السابق، ص 59.

الإنسان من كل جانب من جوانب حياته ومع كل نشاط يبذله، إنما تعيدنا إلى مساءلة مفهوم الإنسان نفسه، مادام الإنسان هو صانع الحضارة وخالق الدلالة. إنها تفترض الإرتداد نحو ما تفعله الانسان بنفسه وما يعرفه عنها¹. لم يكن هذا العصر عصر النهايات الكثيرة الإله والدين والتاريخ والانسان فقط، إنما يظهر انه عصر موت العلم والفلسفة فما يحدث غير مألوف ولا متوقع، لم يرصد له أي من هذين الإثنين متخيلا او افتراضا وحلولا.

4_ النبوة، الإنسان والعالم/اختلال وتوازن القوة والهشاشة:

في معرض الحديث عن الحياة والدين وعن الواقع الذي يعيشه الفرد المسلم والجماعة ومدى التنافر الحاصل بين الدستور النصي الذي جاء للتقويم وبين ما يحدث من اختلالات، تصادفك إجابات تشي باختلاف التاريخ والازمنة وتعارض المصالح بين الفضاءات الزمنية والجغرافية... ؟ حين يطرح إشكال الحياة الحضارية الإسلامية السابقة ودور الإنسان فيها، تجد تعليقات جاهزة من صنف الاختلاف في الطبيعة والقدرة البشرية التي منحت لمحمد وصحابته ولم تمنح لغيره!

لكن ما ومن النبي؟ وكما ذكر سالفنا، هل هو قوة خارقة خارجة عن قوانين البشر؟ أم ما النبي إلا إنسان والنبوة قراءة واصطفاء لبشري تقوم إرادته بعد ذلك بالتضافر مع الإلهي، للجمع بين القوتين. في لحظة لقاء العالمين عالم السماء لقوته وغيبه ورفعته، وعالم الأرض بضعفه وهشاشته وضعته. في يوم معلوم هيئ له، نزل رسول السماء الى رسول الأرض، ليقترن العالمان. محمد ممثلا عالم الإنسان، وجبريل روح القدس ممثلا عالم السماء. ليحمل الإنسان رسالة الأرض والسماء القوة والرقعة معا، الضعف الانساني والقوة الالهية، على هشاشته كبشري يستقبل الأمر بضعفه، فهل ينفي عن محمد إنسانيته قُدسية ما جاء به؟ هل

¹ _ نفسه ص59.

ينفي ذلك النص المنزّل؟ هل كان من المفروض أن يكون مختلفا عن بني البشر لتتحقق نبوءته؟ أم أن بشريته، وتصرفه كعبد مرسل بشكه وخوفه ويأسه ثم يقينه وإصراره وقوته ما يؤكد توازن هذا من هذا. وفصل الإنسان جسدا وهيئت له وظيفته قبل خلقه، الربط بين عالمين، الشهوة والروح.

فالشهوات اختبار قدرة وميزان قوة، فإما ارتقاء وإما سقطة. وفي كل امرئ حاجيات والهلع والجزع والعجلة والمنع؛ التي وصف بها ابن آدم إنما هي ميراث أبيه حين استعجل وهلع وجزع، كذلك الشك والخوف واليأس والضعف هي ما يميز ابن آدم وما يجعله بحاجة إلى دعم قوة أكبر منه. وفي رحلة اليقين والبحث عن الحقيقة والتمام؛ هناك خوف وفزع وانهزام وبحث عن التوازن واستعادة التوازن، أو فلم البشرية إذن؟

والشك والنقص واليأس هو الذي جعل (محمدا) باحثا عن الحقيقة يحس بعدم اكتمالها؛ فيه وفيما حوله، يخلو بنفسه كفرد يخرج عن القطيع ليفكر؛ في المختلف وفي التجديد هو فرد مختلف في مجتمع يتبنى منهج العزة للأقوى، ويغير معايير حسب طبقات المحكومين. يدرك بحواسه ان الموجودات ستأخذ لحقيقة ما، ونظام ما ومنهج ما. وحين تجيئه الحقيقة، يتعامل معها كبشري، يفصل بين زمنين وعقدين تاريخيين، منهج نأخذ بناصيته إلى اليوم، فإيماننا الوراثي كمسلمين لا ولم يعد يكفي، هناك مجابهة ومكابدة، هناك إصلاح في الذات وفي ما حولها. كل بشري يعيش الجاهلية ذاتها، والنص بين يديه، الخطابات بين يديه كل ما عليه ان يكابد للوصول الى الحقيقة والفصل بين الجاهلية والمعرفة الجديدة، ليحقق كينونته كمختلف، ويكون نبيا في نفسه؛ فبعد أن قضى محمد كل واحد هو نبي في نفسه وفي مجتمعه وفي البشرية إن أحسن التعامل بالمنهج الذي ترك له. المنهج الذي يصل إليه كحقيقة فارقة بالعقل والتفكير، السبيل إلى الحقيقة الكاملة ولهذا كان الخطاب ملزما لبني الإنسان. وحدد له المنهج؛ منهج العمل وكيفية استعمال النفس والروح والجسد بدون عبث،

أفعالاً وأقوالاً في صالح الفرد والجماعة والإنسانية. منهج الاستقامة والعمل الصالح؛ فالمستقيم إيجابياً لا يكذب لا يسرق لا يزني، يروض إنسانيته وبشريته لكي لا يعمل الخطأ، المستقيم على المنهج المستقيم وإن حاد يقوم اعوجاجه، بالعودة والإنابة، هناك دفتر للمحسبة والتنقيط اليومي، والمراجعة وعلى ذلك رتب الله الخلق ليرتب الخلق حياته وفق نظم الترتيب والتقويم بالمنهج، فالخطأ يعالج بالعودة وبالتذكر... الاستقامة امتناع وطرح إيجابي.. طريق الى الله مليء بالعقبات والمطبات فكل معصية هي عقبة للوصول إلى العرفان؛ فإذا استقمت تركت كل هذا لتحقيق التوازن المطلوب لتحمل مشاق الحياة.

والعمل الصالح؛ عطاء وبذل ومنح خبرة تؤديها؛ العمل الصالح إيجابية درجات وقربات هوما ينزل معك الى القبر. العمل الصالح مشاركة، فقد قيل "الغائب عن المعصية ينكرها له أجر، والحاضر مثبتها مشارك فيها". فلم يأت التاريخ بحضارة اخطأت المنهج وخرجت عن الفطرة ونقضت عهد وعقد الخطاب بينها وبين عقلائها إلا وقضى عليها انحرافها.

فالإنسان بالاستقامة يتحقق له السلم الداخلي والتوازن الخارجي، وبالأستقامة يتحقق العمل الصالح الذي يعود. لأنه مجبول على الاستمرار في الوجود بهما. ويقرن الخطاب بين الإيمان الذي هو تعالق بين عالمين وجغرافيتين، وبين العمل الصالح الذي هو اتفاق وتضافر يتحقق في العالم الأرضي كما يعدّ العمل الصالح شكلاً من أشكال الإحسان؛ الذي هو من مراتب الدين الإسلامي: الإسلام الإيمان ثم الإحسان وهي مرتبة لا ينالها إلا المخلصون؛ ف: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة الآية 7. وقد اقترنا أكثر من مائتي مرة. ومن زاوية الإرادة فليس المرسلون سوى بشر تحملوا مالم يتحملة غيرهم، بشر حملوا أمانات الى الأمم دون ان يملوا أو يندموا، هناك تقوى وعمل صالح، كانوا بشراً وامتحنوا طاقتهم كبشر.

محمد البشري فسر ماجاء في الخطاب القرآني بالسنة فعلا وقولا (الحديث النبوي، السنة النبوية)، الحديث الذي هو كل السنة القولية على لسان النبي البشري، سواء كانت فسرا وشرحا للخطاب القرآني، أو ترتيبا للحياة من خلال الفعل القولي، أو القولي عن الفعلي. نص بشري موجه ومفسر وشارح.

تقول ليزلي هازلتون وهي تبحث في سيرة محمد، السؤال المستحيل: ما الذي حدث بالضبط في ليلة صحراوية على جبل خارج مكة هناك؟ إنها لحظة الأساس في الاسلام. ولأنها كذلك فهي تتحدى التحليل العملي. نوع من الهرطقة لشخص علماني مثلي. كل الأسئلة طبيعية أو حتمية هو نوع من التعدي عندما يقابل إنسان الإله يبدو حلما. وأمنية خيالية لشخص عقلائي مثليحول تلك الليلةالذي صعقني هو الذي لم يحدث وليس ما حدث حول تلك الليلة؟ لم يقفز محمد فرحا في الهواء. لم يطف محمد من الجبل كأنه يمشي في الهواء. لم يركض صارخا فليتمجد الرب. الحمد لله لم يشع نورا.. لم تكن هناك جوقات من الملائكة لا غبطة لا نشوة ولا إحساس بالغبطة كرسول من الله.

كان مقتنعا أنه مستحيل تصديقه ملبوسا.. روح تحاول خداعه. أو تحاول إزهاق روحه، ومع ذلك أكمل بنفسه الأمر فقفز ليهرب من الرعب الذي أصابه. بوضع حد لكل المصائب لم يكن فرحا بل بصرخة يملكها الخوف والرعب لم يطغ عليه الاقتناع بل الشك وذلك التوهان والرعب ذلك الانفصام عن كل معلوم. ذلك الإدراك المروع لشيء يتخطى إدراك البشر لا يوصف الا بالهلع الفضيع لربما من الصعب استيعاب ما حدث بكلمة. إننا لا نستطيع تفسير كل شيء نحن لا نمتلك الحقيقة دائما سواء كنت عقلانيا او روحيا. الواضح حقا ان الحقيقة انه مر بتلك التجربة إنما مر به يجعله الشدة. احساسه بنفسه وبعالمه حول ذلك الرجل العادي والمتواضع الى داعية راديكالي للعدالة الاجتماعية والاقتصاديةالخوف كان ردة الفعل العقلانية الوحيدة. ردة الفعل الانسانية الوحيدة. انسانية عالية عند البعض. مثل

قول العلماء المسلمين ان القول بخاطرة الانتحار غير ممكنة ويجب انكارها بالرغم من وجودها في كتب السيرة الاسلامية القديمة يصرون على انه لم يشك قط ولو للحظة¹.

بطلبهم الكمال "ينفون عنه إنسانيته"²، لم يكن محمد كاملا وهي إحدى الإضافات التي تحسب له كبشري؛ ولم يكن بشرا عاديا أيضا وهي ما اعتبر به في عالم الغيب، ولعل إنسانية محمد الماثلة في خوفه وتردده، وفي هرعته إلى الإنسانى مثله (خديجة)، لطلب العزاء والمشاركة، في اللحظة والكشف، والدهشة والهشاشة البشرية؛ هي ما يؤكد بلوغ هذا البشري مبلغا لم تدركه الإنسانية قبله. أو لا قبل لها به. في لحظة تواصل غير عادية بين عالمين غير متكافئين، بين مشهود وغيبى، بشري وغير بشري. يقعان على تناظر وعدم تكافؤ. اللحظة التي تقع فيها الرسالة ثقلا على كاهل بشري وملك، لا يمكن لهذه اللحظة أن تتأتى لمن هو سواه، أو تتكرر. لحظة النبوة التي تقلدها النبيون قبله. حالة غير عادلة في ثقل المحمول على الحامل (وهي ما تمنحه مكانته التي لا تمنح ولا تتال لغيره)، ولا بد أن هذه اللحظة ستفترق أيضا بين زمنين في شخص واحد، محمد قبل اللقاء ليس هو البشري الحامل للرسالة بعد اللقاء. يتم تأكيد الأمر على لسان النبي ذاته، بعد ان " أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه؛ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا" الآية 93. سورة الإسراء. يرجع ابن عباس وابن مسعود³، هذه العبارة (ترقى في السماء) الى طلب رؤيته يصعد على سلم في السماء ليتأكدوا صدقا من صدقه. أو طلب مراسيل من السماء تؤدي باسم كل واحد منهم حتى يصدقوا. وفي هذا علامة على عدم مقدرتهم العقلية أو قصورها على التجاوب مع الغيبى والتصديق به، حيث لا

¹ _ ليزلي هزلتون، خطاب مصور عن سيرة محمد والكاتبة كانت تحضر كتابا في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم. الخطاب في شكل فيديو على مواقع اليوتيوب، ويوجد أيضا في شكل نص أسفل الفيديو.

² _ المرجع نفسه.

³ _ ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الإسراء.

تتفق الآفاق والرؤى. إذ لا يمكن لهذه الذهنية القاصر الا ان تؤمن بالمرئي والمشاهد، وكأنها في ذلك تنكر التفكير الذي هو شيء مجرد وغير مرئي. موقعه في الباطن لا الظاهر. لكن محمدا البشري يؤكد على طبيعته البشرية ولا ينكرها، إنما هو مثلهم، ولا يستطيع أن يكون غير بشري. ليحدث كل هذه الدهشة.

ولهذا فإن حالة الشك والخوف وهرعه إلى زوجته مرعوبا قائلا (دثروني زمّلوني)، إلا دليل على إنسانيته، وعلى قيمة التواصل الجديد الذي يحدث، وحاجته كإنسان إلى المشاركة في حالة الخوف والهلع والمرض والحاجة... الحاجة إلى الداعم والصاحب تماما كما تقول رحلة الهجرة بين صاحبين في طريق صحراوية هاجرة، رحلة عمرها أشهر من الخوف والارتياب، لكن الصاحب يهون على الصاحب والرفيق يقف بالرفيق، تلك المشاركة الغنسانية التي لم تفرق بين نبي وبشري.

إن النبوة اتصال، وهو ليس بالاتصال الهين، إنه التقاء عالمين عالم الأرض والسماء، حالة الشك والخوف كما تقول ليزلي، هي التي تجعلنا نؤمن أكثر بإنسانيته. هذا البشري الذي تمتلكه حالة تواصلية لا معتادة هي التي سبقته مع موسى، حين وطئ طور سينين.

وفي إطار يشبه ذلك تشير حادثة بكاء عمر والجيش في نداء بلال إلى (عودة الحالة الأولى واستشعار القدسية) فقد ذكرهم تاريخا وسيدا وسيرة ونبيا قائدا وأنا مجتزة في جماعته، حيث للكلمة والصوت والحركة والفرد والهيئة والشكل قيمة في المجتمع وعند الجماعة. هذه الطقوسية التي لا تعني الشكل مفصولا إنما قريبا من المعنى وموفدا إليه ومحिला عليه. يل إن الفكر الانساني اليوم يربط الايديولوجيات بالطقوس والهيئات والعادات المفكر وحتى اذا ذكرت مفردة وإن لم تكن مصطلحا علميا أو داخل نسق ارتبطت باصطلاح ما.

ظهرت رحمة محمد البشري من النص الذي علمه، ومن طبيعته الانسانية (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۗ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) الآية 159/ آل عمران، إن ملكة المرونة واللين والتعامل بالرفق مع البشر، سبيل إلى حسن التواصل، وهذا محمد المرسل البشري، يستقيم على هدي الخطاب ويأتمر، ثم تعلق فطرته كبشري يحمل قلبا لينا طيعا، ومسؤول عن رعية، يعلمها؛ أو على عاتقه خطابان مرهقان في توصيلهما وتبليغهما، الخطاب الإلهي، والخطاب البشري _باعتباره كنبى نموجا تطبيقيا للخطاب الإلهي_، تراه الأعين وتسمعه الآذان، وتتعلق به القلوب، فالرسالة احتاجت بشرا مثالا يحتذى ومسيرة تذكر، ثم نجد النموذج مكررا والمنهج متبعا في الأثر، وعمر وعثمان وأبو بكر وبلال وسعد وأبو ذر..... يتبعون هدي مرشدهم، فيشكلون نصا جديدا ونسخة عن المعلم، يركب عمرُ إلى بيت المقدس فيقول لمولاه وحاديه، أركب عقبة وتركب عقبة. فلما ينكر عليه المولى ذلك يرد عليه عمر: ألا تتعب كالناس؟

فلم يتنزل النص في سياقات خالصة لها دون غيرها، إنما هيا بشرا ليشكلوا خطابات جديدة بسياقات مختلفة تصدر كلها عن نبع النص الأول. وحيث المعلم الأول الذي تتلمذ على أخلاقه وتخرج من مدرسته سادات وخيار قريش؛ ونهل الكل من هذا النص خطابا وإنسانا حيث حتى الأشياء مأمورات تسمع وتطيع، والإنسان خيرها أظهرها سمعا، وأحقها طاعة. فقد خلق على ضعفه فاستقوى، وقد أعطي ما لم يعط غيره فاستقوى: "ألم نجعل له عينين ولسانا وشفقتين"، ثم إن القارئ للنص يطرح سؤالا مفاده: ان جميع الخلق الحيواني خلقه الله على ذات الخلقة: بعينين ولسان وشفقتين فلماذا يحاسب الإنسان فيما رزقه غيره وهم أضعف خلقا منه؟؟

لقد خلق الله الانسان والحيوان من حيث الأعضاء على هيئة متقاربة، لكن يتحدث الخطاب القرآني بدقة عن هذه الأعضاء في الانسان باختلاف وهو: الجعل، فالجعل هو

الخلق لوظيفة وهو يختلف في هذا عن الخلق: لقد منحه فرصة وقدرة على الرؤية والرؤيا على الإبصار والتبصر، وهذا هو الجعل، لقد جعل له لسانا وشفقتين، هذا اللسان الذي منحه ميزة الاختلاف وبه يستطيع تحقيق انسانيته واثبات تفكره، فللغة لسان، تحركها شفقتان، فحتى مع امتلاك هذه الأعضاء عند الحيوانات الا انها تستعمل جوفها أكثر من أي عضو اخر. الا انها لا تستخدمها لذات الوظيفة البشرية، بل أن هذين الأدوات هما أصل التمايز بينه وبين الخلق. هذه الحواس العاقلة، التي تعقل ما تفعله، وتبين ما تريده، وتعرف كيف تروض خياراتها.

ومع جميل ما خلق فيه "ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين" التين. كذلك "خلق الإنسان من علق"، "العلق". فقد كان خلقه هينا، لكنه جعل له مكانة أعظم، كان بديلا عنها من المفروض الطاعة بالإدراك وبالعلم، الذي هو تمايزه عن بقية المخلوقات. وهذا ما يفسر العدد الهائل من الايات التي تحكي التدبير وتطالب بمنهج الملاحظة والنقد والتحليل ووصل العلائق لإيجاد النتائج. التدبير أيضا بحث في دقائق الأشياء واللحظات والمخالفات إلى أقصاها ومنتهاها وكبائرها مدعاة إلى العودة إلى الذات التي هي محور كل ذلك وبينه، التدبير والملاحظة يجعل الإنسان نبيا، يصل كل يوم إلى جديد لم يحزه سابقه. ثم عودته للبحث في ذاته ومتناقضاته، ضعفه وقوته، لأن هذه المتفرقات التي تساوي الى التناقض، الانسان قوته وحكمته وشره، مع ضعف خلقه وهون وجوده وعجزه عن رد الشرور عنه، أشياء كثيرة يدرجها الخطاب القرآني تبدو كمتناقضات تحتاج بحثا عن العلائق. الأمانة التي حملها الإنسان وقبلها ورفضها من هو أشد منه خلقا أو كل المخلوقات دونه.

ولهذا يذكر الله الانسان بضعفه المتجاوز " أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27)

رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30)

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)". النازعات
الآية 27_ 33.

إن عجزه المفرط يحيله إلتدبر فيما يحدث له، وإن هذا العجز شبيهه مستو مع عجز
المخلوقات الأخرى. حتى يصورهم الخطاب في حالة شبيهة بالحيوان والأشياء، بل كمثل
أسوء الحيوانات وأنكرها. فإذا انتفى منه العقل وليس العقل الساكن، انما العقل المدبر
والمتفكر، فان هذا الكيان لن يكون سوى كبقية المخلوقات التي يعتبرها الانسان مخلوقات
دنيا. إن هم كالأنعام، كأنهم خشب مسندة، ... كمثل الحمار يحمل أسفارا. ... وإن
يسلبهم الذباب شيئا لا يستنفذوه.. ضعف الطالب والمطلوب. ولعل هذا العجز تثبته انهيار
قوة هذا الجبروت أمام الظواهر والكوارث الطبيعية، وكذا الآفات والابئة التي لا يستطيع
الإنسان على ما وصل اليه من علم وفتوحات أن يتصدى لها، وحتى إن فعل، فإنها تحصد
ارواحا كثيرة، تماما كما تقطعه الحروب، غير ان ضعف الانسان امام كروب الطبيعة أشد
وطأة، لأن عدوه ليس الإنسان أنما قد يكون بعوضة او أقل تماما كما حدث في الوباء الذي
انتشر في اسبانيا عام 1918 حيث العدو مجهري وأقل من يعوضة. عن بعض هذه الأوبئة
التي أثبتت ضعف الإنسان أمام العدو والمجهول المجهري كما أمام المجهول الكوني القادم
من خارج المجموعة الشمسية. هذه الحوادث الكبرى التي يسببها ضعف الانسان أمام العدو
المجهري تسببت في تغير الرؤيا إلى العالم/ والوجود والحياة. كطاعون **جستنيانما** الذي
قضى على نصف سكان العالم بين القرنين السادس والخامس الميلادي. أو الأوبئة التي
ظهرت في القرن العشرين وأخطرها الإنفلونزا الإسبانية التي حصدت أكثر من 20 مليون
شخص، وتسببت في الخراب ذاته الذي سببته الحرب العالمية الأولى في نهايتها. هذه
الحالات التي يتغول فيها كائن مجهري، ويتسيد بقوته الضعيفة على ضعف الإنسان هي
محل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ

يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ
وَالْمَطْلُوبِ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)) الآية 73_ 74 الحج،
لأن هناك قانونا يسير اقوى من قانون الإنسان/ الصنم؛ الذي عبّد كل شيء وجعله خادما
امينا، لكنه جهل ضعفه بأنه يصنع مالا يملك عليه قدرة. لان المادية التي تدعوا إليها
الإنسانية الحداثية والعلمانية إنسانية مادية لا تؤمن إلا بما تخلق أو كما يهيا لها.

يثبت هنا تماما هذا أضعف الذي وصف به الإنسان ليس أمام خالقه فقط، وأمام
الغيبات التي يجهلها، ولا الظواهر الكونية التي قد تواجهه وهو أضعف من أن يصدها او
يواجهها. بل أيضا يتجسد هذا الضعف أمام مخلوقات قد لاترى بالعين المجردة، وهنا يمكن
لنا أن نعيد قراءة الآية (ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ) وإحاطتها بالضعف الإنساني المساوي
لضعف أقدر مخلوق حيواني. الذي يملك قوة ان يستنفذ من الإنسان قوته من دون أن يتمكن
من اعتراضه. " وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ " .

(أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ)، لو لم يكن المخاطب متأكدا من هذه المعرفة ستوصل إلى سبيله
وفهمه لما دعا إلا المنهج النقدي في التفكير والتدبر أي العمل الفكري المنهجي، وجعل
للمعرفة منهجا.

وهو على كل هذا لا ينكر على الخلق النقد وإعادة النظر، وتكراره، لأنه أدعى إلى
الفهم، فالتدبر منهج نقدي استقصائي، يتبع الحقائق ويسعى وراءها للتأكد أو النقض.. ذلك
أن هذا الخطاب (قرآن كريم) يتضمن في عنوانه كما وصفه صاحبه كرم المعنى والدلالة
وهو أيضا كريم في البحث عن قارئه (وقد سمي قرآنا لكثرة قراءته) ومتدبره الذي يتقن قرآنه
وتأويله وتفسيره وتفصيله، لأنه أيضا (كتاب مكنون) يحمل أسرارته التي تحتاج على كرمها في
التوضيح وتمنّعها عزة وشرفا مبنى ومعنى في الإيضاح إلى كريم يفك شفراتها.

الباب الثالث:

الخطاب القرآني/ الديني التماثل والاختلاف.

الفصل الأول:

النّص والواقـع

المطابقة والاختلاف

1_ الخطاب القرآني، الإنسان والعالم:

يقع النص في مفترق طرق بين الإنسان وبين العالم، الإنسان حامل والعالم حامل ثان، الإنسان الذي أشكل عليه الإنسان كما قال التوحيدي، وهو في إشكال أكبر من أي زمن آخر؛ إنسان لا منتمي، لا يؤمن، غير واثق، لا يرتبط بنص، مضطرب بالشك واللا يقين، إنسان التكنولوجيا إنسان سالب؛ أنكر إنسانيته باستثمارها فيما يستنفذها، يستنفذ حواسه بصره وسمعه وإصغائه وعقله وجسده وينهيه مجرد شيء تعبت به الأشياء والأفكار. إنسان تعمل حواسه بدون تفكر ولا وصول إلى معرفة ما، المعرفة جاهزة واليقين مفقود. هناك لا توازن حاصل بالخروج عن نطاق النص.

بالنسبة لكائن حداثي: الإنسان يعتبر ذاتا تعرف وتعمل وتأمل. وتبحث عن مسلك تنويري، اعتمادا على فتوحات العلم والفن والثقافة، إنه يرى الإنسان بعين براغماتية، فهو يبحث، أولا عن الطريقة التي يستعمل بها الإنسان نفسه، وثانيا يعلن عن طموحه في تأسيس (مجتمع المواطنة العالمي) "يعرفه هايدغر: الإنسان هو نفسه: أو الإنسان هو نفس ما".¹

أما عند فيلسوف وشاعر مثير للجدل كنيثشه، فإن الإنسان هو إنسان القوة لا الضعف، أنكر نيثشه على الأديان ووقوفها مع الضعاف، فخطاب المقدس هو خطاب الحماية للضعفاء المحتمين وراء الجاهز والثابت. وأراد بصورة ما للقوة (قوة الشر) أن تنتصر، إنسان الشر أو صاحب الجريمة الشريفة "دراسة الشر بحث عن فن الاختلال الذي يولد منه الإبداع؛ ولا يمكن للإنسان هذا، أن يكون أملا إلا بترك إنسان البداية والمكان للإنسان الاصيل في الفرد نفسه وهو المقصود بفعل الجريمة الشريفة في حق الضعيف والكسول وما يشد الى العجز والموت في الإنسان، أي ذلك الاقتراف الفني للشر في حقه كفاتحة لاقترافه تراجميا: التخلص من الأصنام حتى يتمكن الإنسان من إبداع الإنسان فيه على شكل صور قابلة

¹ _ نيثشه والإنسان الاخير، إدريس شرود، مجلة أنفاس، مقال الكتروني، يونيو 2016 تا مشا: 2018/12/12: 23:39

للزوال باستمرار "رفض مقولة الإنسان الأخير لأنها منافية للعقل ومنافية بحسبها لإيقاع العالم: إيقاع التجاوز"¹، تبدو مقولة نيتشه الذي وقف سندا لزعيم النازية هتلر، أقرب إلى الموقف السياسي، إرادة القوة والسلاح والمادة، لا إرادة الضعف. الشر الذي كان حجة الكينونة الأولى، وكان أيضا حجة تمايز واختلاف: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ" البقرة، لقد سبقت الملائكة التركيز على إمكانية الشر في أفعال الانسان قبل تجربتها ومعرفتها خيره، أو عمله الصالح أو الطالح؟، الشر الذي هو اساءة استخدام الإنسان للإرادة الحرة ويرى البعض كـ"كوجيف الذي أثنى عليه فوكوياما: أن إنسانية الانسان تكمن في مطلب الاعتراف به، او تحقيق الانسان لرغبته في الاعتراف به، وبعمله في السيطرة على الطبيعة"²، والمقصود هنا تأكيد قدرته على التواصل مع الأشياء وتطويعها باستخدام إرادته في ذلك.

إن إرادة الإنسان في الحياة إرادتان، فردية واجتماعية، ولهذا فإنه لا يتحقق هذا التناغم في المجتمع إلا إذا تحقق التوازن والتكافل، والاعتراف، بالأنا والمغايرة، " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات 13)، فهذا الاختلاف المقصود، بدءا من الجنس يحقق التكامل، ثم الاختلاف الأعم بين الشعوب والأنواع، والأجناس واللغات، بحيث تظهر فيه قيمة التفاوت والحاجة إلى الآخر. القول بالاختلاف هو نوع من الاعتراف بالذات؛ التي لا تتحقق إلا بالتمايز.

¹ هذا هو الإنسان، فريديريش نيتشه، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت، بغداد، ط2، 2006، ص 8.

² نيتشه والانسان الاخير مقال مجلة انفاس.

2_ النص_ السيرة والمشارك الإنساني:

وثيقة المدينة أو صحيفة المدينة هي أول دستور في الإسلام، بفضلها صارت المدينة المنورة يثرب، دولة توافقية أساسها العيش المشترك للأمة الواحدة على اختلاف فصائلها وطوائفها ورؤسها أو (قائدها) محمد بن عبد الله النبي البشري، ومقرها المكاني يثرب، يبدأ تاريخ هذه الأمة منذ الهجرة من مكة إلى المدينة، حين لجأت جماعة دينية من المستضعفين والمضطهدين إلى لواء أمة شاملة باسم الخطاب الديني الجديد، الذي يحمي الضعيف والفقير والبسطاء من الناس على أساس من إنسانيتهم وفعاليتهم ومساهماتهم في صالح الجماعة، هذا الوطن الذي جمع الفصائل المختلفة في جغرافيا المدينة المنورة دون تفريق عرقي أو ديني، إنما على أساس من احترام الحق في العيش والحرية في العقيدة، إذ جاء حامل النص (النبي) موجها ومرشدا ومبلغا، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلَّا الْبَلَاغُ﴾ الشورى:48، ولا حق أو سلطة له في إكراه بشري على معتقد أو توجه ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ البقرة:272. إنه خطاب نابذ ناسف للمركزيات ولسلطة الأقوى، ونصّ مجسد لفاعلية الآخر (اعتمادا على إنسانيته) في تشكيل الأنا الجماعية، وفي إقامة الدولة العادلة والأمة المتساوية الأطراف حقوقا وواجبات. أقر هذا الدستور حرية الأديان والمعتقد، والحق في الاختلاف، والتسامح والمساواة في الحقوق المدنية.؛ كما اتفق على ان يتحد أفراد الأمة الواحدة على أعداء الدولة، إذ متى كان الخطر واقعا تعيشه الأمة وجب على المختلف أن يتحول الى متآلف قومي.

تأسست الوثيقة سنة 1 من الهجرة عام 623 ميلادي؛ على أرضية اجتماعية توافقية مختلفة الأجناس تشكل سيفساءها البشرية من مهاجرين منتبذين من قبائل مختلفة ومن مستقبلين لهذه الأطياف من أصحاب المدينة (الذين اصطلح عليهم بالأنصار) ومنهم أعراق وديانات مختلفة وعقائد متخالفة، لتصبح جماعة متجانسة التطلعات في بناء دولة الحق والقانون قوامها الإنسانية والحرية في العبادة والعيش الكريم.

موضوعات النص الوثائقي النبوي ونقرب من مبادئ العيش المشترك في السيرة النبوية كمنهاج تتبعه الأمة الواحدة رغم تعدد أطرافها وشيعها، عكس ما يحدث في الراهن من تناحر وتشاقل بين الفئة الواحدة والمعتقد الواحد، لذلك سنتعرف أولاً إلى نص الوثيقة التي كانت أول نص يكتب في تاريخ العرب من غير الإبداع على الجدران وماكتب من نظم قبل قيام الدولة الجديدة.

لقد أرسى الخطاب القرآني مبادئ المدنية، من خلال النظام الذي انتهجه الرسول محمد في التعامل، فالنبي كشخص نموذج /قائد، يحتذى به في الطباع والخصال والمعاشرة والتواصل والتبليغ، هذا النظام المبني على التعايش والاختلاف في الدين والرأي والأعراق والمستويات الاجتماعية: "وهو مجتمع لا يخلو من المغايرة الاجتماعية/ العقدية، فقد جسدت السيرة العملية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي أرسى قواعد أول مجتمع متنوع دينياً، من خلال وثيقة المدنية التي نصت على أن المسلمين واليهود يمكنهم تشكيل مجتمع واحد، وأمة واحدة، مع بقاء كل طرف على دينهم ومعتقداتهم، وقد كان مقدرًا لهذه الوثيقة الدستورية المدنية؛ الأولى من نوعها والمعرفة بها عند العرب¹، أن تحكم العلاقة بين المسلمين واليهود لولا أن الطرف الآخر وهم اليهود نقضوها، وأداروا ظهورهم لها.² .

فحياة الرسول العملية كانت تطبيقاً للنهج النصي الذي أسس للاختلاف والتعايش، ومسرحاً لتقديم هذا الخطاب وتمثيله على الواقع. فقد ضمت هذه الوثيقة الدستور في السنة الأولى من الهجرة أي في أول قيام للمدينة الإسلامية (52) إثنان وخمسون بنداً، (25) خمسة وعشرون بنداً منها في المجتمع الإسلامي، أما الباقي ففي ترتيب علاقة هذا المجتمع مع بقية أصحاب الأديان والعقائد الأخرى ممن يرتبط بالجوار أو المتاخم للجغرافيا، وترتيب

¹ _ التوضيح من الباحثة.

² _ حسين الخشن، الإسلام والعنف، قراءة في ظاهرة التكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1 2006، ص92.

العلاقات التي بين الديانات والعلاقات الانسانية عامة؛ وكلها مبنية على احترام الحريات. ورتبت هذه الأولويات في وثيقة التزمت بأولويات الخطاب الجديد، وبتنظيم وتحقيق التوازن بين النص_ القانون والدستور والإنسان؛ وهذا نص الوثيقة:

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وواعد فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم: «بسم الله الرحمن الرحيم¹ هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وذكر كذلك في بني ساعدة، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النبيت، وبني الأوس، وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن من دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء أو عدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبيء بعضهم عن بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مأللاً

¹ ينظر قصة الحضارة، عصر الإيمان، وول ديورانت، ترجمة محمد بدران، ج2، ص4، أشرفت عليه الادارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ص33_34.

لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، ومُنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً ولا يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، بني النجار مثل مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يؤتغ إلا نفسه وأهل بيته. وذكر مثل ذلك لليهود بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني ثعلبة، وبني الشطبة، وإن جفنة بطن من ثعلبة، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإن البر دون الإثم، وإن مواليتهم ثعلبة كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وإنه لا ينجز عن ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لن يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حُرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل إنسان حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكتسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على

أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم، وإن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.¹ هكذا ذكره ابن إسحاق².

_ الاعتراف بالمختلف في نص السيرة النبوية:

في مقدمة النص تظهر الوثيقة كدستور بين طرفي هذه المعاهدة الميثاق؛ لا يعلو فيها طرفٌ على طرف بجنسه أو عرقه أو لونه، أو دينه أو جغرافيته، فالطرف المعاهد الأول فيها هو محمد البشري وصفته (النبّي) وهو القائد وأعلى سلطة في الدولة المتآلفة، من يهود ومسلمين، وهو هنا لم يتصف بعرقه ولا بنسبه ولا بقبيلته ولا باتكائه على مجتمعه الذي انتمى إليه سابقا، محمد البشري بن عبد الله بن عبد المطلب أشرف أشرف قريش الذي كان من الممكن أن يضع اسمه على الوثيقة ويكون حقا لشرفه وقبيلته واسم عائلته أن يكون ميثاقا. كان يستطيع أن يوقع بكنيته الأمين، لكنّ المشترك الإنساني أقوى، وصفته الجامعة بين العوالم السفلية والسماوية أمتن، ولهذا فإن صفة كنبّي قائد هي أوثق صفة وأصدق كنية يمكن لأطراف المدينة أن يلجؤوا إليها تحقيقا للعدل والمساواة بين أفراد الجماعة، فلا يحكم محمد البشري حين الخصومة، ولكن يحكم بسمات النبيّ الاسم الجامع. وما محمد إلا بشري وسيط_ في صفة نبّي.

تأسس المجتمع المدني في يثرب من طوائف وجماعات؛ في العرق بين عربية وغير عربية، مختلف في العقيدة بين وثنيّ ومسلم ويهودي، بنو عوف وبنو النجار وبنو أوس وبنو ساعدة، وبنو ثعلبة... ومثلهم فيهم من اليهود أمة واحدة، فالمختلف فيها جار للمختلف، ويثرب

¹ - سميح عاطف الزين، خاتم النبيين، محمد صلى الله عليه وسلم، مجمع البيان الحديث، المجلد 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1. 1983، ص 47_ وص 48.

² - ابن هشام أبو محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية: دمشق، دار الفكر، د، ت، ت ينظر الصفحات: 368_ 370، وللاستفادة ينظر أيضا السيرة النبوية لابن كثير دمشقي، وعيون الأثر في فنون المغازي لابن سيد الناس.

محضن للوفد من المهجرين قسرا من أصحاب العقيدة المهجرين والمستضعفين؛ وتلك طبيعة الثقافة إسلامية التي تمتاز بعدم الانتماء إلى قوم¹ وتحقق الأمن لهؤلاء بالجيرة والنصرة. لهم الحقوق ذاتها وعليهم الواجبات ذاتها بدون اختلاف، ولا يسأل كل بطن عربي أو مسلم أو يهودي عن دينه في هذا الكل الجامع، إلا بما اقترف كل فرد ليعود عليه ما اقترف دون تجريم للقبيلة ولا للعرق أو الجماعة الدينية. إنَّما يحاسب الفرد بما وتغ. (أثم وساء خلقه وأفسد كان قليل العقل في كلامه)² وهنا تظهر قوامة القانون على الجميع أيضا وعلى كل الطوائف؛ فالمسؤول عن الجريمة مسؤول وحده لا تكلف الجماعة ظلمه وخطأه.

تتكون الأمة واحدة بالمتآلف أولا، ثم المختلف فيما يجمع إلى ما تخالف. هناك دوائر للأمة الواحدة، هناك مشترك متآلف، ثم هناك مشترك بين المختلف يجمع على ضمان السلم والأمن والحرية والعدل في ظل الدولة، حيث تصبح حرمة النفس أولى من أي قيمة مطلقة أخرى. والحرية الدينية المكفولة عنصر يحقق القبول والعيش في سلام وأمان "وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" (الوثيقة)؛ وهو ما تطلبه أي دولة متحضرة وما تقره كل مدنية، فالأمم تعمل اليوم على تجاوز محن الشقاق والتفرقة الدينية بالعودة إلى ما يجمعها لا ما يفرقها لخلق مجتمع متجانس رغم اختلافه عقيدة وطوائفا؛ فقد استطاعت الجمهورية الثالثة في فرنسا [مثلا] تجاوز الصراع الطائفي بين الكاثوليك والبروتستانت، بتدريس تاريخ ما قبل المسيحية لخلق هوية جماعية يتعرف فيها جميع الفرنسيين على أنفسهم، تتعالى على الهوية الدينية، دون أن تنفيها³.

هناك صور كثيرة لهذا التسامح والقبول بالأديان المختلفة، فعند قدوم الوفود بعد ولاية محمد البشري وانتهاجه بمنهاج النبوة يستقبل وفد نجران من النصاري في مسجد المسلمين وتحين صلاة الوفد في الجامع النبوي، ويصلون صلاتهم متجهين إلى المشرق في مسجد

¹ محمد الأوراعي، لسان حضارة القرآن، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، أمان، لبنان، الجزائر، المغرب، ط1، 2010، ص 18.

² المعجم الوسيط مادة وتغ.

³ سعد الكموني، العلمنة الأسلمة نعم.. ولكن؟ م ث ع. بيروت لبنان. الدار البيضاء المغرب، ط1، 2014، ص 92.

المدينة حتى يعترض أصحاب محمد، لكنه (محمد_ المنهاج) لا يعترض¹، إنما يترك الوفد يتعبد في البيت فهو في النهاية بيت الله ما يؤسس لاجتماعهم لا اختلافهم. ويقف محمد لجنزة رجل لا يعرفه من اليهود من عامة الناس؛ لأن حرمة النفس البشرية أشد وأقوم من حرمة العقيدة المختلفة. أما عن منهاج أتباعه فيترك عمر الخليفة وصية بعده يوجه فيها إلى منهاج العدل في الأمة الواحدة حتى لا تنافر ولا تتباغض (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة). يفظن هؤلاء الرجال الحكماء الى ان السبيل الى مجتمع يسوده العدل ويخشى بعضه على بعض هو ضمان الانسجام بتحقيق قبول الاختلاف.

_ فقيمة الإنسان فيما يملكه من القيم، والعدالة هي الفضيلة الأولى التي من شأنها أن تمنحه شعوره بوجوده الأصيل الذي يكون فيه هو الحاكم وفي نفس الوقت هو المحكوم كما يقول جول رولز² ولهذا فإنّ نصّ الوثيقة يجعل المواطنين متساوين في الحقوق، والواجبات اتجاه الوطن الذي يعيش فيه الجميع؛ " وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم " (الوثيقة)، كما أن على الجميع نصره وحماية الوطن دون تحديد لهوية مؤتلف أو مختلف؛ لأن ما يصيب الفرد أو الجماعة في الوطن واحد ينسحب على من يعيش فيه، وان يتفق الأطراف على الوقوف معا في النصره وفي مواجهة عدو الجماعة والمجتمع: "وأن بينهم النصر على من داهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونهم ويلبسونه فإنهم يصلحونهم ويلبسونه" (ابن_ اسحاق).

بيان المدينة وتاريخ بيانات الفاتحين:

المطابقة والاختلاف:

في تاريخ البشرية الطويل والممتد فتوحات وحملات لاستيطان جغرافيا مخالفة، فقد قامت الكولونيالية عبر التاريخ على الاستضعاف والانتباز وإقصاء المستعمر، واعتباره مهملا يصل

¹ _ محمد الصوباني، السيرة النبوية، العبيكان، الرياض، ط5، 2014، ص220.

² _ عبد القادر بن نزار، أفق العيش المشترك من خلال نظرية العدالة لجون رولز، ص 238.

درجة العبيد؛ وتشير بعض بيانات الفاتحين أو المستعمرين إلى اعتبار اهل الجغرافيا المفتوحة كما يسميها هؤلاء أقل درجة من الفاتح، وأدنى قيمة ويتم الارتكاز في ذلك على الخطاب اللاهوتي، الذي يخول لهؤلاء بفعل أوامر من البابوات_العصوات الملكية والاستعمارية ليعتبر الفاتح فيها مواطني الأراضي المستغلة والمستنزفة أقل درجة وفي حكم العبيد أحيانا كثيرة والتاريخ المعاصر للكولونيالية شاهد على ذلك، فتنحى الإلغائية والإقصائية حد التقتيل والتهجير والسبي والنفي وأحيانا الإبادة كما حدث مع عرق اليهود في أوروبا أو الهنود الحمر السكان الأصليين لأميركا عند فتح أميركا، وسناتي على ذكر البيان ومنهج الخطاب فيه المبني على الترهيب وسلب الحق باسم الميثاق الإلهي.

إن الأصل في الاختلاف الصراع والنزاع لقيام الاختلاف على المغايرة والتمايز، وحتى تحقق المدنية حداتها وتطورها على الكل أن يتماثل ويشكل المجتمع المتكامل، من المؤتلف والمختلف في هذا المجتمع؛ لا سيما إن كان هذا المخالف مجرد أقلية تعيش في كنف أمة كبيرة متماثلة. ونعود إلى بيان المدينة الذي أحق فيه محمد كقائد ونبيّ قيمة الأقليات الموجودة في المدينة كأفراد ثم كجماعات تشكل بناء الكل، محترما ومحقا احترام خصوصيتها وخصائصها ودمتها المالية وحريتها العقدية، حكم راشد يتفوق في زمن ماض ويتقارب وربما يعلو مفهوم الديمقراطية "التي تنشأ من اختلاف الآراء وتفرض الخضوع لرأي الأغلبية، لا بدّ لها من احترام وتحقيق العدالة للفئة التي لا تتبني نهج أو طرح الأغلبية. لأنّ تعبيرها عن رفضها قد تم من خلال الأسلوب الديمقراطي لذلك يجب احترام قناعات الأفراد قبل الجماعات"¹

¹ علي عبود المحمداوي، الفلسفة الغربية المعاصرة، موسوعة الأبحاث الفلسفية، صناعة العقل الغربي، من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج، مجموعة من الأكاديميين العرب، إعداد: علي عبود المحمداوي، تقديم علي حرب، دار الاختلاف، ضفاف، الأمان الجزائر لبنان، المغرب، ج 1 و 2، ط 1 2013. ص 1556.

إلغاء مصالح الذات وبذلها في سبيل الجمعي، حيث تلغى الاتجاهات والمؤسسات الفكرية والدينية المتخالفة كمغاير لحساب المؤتلف الجمعي الذي يجمع ولا يفرق بذل النفس والمال لمصلحة الوطن.

رسّخت الوثيقة لمبدأ الجامع والمشارك وتحقيق ذلك رغم الاختلاف البين في العقيدة والدين والطائفية والعرقية والذاتية حيث يذوب الكل ذلك في مصلحة عالم متّزن تتحقق فيه المساواة من حق تقبل المغاير وتمايزه واحترامه، ثم من تحقيق الانسجام الجمعي والجماعي والاجتماعي بفضل هذا المختلف.

فتحقيق التكامل يبدأ بالاعتراف بالأنا من حيث هي نحن، لتجانب التصادم أو العيش في الرهاب والقلق من وجود الآخر، إن تقبل الآخر على اختلافه وعلى أنه ليس ذاتا وليس نحن، ووجوده هو من اختلافه، كفيل بأن يجعل هذا العالم الخائف القلق والمتوتر آمنا بمسالمة خاصة إذا تعهد كل فرد في الأمة بحقوقه وأدى ما عليه إلى غيره؛ "قالق القانوني هو الذي يضمن حرية الأفراد واستقلالهم الذاتي، لأن الفرد يتقاسم مع الآخرين مميزات الفاعل الأخلاقي المسؤول عن أفعاله بحيث يتمتع بحريته المعترف بها اجتماعيا والمضمونة قانونياً"¹

شكلت وثيقة المدينة القائمة على حق العيش المشترك بين ساكنة مجتمع يثرب في القرن 6 ميلادي أساسا لقيم التقبل واحترام المختلف وحرية الدين والاعتراف بالمغاير كجزء لتحقيق العيش والسلم والامن في الوطن الواحد. حتمية العيش المشترك لإلغاء وتقبل الفواصل الإثنية والعرقية والطائفية والثقافية. كما تأسست على الاعتراف بالآخر من خلال تقبله في نسيج المجتمع، " فالاعتراف المتبادل كفيل بوضع حدّ للصراعات الاجتماعية القائمة على السيطرة والهيمنة والظلم الاجتماعي وبالتالي يستطيع الأفراد تحقيق ذاتهم"² هناك التباس الاختلاف والذي يرسم له حدود لا يتجاوزها الطرف تتحقق بالتسامح والقبول خشية الوقوع في الصراع مع

¹ _ المرجع السابق ص نفسها.

² _ المرجع السابق ص 1557.

المغاير في الوطن الواحد أو في العالم المشترك، "التسامح بما هو سياسة مؤسسية هو مجموعة من القواعد تنظم خشية من الجزاءات"¹ لأن أي بنية مجتمعية تقوم على المختلف لأبد أن تبني على نوع من النزاع وإن كان مضمرًا أو مؤجلًا إلى حين. ولهذا فإن الدولة التي تقوم على منهج الاعتراف بالآخر والتسامح في أن يؤدي المغاير ما يتحقق به اختلافه هي دولة تؤسس لمناعة اجتماعية ضد الهزات والخلافات والصراعات. ولعله ما جعل محمد القائد الذي جاء ليبنى دولة على أساس خطاب لاهوتي، يتجنب الأقساء وانتباز الآخر من دولته. وإن كان مغايرًا عقديًا؛ باعتبار كل جماعة نسقا مغايرًا يحافظ في البيئة التي يتعايش معها على تمايزه، كما يحافظ على قيم العيش المشترك مع "الزامية احترام النسق المراقب"² أو المهيمن خاصة إذا كان هذا النسق السياسي أو الاجتماعي محققًا لكفالة بقية الأنساق، يتواصل معها بما يحقق الإنفتاح والانغلاق لكليهما فيحافظ كل على خصائصه ومميزاته وحسب" تعبير لومان يتم التواصل داخل كل نسق بناء على منطق ذاتي مستقل عن الأنساق الأخرى"³

إن الحضارة الأمريكية بماهي هي أمة تأسست على مجموعة أنساق اجتماعية وسياسية وهوياتية مختلفة؛ قامت في حقيقتها على إبادة عرق بأكمله، لتكون أمة متخالفة الاجناس والأعراق حمل الفاتحون الذين يهللون الآن للحرية والعدالة وقبول المختلف واحترامه على تاريخ من الإبادة والعار، إذ حمل هؤلاء الفاتحون وعلى رأسهم كولومبوس، بيانًا لإقامة دولة دينية_لاهوتية، وحين يكتب للملك في اسبانيا يقول: "إنه بنجاح حملته فإنهما ينجحان في تحويل جماهير غفيرة إلى ديننا المقدس، في الوقت الذي تكسبان فيه لجميع شعوب إسبانيا مقاطعات وثروات عظيمة"⁴ لتحمل هذه الحملة التي من شأنها أن تحمل الحضارة بيانًا يجعل من الهنود عرقًا لا دينيًا أدنى؛ إذ لم يتم اختزال الهنود الى عرق أدنى بمعزل عن الرؤية الدينية والسياسية

1 _ هانتادي مارك، مع فجر العالم المشترك، فلسفات معاصرة، ع2009، ص 118.

2 _ نيكولاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ط1، 2010، ص 86.

3 _ م ن ، ص نفسها.

4 _ عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المؤسسة ع للدراسة والنشر، بيروت لبنان، ط2، 2003، ص307.

التي توجه عمل الفتح إنما كان ذلك الاختزال نتيجة مباشرة من نتائج علاقة الفاتحين بالمفتوحين. إذ لم يمر وقت قصير حتى صدرت الوثيقة المعروفة بـ **requerimiento** وهي عبارة عن خطاب_ وصية موجهة إلى سكان البلاد المفتوحة، وقد صاغها الحقوقي الملكي بالاثيوس روبيوس مضمونها: ايراد تاريخ موجز للبشرية تتمثل ذروته في ظهور يسوع المسيح الذي جرى اعتباره (رئيس الجنس البشري) ونوعا من عاهل أسمى يخضع لسلطاته الكون كله، وبمجرد نقطة الانطلاق هذه فإن الأمور تتابع على على وفق الرؤية اللاهوتية_ الكنسية للتاريخ¹؛ وتظهر حدية التعامل مع البلد المفتوح في هذا الموقف التاريخي مقارنة بالموقف المبني على قيم التعايش وعدم الإقصاء في الوثيقة النبوية التي لم يأت في نصها تمجيد لمحمد النبي، ولا محاولته لتهميش ونبذ الطائفة والجماعة المختلفة من تأسيس الدولة الإسلامية الجديدة والقائمة في منهجها على النص والخطاب القرآني.

ثم تضاف هذه الوثيقة الفاتحة كيف انتقلت السلطة من يسوع إلى البابوات وكيف سلم البابوات الجغرافيا الأمريكية للإسبان كنوع من الفتوى الدينية فتقوم الدولة المترامية الأطراف على التوارث الديني المنتبذ للجنس والعرق المخالف "فقد نقل يسوع سلطته الى القديس بطرس ونقلها هذا الى البابوات الذين خلفوه وقد قام احد البابوات الأخيرين بمنح القارة الامريكية للإسبان وجزئيا للبرتغاليين..."² أما إذا لم يقبل السكان الأصليون هذا العرض المبني على سلب بلادهم ومنحها لفئة أو جماعة أخرى على أساس ديني فإنهم مجابهون بالغزو والتكامل وسبي أولادهم ونسائهم واختزالهم إلى مرتبة العبودية كما تقر الوثيقة السابقة بذلك.

حين نستظهر قيام الحضارات الكولونيالية المختلفة والمآسي التي تحدثها ما يسمى بالفتوحات الحاملة للديمقراطية والخير والتطوير، والتي قامت في حقيقتها على وثائق وبيانات لاهوتية، تجعل من الشعوب المستعمرة أو البلاد المفتوحة ملكا مشاعا للفتاح، ويختزل أصحابها

¹ _ م ن، ص 308.

_ المرجع نفسه ص نفسها.²

إلى عبید وإلى عرق أدنى. أمام هذا تظهر الوثيقة النبوية احتراماً وتسامحاً لكل أطراف المجتمع الذي يريد بناءه في المستقبل والذي قام في حقيقته على الخطاب القرآني، لكنه خطاب منصف للمركز والتخوم، لم تأخذ فيه طائفة مزايًا على حساب طائفة أخرى، كما أن الفتح أو التجانس الحاصل بين الأطراف المواطنة لم يرقم على العنف إنما المسالمة والتآخي. وكل طائفة تقدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ (الوثيقة). فهي دولة أحد دعائمها الكبرى القسط_ العدل بين الجماعة. ومن ذلك احترام الذمة المالية لكل طائفة وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، الوثيقة.

فليس من حق الطائفة الأغلبية أن تسلب الطائفة الأقل حقها في اقتصادها المالي الذي أقامته لذاتها. وإذا تحقق الأمن الاقتصادي تحقق الأمن والسلم الاجتماعي. وبخلاف الفاتحين عبر التاريخ، فإن وثيقة أو دستور المدينة أقرت سواسية وتساوي المواطن في الدولة الإسلامية الجديدة: وإن اليهود يتفوقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. لتتكئ البنية الجماعية على مجموعة من الأنساق التي رغم أنها تختلف عن بعضها في خصائصها الدينية والعرقية، إلا أنها تنتمي إلى وطن واحد، تتفق فيه هذه الأنساق/ الجماعات في النهاية لتشكل ذاتاً من المختلف تقوم كجسم مناعي ضد أي خطر يهدد الدولة والمجتمع، الأمر الذي لم تصل إليه بيانات الفتوحات السابقة ولا اللاحقة من احترام للأقليات والأديان وتجاوز العنصرية والتمييز بين مواطني الأمة الواحدة بل لم تتوصل إليه الدساتير والوثائق المدنية إلا في القرن العشرين بما فيها ميثاق الأمم المتحدة الضامن لأحقية الاختلاف والتميز والمواطنة للأقليات العرقية والإثنية والعقدية. نشير هنا أيضاً إلى مقدار التسامح والتجاوز الذي بني عليه خطاب فتح مكة الموجه لجماعة من المناكفين الناكثين لعهود السلم التي عقدتها قريش وحلفاؤها مع محمد وحلفائه، ثم تخلف العقود والعهود بمجموعة اغتيالات وعمليات قتل قضت على معاهدات التعايش والمسالمة؛ فهذا الخطاب ظهر فيه محمد المنتمي

للعشيرة/ اللامنتمي دينيا، مخاطبا صاحب سلطة متسامحا محترما للرموز السابقة في جغرافيا مكة وإن كانت مخالفة له.

ذكرت الوثيقة في أكثر من موضع فكرة التآلف في الحرب رغم الاختلاف في الدين، ذلك أنه وكما يرى **هنتجتون**: أن الحروب رغم ما تقود إليه من دمار وخراب، إلا أنها تؤدي دورا إيجابيا من حيث أنها تساعد على الاتحاد الهوياتي بين الأمم خصوصا عندما يكون العدو ينتمي إلى هوية مختلفة... فالحرب تصنع الدولة وتصنع الأمم أيضا (بتصرف)¹ وهو ما وجهت إليه الوثيقة الدستور أن لكل نسق اجتماعي هويته المخالفة للآخر لكنهم في الوطن سواسية اتجاه الخطر والعدو المتربص بالدولة أو الأمة.

وكانت هذه الوثيقة التي بنى أسسها محمد بن عبد الله البشري الأمي بتربية إلهية هي هي خير ميثاق إنساني للتعايش السلمي، واحترام الحقوق الانسانية واحترام الاختلاف والمشارك الإنساني، حيث " يبدأ الآخر حين يبرز الوعي باختلافي " باختلاف الأنا والنحن"، وينتهي عندما نعترف هو وأنا بكوننا نشكل ذاتا مغايرة كما يقول بول ريكور²؛ مع ذلك لا يلغي هذا النهج الاختلاف ابتداء من تمايز كل فرد عن الآخر واختلاف قدراته؛ خاصة إذا وجدت هذه الذات المختلفة في المجتمع ما يحركها نحو العطاء والبروز، لأن الإنسان أيضا وليد البيئة التي تعيد تشكيل فطرته، "يذكر فروم أن الانسان يدرك قدراته الذاتية عن طريق الظروف الاجتماعية التي يعيشها..³". وهي ظروف استوجبت رسالة ومرسلا بشرا، منها ويختلف عنها، رابط ووسيط. بين عالم أرسل المنهج، وعالم أرسل إليه لتطبيق المنهج.

¹ - صمويل هنتجتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، دمشق، ط1، 2005، ص 44.

² - مجموعة من المؤلفين العرب، الفلسفة الغربية المعاصرة، الاختلاف، ضفاف، الجزائر لبنان، ط، ص 858،

³ - دالاس لابين وبيرت جرين، مفهوم الذات، تر فوزي بهلول، ص 25.

يظهر هذا النص_ الدستور قائماً على احترام الآخر في حرّيته ومعتقداته خاصة، واحترام الفرد في جماعته؛ ونبذ الإلغاء والاحتقار، وفي الجغرافيا الزمنية ذاتها "أي في القرن ذاته 6 و7 ميلادي" كان البشري منفيًا ولا منتمياً ومنبوذاً إذا كان مختلفاً أو ناقصاً.. في المعرفة الدينية القروسطية " إذا كانت أثريات اللغة عند نيتشه تكشف عن مدى الوهم الذي صنعه الوعي الغربي (وكل وعي آخر)، فإن حفریات فوكو في المعرفة تكشف عن مدى النفي الذي مارسته الذات الأوروبية (وكل ذات أخرى) على نفسها باستبعادها المريض والمستضعف والمنحرف والمجنون، وهذا النفي الموجه صوب الدّاخل، هو وجه متمم لنفي موجه صوب الخارج، ونفي به نفي الغير، أي نفي كل ما هو ليس بغربي، نفي الوحشي، والزنجي، والشرقي وغير الشرقي..."¹. هذه الإقصائية وهذا النفي للمغاير والمختلف هي التي جاء الخطاب القرآني ليلغيها، وهو في فترة زمانية واحدة مع العقل الغربي المُقْصِي والمُهمّش للمختلف. وليحقق البديل عنها؛ "يا أيها الناس؛ ألا إن ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد؛ كلّم لآدم وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم. ألا لا فضل لعربيّ على أعجميّ، ولا لعجميّ على عربيّ، إلّا بالتّقوى..."² وأضافت بعض المصادر ، _ ولا للأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر.

كما أن الخطبة النهائية في حياة النبي محمد كخطاب موازٍ ومتمم لفهم النص كانت تنظيمًا للحياة وفهرسًا لتقييم حياة المسلم. كحرمة النفس وحرمة المال وحرمة العرض، ونبذ الاختلاف في غير الحق. وقيمة الفرد كإنسان لا بلونه ولا جنسه واحترام المختلف الموازي والمنافس والمغاير كالمراة مقابل الرجل والصغير مقابل الكبير والشيخ والضعيف مقابل

¹ _ م نفسه ص 63_ 64،

² _ سميح عاطف الزّين، خاتم النبيين، محمد صلى الله عليه وسلم مجمع البيان الحديث، ج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1. 1983، ص 910.

الكبير؛ الأنا العقدية مقابل مخالفها، الهامشي مقابل المركزي حتى ليصح القول انه لا مركزية تامة في هذا الخطاب.. تنظيماً للعلاقات في الأزمنة؛ الأمكنة، التاريخ والعوالم.

النص الواقع المجتمع: الفرد والجماعة (الإنسان في فردانيته وكرانيتها)، ثنائية تتحقق بالاختلاف والتمايز، كما تتحقق بالتعاقد والتضافر. وفي كتابه مجتمع الاحتقار يطرح هونيث أكسل أسئلته: كيف نحقق السلام الداخلي مع الذات والسلام الخارجي مع الآخرين والعالم؟ ما هي شروط الحياة الطيبة؟ للإجابة عن هذه التساؤلات يقترح علينا هونيث الانطلاق من سؤال ما هو المجتمع؟¹

المجتمع الذي يتشكل من تآلف الفردي فيه بالفردي، والجماعي بالفردي، والجماعي بالجماعي، حتى يتحقق التآلف في الجماعة الكلية، تتحقق إنتركيبة المجتمع بائتلاف المختلف، ثم ترتب ضمن أطر وعلاقات خاصة لتكبر فتصبح أعم، يتشكل من الفردي الذي هو المختلف ويتأسس عليه، والعلاقات بين جماعاته بين توافق وتعارض لكن هذا لا يمنع من تشكله على المختلف والمؤتلف، ليأتلغا في توليفة مجتمع واحد.

"المجتمع ذلك المجال الذي تتقاطع فيه الأفكار وتتعارض فيه المصالح المعنوية والمادية. في قلب المجتمع نجد الحضور الكبير للتواصل البينداتي: بمعنى آخر الاعتراف المتبادل بين الذوات والصراع من أجله. من أجل حياة ناجحة على الآخرين الاعتراف بنا وتقديرنا. نحن بحاجة إلى من يقدرنا ويحترمنا. فتحقيق الذات رهين بالاعتراف والتقدير الذي

¹ _ قراءة في كتاب مجتمع الاحتقار، نور الدين علوش، مجلة المثقف الالكترونية.

نسعى من أجله: أن نفهم الصراعات الاجتماعية بأنها نوع من الصراع من أجل الاعتراف¹.

حق كل ذات في تحقيق ذاتها من خلال احترامها وتفهمها، وقد كفل هذا الدين الحرية في المعتقد والفكر والآراء كمن دون ضرر حتى لغير الموالين، من أجل انسجام اجتماعي، يتحقق فيه الارتباط بالتقبل والاعتراف بالغير، يبدأ الغير من الأنا أو تخالفها ومغايرتها لنا؛ يعني من أفراد من نفس الجنس واللون والعقيدة والفكر، وظروف التعايش، وانتهاء باحترام الغير الذي يشكل الـ(نحن) الكبرى، أو مجتمع الانسانية، لان التقبل واحترام الاخر في معتقداته، وكفالة هذا الحق له، من أسباب يسر التعايش وضمانه، " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " البقرة 256، "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1).. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ الْكَافِرُونَ 1-6"، فالخطاب القرآني يتجه إلى المختلف المغاير والمعارض الذي يتأسس المجتمع منه حين الخطاب، ويعارضه في الدين والمعتقد وطريقة تفكيره، فهذا الخطاب يكفل حق المعتقد كما يفرض إلزامية التعايش بالتقبل، فبعد أن اكتملت صورة آخر الدين، وبعدما أعطى لنا صورا عن النسخ فيه للسابق، ما يعني أن نسخ السابق لا يعني التعارض أو الرفض، فالآيات المنسوخة بقيت موجودة في الخطاب القرآني، رغم تجاوزها بأحكام جديدة ولم تحذف منه. كذلك مع الأديان السابقة تمثل فترة فكرية وأخلاقية تاريخية لا تحذف لتكامل هذا الدين وتأطيره في صورته النهائية. لهذا فإنه بعد اكتمال هذا النص، يتوجه الى الانسانية بحق الخيار وعدم الإكراه، فالإكراه يدفع الى الكراهية والبغضاء. وهوما ينخر تشكل المجتمعات على المختلف. في حين تدعو كل جماعة باحترام حقها في الخيار، لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فاللحظة التي تم فيها التقاتل على الدين قد ولت بتمام هذا الدين، كان الخطاب يحارب لأجل تمامه، وتبليغ رسالته وبعد بلوغهما يقينا وغيبا، حل محل ذلك التوافق والسلام. وكل دعاة عقيدة أو حاملوا فكر ما؛ هم في الحقيقة وإن كانوا يحملون

¹ _ المرجع نفسه.

تعارضاً مع آخرهم فإنهم يسعون الى الاعتراف بهم وتقبلهم، ولا يتم هذا الأمر عن طريق الصراع، إنما عن طريق التعايش والفهم والقراءة للآخر.

وبالرغم من أنه وفي الراهن الفكري الذي نعيشه جدل كبير حول الإشكالية الزمنية لتحقق الخطاب القرآني، هل هو نص يتفق مع زمنه وتاريخه فقط؟ وبالتالي يتحقق فهمه وتناسبه مع الفترة التي عايشها وكانت واقعا تأسس عليها النص ثم تأسس لتوجيه ذلك الواقع. ولكن إعادة قراءته فهمه وتفسيره من بناء الذريه حتى العالم الذي يقع فيه كخطاب ثم كدلالة أحواله إلى خطاب لفهم العالم والحياة وفقاً لتغيراته وتتجدد الزمن إذ يعتبر حينها طريقة لفهم العالم باللغة. وخطاب توجيه للبشري حين يعجز عن تنظيم حياته بالخطاب والمنهج؛ " فالنص ليس مجرد معان ثابتة متمركزة في الذهن فحسب، لكنه نسق متكامل ومترابط من النشاط الذهني، والأصوات والكلمات والجمل والصور والدلالات. وهذا المفهوم يقترب من مفهوم دي سوسير الذي يرى: أن معرفتنا بالكون معقدة ومتداخلة الشكل، وأن اللغة هي التي تحدد حال المعرفة، لأن اللغة هي التي تمثل تلك الحالة من المعرفة"¹؛ بهذه الصورة يصبح الخطاب حالة من المعرفة، والفهم للماحول وتحديدًا للعالم المحيط.

ولأن هناك تغييراً كبيراً في العالم الراهن، هو الأسرع عبر كل الأزمنة؛ والتشبهت بالخطاب القرآني للتقويم كمنهج حياة يثير عند البعض تساؤلاً مفاده: كيف يمكن لنص لم يعايش اللحظة أن يقبض عليها ويرهنها، وكيف للخطاب الديني الإسلامي أن يتعايش مع العقل الراهن بعقل ومفاهيم وإعادة وتكرار وقائع من الأزمنة السابقة؟

ولهذا يبدو أن هناك **عدم انسجام** واضح بين النص والواقع اليوم، وهو ربما ما استدعى حسب كثير من المجددين ودعاة إعادة القراءة الى تجديد الخطاب الديني، اذ ليس الاشكال كما يبدو في النص، إنما هو خلل في العمل والتواصل به. بهذا المنظور لا يكمن

¹ من الصوت الى النص، نحو منهج لدراسة النص الشعري، مراد عبد الرحمن مبروك، ص 07.

الخلل في الخطاب ولا في زمنه، لا السابق ولا اللاحق؛ إنما في طريقة التفاعل والأداء بالخطاب. ففي معرض حديثه عن الأضحية والتضحية، يقول الدكتور حنفي حسن: الإنسان قيمة مطلقة. حياته مقدسة. يدافع الغرب عن حقوق الإنسان وينتهك حقوق الشعوب؛ في الغرب حقوق بلا واجبات. ولدينا واجبات بلا حقوق¹. ما يشير إلى خلل في قراءة النص والعمل به، لأن هذا النص هو ذاته الذي قامت عليه كخطاب وكمنهج حضارة تأسس مجدها لعشرة قرون تقريباً. فالخطاب تعدد بفعل التأويل المختلفة التي أفادت من النص، وإذا كان الغرب بما هم المتحكم في واقع وراهن اليوم فضل الابتعاد عن الديني، رغم أن حروبه كلها قائمة على الصليبية، أو اعتماد النص القائم على التفسير الخاطئة وأباحت الإلحاد والإيمان بالمادة. في المقابل اتكأنا على الغيب وأهملنا العمل به. فالنص الذي قوامه إعادة بناء منظومة أخلاقية أو تقويمها إلى الأصلح، لم يعد إلا متكاً لتصريفات وتخريجات سلطوية، ومذهبية. وطبيعة النص واللغة احتمال الأوجه وتعددتها، والتأويل الذي هو الاختلاف في الرؤيا والفسر والفهم، ضاعف من فرض العدول الزائف.

إذ يثبت الواقع الاختلاف الذي يتخبط فيه الإنسان المسلم اليوم يقتضي مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص بفكرة (لاتقل لغيرك قولاً لا يصدقه فلك) إذ ينبني هذا المبدأ عنصرين اثنين أحدهما: نقل القول الذي يتعلق بالجانب التهذيبي، والثاني تطبيق القول الذي يتعلق بالجانب التهذيبي²، ويتحدث الدكتور حسن حنفي عن شعيرة دينية كالعيد مثلاً، والواقع الذي تجيء فيه، نظراً للتفاوت الشديد بين دلالة المناسبة (الطقس الديني/ الشعيرة/ النص) وواقع المسلمين، بين ما يجب أن يكون وما هو كائن، بين المثال والواقع. وانحسار الفعل الإنساني المنوط بتحقيق الوحي كنظام مثالي للعالم³. هناك خلل إنساني في فهم النص

¹ _ القرآن وقيمة الانسان، حسن حنفي، موقع الحزب الديمقراطي العراقي، مقال نشر بتاريخ ديسمبر 2007، شوهذ اكتوبر 2017.

² _ ينظر طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، م ث ع، ط 1. 1998، ص 243- 246.

³ _ القرآن وقيمة الانسان، حسن حنفي، مرجع نفسه.

فالمؤتلف والمختلف وفقا للتأويل الصادر عنهما، لكن هناك اختلاف يحصل في جسد الأمة، واختلاف على الآخر، هناك هشاشة في منظومة تشكل جسد الجماعة، وهناك خلل في الفهم والتأويل لنص الجماعة الواحدة، على الرغم من بساطة هذا النص رغم كل التعقيدات، لأن الصراع أفضى إلى الأرواح؛ "والقاتل يصرخ الله أكبر والمقتول يصرخ الله أكبر"¹، إذ كلاهما يحتكم إلى النص، لكن الواقع يجسّم خلخلة في الميزان والانسجام بينه وبين النص !

فما "يقوم عليه النص وما يوجه إليه القول من أخلاقيات وطرق تعامل، لا تتلاءم أبدا مع ما يحدث في الواقع العربي الإسلامي؛ ويحيل على التشظي والمفارقة، وهو ما يحمل على فعل النفور والاستنفار والرهاب الحاصل عند الغير/ العالم المخالف في الرؤيا والعقيدة والجغرافيا والعرق والجنس واللون، من هذا القول الذي لا يحقق التلاؤم فيدفع إلى عدم التصديق. واقع المسلمين اليومواقع جرائم قتل واغتصابات وسرقة واختلاسات واغتيالات، جرائم لا حصر لها تقترب باسم النص وباسم أحقية الجماعة بالنص دون غيرها، لتوسيع الهوة والاختلاف أكثر فأكثر، وتحقق رؤيا البخر في الجماعة المسلمة؛ "واقع تتم فيه التضحية بالإنسان والحيوان معاً"².

ولهذا فإن الحياة التي يحيها الفرد المسلم هذه الأيام هي أعشار حياة متضاربة، فالإنسان العربي المسلم يعيش حيوات متناقضة؛ تدعي في التنظير التلاؤم مع النص وتعارضه في الواقع بتطرف في مختلف مجالاته. رغم أنّ حياة الشرع هي تطابق نية المكلف مع مقاصد الشريعة ووضعها ابتداء من أجل المصالح العامة. وهي الضروريات الخمس: الحياة والعقل، القيمة (الدين)، والعرض(الكرامة)، والمال (الثروة الوطنية).³ وهو ما لم يحافظ عليه كلّ بضرب بعضه ببعضه.

¹ _ القافلة موقع إلكتروني، info@Elghavila بتاريخ 24 مارس 2016 شوهد بتاريخ 2017/11/24 لاساعة 19:00.

² _ المرجع السابق.

³ _ فلسفة النقد ونقد الفلسفة، حسن حنفي وآخرون، ص 11.

حين أكمل الخطاب دورته ملازما للحياة وواقع الإنسان، جاء النص في ختامه ليعطي الإنسان حقه في الخيار وحرية العقيدة؛ " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ " البقرة 256، "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1).. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ الْكَافِرُونَ 1-6".

وقد جاء قبلها في معرض الحديث عن الانسان وخلقته، ومحاججة الملائكة الخالق في هذا الخلق، بأن نسبوا إلى هذا المخلوق صفتان لم يخلقه الله لهما وهما (الإفساد وسفك الدماء)، ويعني هذا خروج هذا الخلق عن إرادة خلقه، باتباعه هواه وحريته، والذي يبدو فيه إقرارا ضمنيا بعدم الجبر الإلهي لهذا المخلوق وفقا للخلق السابق وتعامل هذا الإله معه.

وهي حرية كاملة تظهر من خلال أحقية هذا الخلق في تقرير مصيره كبشري بدءا بحرية العقيدة، وامتلاك هذا المرسل بالوساطة والتوجيه، دون الإجبار والتسلط الفكري والعقدي على عقول الناس: " وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ " (ق: 45). " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2)... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6) الْكَافِرُونَ. " فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ " (الغاشية: 21 - 22). هناك وثيقة وميثاق بين طرفين. ظاهر وغيبى. هذا الميثاق يحقق لكل طرف حرته في التصرف وعلى لسان المرسل والمرسل هناك نص: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ". (الكاferون 6). إقرار بحرية الدين، وعدم الحجر على المخالف ما لم يكن بادئا بالعدوان واستخدام العنف والظلم، ثم خطاب الرسالة يوحى مرة أخرى بتداولية النص، من الأعلى فالأدنى، فيصير كل من على دين الاسلام نبيا. ولولا ذلك لما كان للرسول أجل وانتهاء أجل. (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل: 125). فكل داع بالحكمة والموعظة الحسنة هو نبي، هناك معايير لترقية الذات البشرية من بشري بالفطرة إلى مرسل بالحكمة الرسولية. وهو (الإنسان) في ذلك، أن يكون بشرا فقط، أو أن يكون بشرا مرسلا.

وقد اتخذ النص للإنسان طريقا وسبيلا واحدا لتحقيق ذاته وكيونته كبشري وتحقيق الإنسان فيه بالحرية التي امتلكها دون غيره ثم تحقيق القانون وإحقاقه: (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ). وهو أيضا رهينة ما يكسب جراء حرته؛ (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ). وقد نسبت الضلالة الى الانسان في إشارة على الضعف وقلة الحيلة وحاجته ليوافق ذلك بالهداية التي هي توجيه وطاقة إلهية، واقتربت الهداية بوحى الله؛ فقد زود الانسان بفطرة التوحيد وعززت بوساطة الأنبياء والمرسلين وآيات الله ومعجزاته أحاط الانسان بوسائل الهداية وجعل الخيار لعقله وقلبه المفكر. ويناسب هذا قوله (مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا).

_ (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ).

_ (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ).

_ (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ).

_ (إِنَّمَا تُجْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

" ومن الآيات الدالة الكثير على أن الإنسان فاعل مسؤول عن أعماله، حر في إرادته، مختار فيما يكتسب. وعلى ضوء هذا فمن حاول أن ينسب الجبر إلى القرآن فقد خبط خبط عشواء.

إن بعث الأنبياء لدعوة البشرية و"وضع منهجية للحياة وما بعد الحياة، تبدأ بالشخص النموذج في أفعاله وخصاله وعلاقاته بالغير وعلاقته بأناه، مجتمعا وعقيدة ثم بالمختلف مجتمعا وثقافة وعقيدة، ونهيم وتوجيههم من خلال المنهج¹ أوضح دليل على أن الإنسان

¹ ما بين عارضتين إضافة الباحثة.

موجوداً قابل للإصلاح والتربية، إذ لو كان مجبوراً على فعل المعاصي، لكان بعث الأنبياء ودعوتهم أمراً سدى¹.

والدعوة إلى حرية الإنسان وكونه فاعلاً مختاراً لا تعني أبداً انقطاع صلة الإنسان بالله سبحانه وإرادته؛ لأن تلك الفكرة كفكرة الجبر باطلة تورد الإنسان في مهاوي الشرك والثوية التي ليست بأقل ضرر من القول بالجبر.

فالتفويض بمعنى استقلال الإنسان في فعله وإرادته وكل ما يكتسب وخروجه عن سلطة الله سبحانه، تفويض باطل كالقول بأنه فاعل مجبور. لا جبر ولا تفويض: وقد أكد أئمة أهل البيت على وهن تلك الفكرتين، وقد قال البعض على لسان الإمام الصادق: "إن الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون، والله أعز من أن يكون في سلطانه ما لا يريد".² وقد أكد ذلك في معرض ختام سنام القرآن البقرة: **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ...** (البقرة الآية 286). بعد أن أشار في الآية التي سبقتها إلى أن المؤمن مسلم مطيع. والإنسانية التي أحاط بها الخطاب القرآني إنسانية كونية (رب العالمين)، وليست خاصة بجنس ولا لون ولا أمة، تلتمس الخير للمختلف جنسا وعقيدة وكائنا، فالعلاقات التي تربط بين الإنسان وبقية العناصر في كونه تقوم على سنن ضابطة، سواء كان جامدا أو نباتا أو حيوانا أو علاقته بنوعه الإنساني، حتى المختلف عنه في العرق واللون والعقيدة، والجغرافيا. وكذلك تقوم علاقته مع ما اتسع من شاسع الكون حوله.

وفي الخطاب الإسلامي الذي بني على منهجية أخلاقية تقويمية؛ الإيمان مقرون بالاستقامة في الحياة العملية، "قُلْ أَمِنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ"، فلما قصر المسلمون في العبادات التعاملية والأخلاقية، وهذا ليس غريبا حتى في سيرة الأنبياء والرسل والصالحين، والنية الحسنة محصلة معرفة الله، والقلب عبادته الإخلاص. وهي أمر لا مرئي. لا لعلاقة له

¹ _ سيد مرتضى محمدی، مجلة لقسم العربي، تبيان، مجلة الكترونية.

² _ م نفسه. ص نفسها.

بالرتب ولا بالعرق ولا باختيار إلهي لبشر دون غيره. فلا قدسية لبشري إلا بما حقّ كفاءة عملية وقيمة له ولجماعته.

الفصل الثاني:

الخطاب القرآني بين التأول والتأويل

1_ النص بين التأويل والتأويل:

أ_ الخلافة والإمامة شكلان لقراءة النص:

لنعرف إلى أي منحى وجه مفهوم الخلافة والإمامة الإسلامية علينا فهم معنى الخلافة؟ وما الإمامة؟ هل لهما علاقة بمفهوم الحبر والكاهن والقس؟ هل هناك قداسة تخص هذه المناصب الدينية دون غيرها؟

تقتزن الخلافة عادة بمفهوم تولّي الأمر وقيادة الملك. أما في الخطاب القرآني، فالإنسان كمخلوق هبط إلى الأرض هو خليفة الله في الأرض، ثم اقتزن هذا المصطلح بالاسلام فصار معناه نظام الحكم المتبع في الإسلام. وقد سن مباشرة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ باستخلاف أربعة من مقربيه من أصحابه وأتباعه وأمثلهم خلقا بالقائد النبي وأحسنهم قوامة ومسؤولية. بين القول والفعل (المنهج والتطبيق). ما يعني استمرارية عمل النص فيهم. ويلتقي المفهومان الوظيفيان الخلافة والإمامة، في أنّ الخليفة تجتمع فيه وفقا لمنهج النص خصال الإمام، والإمام موجه ومرشد وقد لا يقوم خلل الخلافة إلا توجيه الإمام وتصويبه. تتجه الخلافة نحو تحقيق توازن الواقع، وويتجه مفهوم الإمامة نحو تطبيق وتوازن العمل بالنص والواقع؛ اعتبارا من النص.

لم يكن محمد كمثل عن الخليفة والإمام النبي، بشريا فقط يحمل خطابا إلهيا لأمثاله من البشر، يحمل رؤيا ويرجو تحقيقها في واقع الناس والبشر؛ كان عليه ان يكون نموذجا للتطبيق، ومنهاجا له أسس وقواعد ومواضع، حتى اذا التبس على الخلف ملتبس، كان النموذج مقوما وحاضرا، كانت رؤيا محمد للعالم وطريقة التعامل وتهيئته رؤيا بشرية عين من عاين البشر، وعاش مع المجتمع. وحادثة الوحي خير دليل على بشريته وعظم المسؤولية؛ لكن مع ذلك لم تكن رؤيا محمد للعالم رؤيا خاصة به وحده، يسألونه هل هو

الأمر أم المشورة، فيقول المشورة، فيأخذ من المرأة والرجل. ويقرر ما تقرر به الجماعة. هي رؤيا تجمع بين العالمين وتقرب الرؤى لصالح العام.

لم تكن المدرسة المحمدية التي تصنع إنسانا يفي العالم حقه وتقي نفسه حقها، وفي خالقه حقه، مقرونة بفضاء أو جغرافيا، وليست وليدة لحظة تاريخية تظل مرتبطة بها، إنها سلسلة من الأجيال التي تتوارث ذات الأخلاق والمنهج؛ عملية تحديث للأخلاق ومنظومة من القيم التي لا تقترن بلحظة تاريخية كما تحدث حماد بن جاب الله حول مفهوم الحداثة. لقد كان منهج محمد القرآني (منهج مرتبط بنص)، يتأسس جزء من النص مرتبط باللحظة ويتناسب معها، ويتغير شق منها لصالح التقيد بالأنساق اللاحقة والتلاؤم معها، ويظل جزء قار فيها يمثل ثبات القيمة. (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ)"
القصص 41. وقوله تعالى: (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...) الإسراء 71.

وفي اصطلاح الإمامة كما جاء في النص القرآني لم يقتصر عمل الأئمة على الخير بل للباطل أئمة أيضا (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ) وقال أيضا: (... فَقاتِلُوا أُمَّةَ الكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أيمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ). التوبة 12.

والإمامة تعني القيادة على نحو ما وفق الخطاب القرآني ووظيفة الإمام المتابعة والإصلاح، فالإمام هو قيم الجماعة الإسلامية في المجتمع الإسلامي وهو مرجعهم أحيانا. لكن لا عصمة ولا تنزيه له ككل بشري. الامر الذي يجعل للجماعة نظاما ومنهجيا، الحد فيه يبدأ بالإمام كما كان مع الصحابة الأوائل والتابعين، وهي صورة من صور الاستخلاف للأوجه معرفة وعلم وثقة. وتتعلق أيضا بشخصية الذي يتحمل هذه المسؤولية، فيكون جامعا لا مفرقا ووسيطا بشريا بين الجماعة الإسلامية على الخير. وحاضرا في حل نزاعاتهم

وموجها ومرشدا بما له من مزية العلم والاتزان. أما عن شروطها، فإن أي فرد من الجماعة بإمكانه أن يؤمر الناس، ويؤمر عليهم عادة أعرفهم بكلام الله.

لكن الإمامة اتخذت مفهوماً آخر مع المدّ التشييعي، بل صارت ركناً من أركان الإيمان، فهيزامة إلهية وهي أصل من أصول الدين عندهم، والإمامة فيهم خلافة للنبوّة، وفيها من العصمة ومسؤولية النبي ووظيفته، ويعتقد المتشيعة زعامة الإمام وعصمته ووجوب وجوده في كل زمان ومكان. وانتقال قدرات النبوّة في الإمام المختار.

"قدرات الإمام الخاصة ترتقي إلى مصاف العصمة، التي تجعل قوله وفعله وتقريره مساوية، من الناحية الدلالية والسميائية لسنة النبي نفسه. بل هي السنة النبوية نفسها بحسب الرواية عن الإمام الصادق: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث رسول الله¹، هذه الولاية المفروضة والمزعومة التي تتخذ من النبوّة إرثاً، ثم تعلل للأفعال بالقداسة والعصمة التي رفضها النص القرآني. " فكان الوحي باق بعد النبي في الإمام،.. ليكون في كل هذا تشريعاً ملزماً صادراً بطريقة وبأخرى عن الله.. فحديث الإمام إما كشف عن حديث النبي كشفاً مطابقاً، وإما اجتهاد فيما جاء عن النبي، ولكنه اجتهاد معصوم صادر عن النبي بطريقة غير مباشرة. لذلك نجد أن العقل الفقهي الشيعي (الإمامي) لا يميّز من حيث الحجية (الإلزام الديني)."² إذا كان النبي لا يورثمالاً، فكيف يورث عصمة وتنزيهاً، وحتى وهو يتنزل عليه الغيب وحياً، لا يتقي شر نفسه كبشري، وشر الشيطان كغواية فيقوم ليله ويقول: أفلا أكون عبداً شكوراً، ونحدد في الحديث هنا لفظة العبد، لم يكن محمد ملكاً

¹ - وجيه قانصوه، النص الديني في الإسلام، ص 181.

² - وجيه قانصوه، النص الديني، ص 181.

وما سعى لى ذلك، ولم يلجا إلى اتخاذ قيمة أو سلطة، إنما ظل عبداً يمشي بين أصحابه، وبين الناس يحدثهم ويأكل بينهم ويمشي في أسواقهم.

إن الخطاب السماوي إذ اختار له أخصاء من بني البشر، ثم دعا بقية البشر باتباعهم إنما خاطبهم بما يتفق مع عقولهم، وبتدرج في المعرفة؛ الأمر الذي صار مرفوضاً مع الخلافة الجديدة؛ فالإمام معصوم إذن في حين يُجذب محمد من كتفه حتى علم الثوب عليه وقيل له عدل؟ ! ولم يحرك ذلك ضغينة ولم ينزه النبي.

الإمامة التي صارت رتبة دينية بقداسة النبوة الموروثة أو بالتوارث، ما هي إلا وسيلة من وسائل احتكار المقدس وإصباغ العقل بالتغيب. فالله الذي استخلف الأرض بالإنسان، وكان الخليفة البشري، لم يجعل الخلافة متوارثة ولكن للأقوم، وحتى النبوة في ذاتها كمكانة مقدسة، يمتلك أصحابها العصمة، كما امتلكوا النموذج الأعلى والأمثل كذوات بشرية قبل اتصالهم بالسماوي أو بصورة أدق قبل تهيئتهم لذلك.

ولعل الكثيرين جعلوا النص واحداً، الإلهي والبشري، وفي هذا نظر، على وجهتين، إذ يلتزم النص أو الخطاب القرآني في بعض أو كثير من مواضعه بالوحي الإلهي: يقول ابن حزم: "فصح لنا بذلك ان الوحي ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله على قسمين: أحدهما وحي، متلو، مؤلف تأليفاً معجز النظام، وهو القرآن. والثاني: وحي، مروى، منقول، غير مؤلف، ولا معجز النظام، ولا متلو، لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد من رسول الله، وهو المبين عن الله مراده"¹. فالحديث النبوي ليس نصاً معجزاً ولا خطاباً قرآنياً، لكن هذا التوازي بين النصين، والتقارب بينهما، ما يجعل النص النبوي أو النبي في حد ذاته كنموذج فعلي وتوصلي، أو كنص مؤدى للخطاب النظري، ذلك ان هذا النموذج البشري الذي جاء من

¹ _ م نفسه، ص 187.

مجتمع عادي، يعيش بين الناس ويحيى حياتهم، وعرف عنه في كل مآثره حسن الخصال قبل وبعد الزمنين، وهذا كله في خدمة وتأسيس قانون للمجتمع الجديد. وكذلك مع كل نموذج مرسل أو نبوي، فخصال هؤلاء عليهم السلام، وقع فيها حتى الخطأ، فموسى وقع في خطأ القتل، وآدم وقع في خطأ الشجر، ويونس وقع في خطأ العجلة وسوء الظن بقومه....

ب_ النص/ الخليفة — النص/ الإمام:

كما هو معروف تاريخياً كان أول الخلافة الإسلامية بعد موت محمد، القائد البشري والوسيط بين عالمي الغيب والشهادة؛ حيث أمر الصحابة المقربون بعده بالولاية عن طريق البيعة التي تقارب مفهوم الاقتراع الحديث، وقد كان محمد المرسل كقائد بشري وكمنهج يطبق ويطبق، يجسد خلافة الإنسان في الأرض وتوجيهها؛ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. لأن السبل إذا تعددت ساء التوجيه. لهذا كان النبي الإمام واحداً؛ لكن الفهم الخاطيء للنص وإساءة تفسيره وتعدد القراءة فتح أبواب التداخل مع التفاسير وشرح التوراة والانجيل، هناك اكثرمن توراة وهناك أكثر من إنجيل رغم ان الدين واحد، وان الرب واحد، تعدد الرؤيا واختلاف الوعي بها والفهم والمثاقفة الحاصلة في الخطاب الديني أوجبت حلول النبي في أهله، وعودة علي الإمام المغدور كعودة عيسى ورجعته. "إن الذي أنزل عليك القرآن لرادك إلى معاد".

لقد أعمل التأويل عمله في آيات الطاعة حتى لم تشمل خصائص العصمة النبي وحده، بل تجاوزته إلى بعض خلفائه أو صحابته أو آل بيته، واهتدى بعض المتأولين¹ إلى فكرة "الأئمة المعصومين، التي بدأت بالإمام علي وانتهت (عند الشيعة) بالإمام الثاني عشر

محمد بن الحسين، امتدادا طبيعيا للسنة النبوية سواء كانت في القول والفعل أو التقرير. وهي فترة امتدت حتى القرن الثالث الهجري"².

وقد ماثلوا في ذلك أو قاربوا فيه ما سمي بالرجعة أو حلول النبوة أو جزء منها في آل البيت، ثم قداسة الإمام، والاعتبار به نصا مقدسا والتي فيها الكثير من عقيدة النصارى حول رجعة عيسى وعودته. وإذاعنا إلى أصل هذا الاعتقاد نجد أنه يبدأ من حيث تقديس شخص النبي ومقايسته التامة بالنص، ليصير الإمام/ الذي هو سليل بيت النبوة وفقا لمعتقد الخلافة بالإمامة نفسه هو النص، وليس قوله فقط بل كل ما يتعلق بشخصه مصدرا ثابتا ومرجعا معتمدا في فهم ومعرفة أحكام الدين ومقاصده، وأن أي خروج عن هذا المصدر هو خروج عن الدين. مستنديين في ذلك إلى الحديث النبوي: إني تارك فيكم الثقلين؛ ما إن تمسكتم بهما من بعدي لن تضلوا أبدا، كتاب الله وعترتي أهل³ بيتي⁴. ولعل الصيغ المخالفة للعبارة الأخيرة في الحديث كتاب الله و(سنتي) كما ورد في مواقع أخرى، هي التي منحت

¹ _ نشير دائما إلى أنه في البحث يفصل بين المعنيين التأول والتأويل رغم الجذر اللغوي الواحد، ودلالة الفهم والفسر في كليهما، فيحيل الأول على عملية فهم النص الخاطئة ومحاولة تطويع النص لعقيدة أو قانون البشري، أما التأويل فيقوم على الأخذ بعلاقات النص وتركيبه وأدواته اللغوية وملاحم القصد، لإعطاء الدلالة النهائية التي يستنبطها القارئ وفق منهجها الخاص، ينظر كتاب اللفظ والمعنى....

² _ وجيه قانصوه، النص الديني في الإسلام، من التفسير الى التلقي ص 180.

³ _ يبدو أن الحديث بهذه الصيغة أميل إلى الرواية الشيعية؛ ولا صحة لها في كتب السنة لكنها تحمل لفظا خر، فللحديث صيغ أخرى تقارب هذا النص ولكنه تختلف معه فيما يخص لفظ العترة وال البيت.

⁴ _ المرجع نفسه، ص 180 _ 181.

الإمامة هذه المرتبة التي نافست النص وجعلته ممثلاً له، ونصاً مقدساً يمشي ويفعل ويتحرك. " فقدرات الإمام ترتقي به إلى مصاف العصمة"¹.

هذه القداسة التي تتنافى مع النص، كفعل وجب فيه الاستناد إلى النصية، أو الاحتكام إلى أثر المعلم، حامل أو موصل الخطاب (محمد)، ذلك أنه ومن خلال السيرة التي هي نص يسير على التوازي مع الخطاب القرآني يأخذ منه، أو يبسط وفقاً لطبيعة محمد البشرية. فلو جاز بالعصمة والخلافة لبيت النبوة لخلف مرسل الخطاب للنبي ذكراً من صلبه، ثم وبعد أن لم يحدث، لكان محمد ترك وصية يستند إليها المسلمون بعده، ويتخذونها حجة للأفضلية، بل إن النص فرض عدم الأحقية في المسؤولية إلا بكفاءة الخلو من البحث عن الدنيا وزخرفها (التقوى).

إنه التأويل ذاته الذي فرض قداسة الإنسان بقداسة النص والمكان واللحظة، فكلما كان المرء أقرب إلى النص فهما أو تعلماء، أو وراثه، أو جغرافياً ولحظة تاريخية استلزم هذا الحكم له بالتقديس، تماماً كما حدث التأويل في سلطة رجال الدين، القروسطيين. تماماً كما يسوء استخدام آلة تم اختراعها لتيسير الحياة للبشرية، فتتسبب بالقتل أو بالإيذاء. فلا يكون التقصير هنا راجعاً لمنهج أو كاتالوج الأداة ولا لمخترعها، إنما هو سوء العمل بها.

2_ الإمام والخليفة:

أ_ سلطة الوسيط بين النص والواقع:

يعمل رجل الدين على إضفاء القداسة على الخطاب الشخصي الذي يمثله والخطاب القرآني الذي يمثل جماعة الدين والإنسانية أحياناً. فالخلل الذي يقع فيه رجل الدين هو ربطه

¹ _ م نفسه ص 181.

بين النص وقراءاته وتأويله، "أي الاعتقاد بإمكان تطابق محصلة (تأويل) النص مع (النص) موضوع التأويل"¹، فيتم بذلك تقديس الذوات المؤولة، وإلغاء قيمة النص كثابت أو سحب هذه القداسة إلى مؤوله، خاصة إذا تعلق الأمر بالقراءات التراثية التي نالت قداسة وثبات النص، إذ " لا يفرق بين النص وحاصل قراءته وفهمه، فلا يمكن للقراءة أن تكون النص نفسه.. إذ يقوم الخطاب الديني بإلغاء المسافة بين الذات المؤولة والنص الديني المؤول"²؛ تماما كما حدث مع النصوص الدينية السماوية السابقة، فصارت أشتاتا ونالت قداسة قرائها خاصة في الديانتين المسيحية واليهودية كما سبق. فصارت الأناجيل المختلفة بأسماء أصحابها نصوصا مقدسة، واختلفت.

حتى أن بعض أتباع القراءات السلفية يلتزم خطابات تراثية رغم تغير الأزمنة وتفاوت المواضع، فيعطلون خصيصة التفكير والتغيير الموجودة في الإنسان، والزمان. فتلغي حداثة حاضرها ومستقبلها بالاستثمار في أزمنة سبقتها عاشت حداثتها، واستثمرت في مناهج وموضوعات عصرها. "هذه القراءات التي يفهم بها السلفي المعاصر النص التراثي، لا تنتج إلا قراءة أحادية، زاعمة أن الأجيال الماضية أفضل بكثير جدا من الأجيال الحاضرة ويدعو في اتجاهها أن إلى ضرورة التغيير وإلى تحكيم القيم التراثية التقليدية باعتبارها نماذج أساسية للفهم. بالاضافة الى أنها تعتقد أن مقولاتها وأفكارها ومفاهيمها تملك الحقيقة المطلقة وتعبر عنها وتزعم في الوقت ذاته أن لديها جوابا حاسما لكل شيء"³.

¹ _ مجدي عز الدين حسن، إشكالية فهم النص الديني الإسلامي، مجلة دراسات فلسفية، الجمعية الجغرافية للدراسات الفلسفية، الجزائر عدد 4 أبريل 2015، ص 72.

² _ المرجع نفسه، ص نفسها.

³ _ ينظر المرجع نفسه، ص ن.

ب_ الخطاب القرآني ونفي التقديس والسلطة:

وحتى القداسة التي ينالها النبي إنما تقوم على خلقه وحياته الاجتماعية قبل البعثة أولاً؛ فطباع الأنبياء الاجتماعية والخلقية، وطرق تواصلهم قبل بعثهم، تثبت قوامتهم وثباتهم وخلاقهم ونقاءهم، ثم تقوم على هذا التواصل بين السماوي والديوي، هذا الشخص الذي يتحمل مسؤولية القيادة من جهد الربط بين عالمين، والوصل بينهما، فقد وكز موسى رجلاً فقتله دفاعاً عن رجل ضعيف، وهرب منفاً إلى بلد آخر ليحمل عن امرأتين مشقة السقاء ومسؤولية الرجل الشهم دون سابق معرفة بهما ولا دافع لأجر، " قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ " القصص الآية 26 ؛ وكان محمد صادقاً أميناً، (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا..) الشورى، فالنص يحيل على ان محمدا بشري مرسل مدعو كغيره من البشر إلى التمسك والعمل بالوحي والنص الثابت، بل بلغ من عجزه أمام مرسله أن يطلب التثبيت والدعم ليتحقق التصديق بالمعرفة التي جاء بها. وينفي عنه في مواضع أخرى الأبوة والقرباة لأي بشري آخر: (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) الشعراء الآية 84. (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) الأحزاب الآية 40.

"فختم النبوة بعد انقطاع السلالة الذي يعني بدوره نفي (العصمة) من بعد خاتم النبيين لأي من البشر اللاحقين وهكذا سدت أبواب (التقديس) لأي من البشر بعد ختم النبوة. هكذا يتضح كيف سدت أبواب المرجعيات والتقديس لأي من البشر بعد النبوة الخاتمة فلم يبق

سوى الكتاب المهيمن المنزل في الأرض المحرمة بوصفه مرجعا كونيا للبشرية جمعاء تستلهم معانيه عبر تجاربها وحقولها المعرفية ولثقافية المختلفة¹

ويمكن لمقولة سيدنا عليّ (لو كشف عليّ الحجاب ما ازدت يقينا)، أن تعبر عن كمال المنهج واستيفائه مخططا وتطبيقا نموذجيا في ذات محمد. فقد بلغ الأمر تمامه، في دعة وثقة ممن تلقاه فتقبله. وفي هذا منتهى المقبولية للخطاب لا التقديس للأشخاص. وحتى والنبى يتكئ على عصا الحكمة والمعجزة، تعود الفطرة البشرية للتكذيب والحاجة إلى توثيق، رغم أنهاك أما تحقق لها المعجز عيانا لكنها ارتدت، وقانون المعجز جمع الأضداد أمام عين الطغاة لكن هذا لم يحقق لهم الإيمان. لأن الأشياء ذاتها يمكن أن تكون وفقا لقانون النية والمعرفة باليقين أشياء ذات أفعال معيقة أو مساعدة، ولا علاقة للامر بقداسة الأشياء في ذاتها وكذلك الأشخاص.

فالأشياء والأسماء_العلامات تتمايز وتتغير بمخالطة الوسط المشابه_المخالف، فالماء الذي نجى موسى ودفعه حتى قصر فرعون، فيضعه في يد أمينة. هو ذاته الماء الذي عذب به فرعون هو الماء الذي نجى موسى مرتين، فأغرقه وجنوده. ثم هو الماء نفسه الذي كانت نسبته تأكيدا على صدق جنود وثباتهم، النار التي وظيفتها الإحراق تعطلت فكانت بردا وسلاما على إبراهيم. ومحمد الرجل الأمين الذي يجمع الفصائل والرؤوس القبائل ليجمع بينهم في رداء، هو ذاته التي تفرقت فيه الأحزاب شيئا وحاربتة وهجرته من مدينته في جنح الظلام. لتعود فتجتمع إليه الخلائق من كل فج، هذه المعجزات أدوات مطوعة لخدمة الكلمة النص، الذي لا يمكنه أن يتجسد من دون وعي مقابل مهيب للتقبل أو الرفض. العصا التي كانت مجرد خشبة مستعملة وأداة تعكز ومساعدة ساعات الخوف ومنتهى عملها هش غم

¹ _محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والانسان والطبيعة، العالمية الاسلامية الثانية، دار الهادي، بيروت لبنان، ط1. 2004، ص 346.

الرعي، هي ذاتها التي تستحيل أفعى ترعب الآخرين وتفلق البحر ليصبح رهوا فيلتهم من يلتهم ويفرق كعاقل بين مؤمن وكافر.

إن القانون الذي يحكم به الخطاب الإلهي قانون الطاعة والتسليم باليقين فمن أسلم نفسه لله استطاع أن يطوع الكائنات فيقول لها كن فتكون. هو الإسلام ذاته الخطاب الذي تسيّر به الحياة والطبيعة والبشرية والأكوان والمجرات. وعالما الغيب والشهادة.

3_ الخلافة، الإمامة والتفسير وجها لتأويل النص والعالم:

استطاع الانسان أن يبوأ مكانته من خلال تقبله الخلافة على الأرض التي تصبح تجسيدا للرسالة وعملا بالنص، ثم إن تلقيه الرسالة، التي قبل حملها وتحملها، جعله جزءا فاعلا في تحقيق التواصل بين الجغرافيتين المعرفيتين، الروحي السماوي/ والإنساني الأرضي، ولولا نقطة الوصل هذه المتحققة في النبوة كوسيلة للربط لماتحقق فهم أو تقبل النص والرسالات، وما أحيط به من قداسة كبشري جاءت من تلقيه كأول متفاعل مع النص، يفهمه، ثم يعيد إرساله فيكون جزءا منه، جزءا فاعلا. ف"المتلقي جزء من الخطاب"¹ كما أثبتت الدراسات. وقد أثبتت العقائد والديانات بالنصوص الثابتة والخطابات التي جاء بها المرسلون؛ حتى إذا انتهى أجلهم، بقي النص الثابت متحركا في الأزمنة كمنهج للحياة؛ "فالنصوص كائنات حية تولد وتنمو وتنتهي وتتطور.. وهي البديل الفعلي للواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، الذي يضاف عادة دون أن يكون له صلة بالنص... فالنص هو المتوسط بين الذهن والواقع."²؛ فيما يصبح الواقع مرجعية جديدة لتأويل النص، ويتحول البشري إلى رمز ومؤول ودلالة على

¹ حسن حنفي، من النص الى الواقع، ج 1 تكوين النص، ص 30.

² حسن حنفي، من النص إلى الواقع، ج 1. ص 1053.

اللغوي، وكما يقول ريكور تبدأ التأويلية عملها حيث تنتهي اللسانيات.¹ نهاية بنائية لا نهاية معنوية.

يعرف العسكري الفهم " أنه العلم بمعاني الكلام عند سماعه خاصة، ولهذا يقال فلان سيئ الفهم إذا كان بطيئ العلم بمعنى ما يسمع ولذلك كان الأعجمي لا يفهم كلام العربي، وقال بعضهم لا يستعمل الفهم إلا في الكلام ألا ترى أنك تقول أنك فهمت كلامه ولا تقول فهمت ذهابه ومجيئه، كما تقول علمت ذلك واستعمل الفهم في الإشارة لان الإشارة تجري مجرى الكلام في الدلالة على المعنى"². ولهذا فمن الممكن ان يكون الفهم هو اول مراحل التأويل لأن السامع لا يستطيع تاويل رسالة مالم يفهمها أولاً. وعليه ايضا فالتاويل هو أحد مراتب التأليف، فالسامع يجمع نواة الحقيقة. ولا ينبنى التأويل على الميل أو الزيغ إنما هي طريق تتخذ من المعنى والقصد خطوات للتاويل. فلاهي القصد ولا هي منتهى الزيغ،انما الجامع بين فهم الكلام سماعا وفهمه عند متكلمه، "فالنص تأليف وتجميع لنواة الحقيقة وتاويله تأليف حينها عمل مفهوم التأليف عملا مزدوجا: النص تأليف الهي والتاويل تأليف انساني، تأليفان مختلفان في المرجع مشتركان في اللغة"³ وتراكمات التاويل شكلت تأليفا يحوط بالنص ويشكل ظلال معرفية له مقرونة بالسياقات التي اعيد فيها تأليف النص، ولهذا فأن النص/ الخطاب القرآني شبيه بنص متعدد التأليف، لأنه من جهة صدره ألف بالاجابات ومن جهة تلقيه اول وألف بالطروحات والاسئلة اللامنتهية حتى الازلية.

¹ _ بول ريكور. الوجود والزمان والسرد، ص 48.

² _ العسكري ص 79 ينظر اللغة والتأويل، مقاربات في الهرمونطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي، عمارة ناصر.

الاختلاف، الفارابي، العربية للعلوم ناشرون. الجزائر، بيروت، لبنان. ط1 2007 .111. 112.

³ _ نفسه ص 112.

"ويعلَن النص القرآني نصا حيا لأن الفهم المتعلق به لم يكتمل بعد، بل إنه يعيد نقد الأفهام السابقة عليه، وهو ما يجعله كل مرة منتجا لنص أو لنصوص هامشية"¹. هذه الفضيلة التي فصلت النص وشرحته وأولته بجهد بشري على رمزية النص (إذ لم يعط النص كله ولا يعطيه)، وقربته الى الأذهان ليفهم ويعمل به، هو أحيانا ما كان فاصلا بين القارئ والنص ومنع الاحتكاك المباشر بينهما وحجب الفهم الفردي للخطاب القرآني بتدخل التراكم الفقهي، وانزاحت النصوص الهامشية من مجرد قراءات شارحة الى نصوص مركزية يخشى مساسها، وانتقلت القداسة من الإلهي إلى الإنساني. "فالتأويل عودة الى خلقية اللغة وبعثية معانيها"² التأويل ولادة وبعث.

إن القراءة المتأسسة على الفهم التي يقدمها رجل الدين في أشكاله المختلفة: خليفة وإماما أو حاكما أو مفسرا، بما له من سلطة حملت أكثر مما لها من دلالة، وأخذت هذه السلطة والتمستها من سلطة النص كنصوص موازية، وهو ما يجعله كل مرة منتجا لنص أو لنصوص هامشية تتحول مع شروط الوعي المرتبط بالتاريخ الى نصوص مركزية³ وسنحقق في كونها نصوصا فهم للعالم، وتقريب للفهم للقارئ القريب والبعيد، فما يحدث في العالم اليوم من تأويل للنص على أساس من أصحابه، يدفعنا للعودة إلى المفاهيم، لإعادة القراءة فيها، لإعادة التوازن والانسجام المتحقق بين النص الخطاب وحامله الأول، الحامل الأول بما له من سلطة تفويضية، للفهم والإرشاد والمصاحبة والتأويل.

4_ التفاسير والشروح هوامش للفهم تخطئ وتصيب:

¹ _ نفسه ص 95.

² _ نفسه ص 96.

³ _ م نفسه ص نفسه.

أ_ النصوص الموازية: اتفاق تضافر أم انسجام تناقض وسلطة:

يجتهد أصحاب التفسير عادة لفهم وتأويل الخطاب القرآني بالقرآن أولاً فيسعون لفسر ما استعصى منه بما استيسر وسهل منه أولاً، وفي المرتبة الثانية تجيء النصوص الأخرى يعتد بالحديث الشريف أولاً وكلام السابقين، والشواهد المختلفة من شعرونثر عربي قديم "والمعلوم أن النص القرآني مشهور بالتلميح المقتضب، لا بالتصريح كما يعوض التفسير الاسلامي عن قطيعات النص المنطقية، وخلله النحوي، وكذلك عن تعابيره المقتضبة التلميحية أكثر من اللزوم، باختصار إنه يعوض عن الاستعصاءات المعنوية والتعابير المهمة الكثيرة الورد في القرآن. كل هذا يحاول المفسر سد نقصه، أو تحاشي غموضه عن طريق إضافة تفسيراته وشروحاته"¹. ولهذا تعددت التفاسير عبر الحقب التاريخية والثقافية ومن أشهرها، تفسير القرآن العظيم لاسماعيل بن كثير، تفسير فخر الرازي ويعرف بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، تفسير الطبري ويسميه البعض أبا المفسرين وكتابه هو: جامع البيان وتأويل القرآن ويسمى جامع البيان، تفسير القرطبي، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة... وغيرها... حتى التفاسير الحديثة كظلال القرآن والتحرير والتنوير والتفسير المصوّر للإمام متولّي الشعراوي الذي بلغ عدد مجلداته السبعين مجلداً؛ مبنيًا على حلقات مصورة جمعت ورتبت في تفسير واحد.

وكانت تحاول في ذلك الجمع بين مكون النص وبين أفق القارئ وإطاره الثقافي، فنجد اختلافاً كبيراً مثلاً بين التفاسير الأولى وتفسير الامام الشعراوي الذي زاد عن السبعين مجلداً كما ذكرنا، والتي أخذت عن نشاطه وجلساته في شكل حلقات في تفسير الخطاب القرآني مصوراً أي شفاهة لجموع المتلقين؛ فكان في كثير من المحطات يقف عند معطيات العصر

¹ _ محمد أركون، قراءات في القرآن، ص479.

ليشرح ويحلل ويفسر ويقرب الفسر إلى جمهور المخاطبين. فـ" فعل القراءة _ ومن ثم التأويل _ لا يبدأ من المعطى اللغوي للنص، أي لا يبدأ من المنطوق، بل يبدأ قبل ذلك من الإطار الثقافي الذي يمثل أفق القارئ الذي يتوجه لقراءة النص"¹، وكان يضبط فسرهِ وشرحه بما يفهمه الناس ويربطه بما هو قريب من أذهانهم، ز داخل ذلك أحياناً ملح زطرف وأمثلة ونقد لاذع. فيوجه الخطاب والخطاب المفسر للخطاب إلى حاجة الناس وما يترتب عنه فيوافق ما يلزمهم حين عصرهم؛ " إن الحكمة الخفية التي جعلت النص القرآني نصاً منفتحاً على البنى الاجتماعية والثقافية المختلفة، هي التي جعلته يحقق إعجازه البياني في إحداث التوازي الدقيق بين نسقه اللغوي المنتظم ونسق الوجود المتغير"².

ب_ التفسير نص ثان:³

بين القراءة السلطة وسلطة القراءة:

لقد عرفت النصوص المقدسة وخاصة الخطابات السماوية محاولات للفهم والتفسير، حتى أن بعض ما يصلنا منها (الخطاب الأصل)، ليس إلا التفاسير الأولى أو تحريفاتها، فلم تسلم النصوص من التحريف أو التأويل سواء بدافع التبسيط، أو بدافع التقريب إلى البشري، ما سمح حتى بالتأويل في النصوص ومنحها الصبغة البشرية؛ لتتسق مع قدرات البشري البسيطة، فقد تشكل التلمود من (الميشنا)، و(الجيمارا)، " منذ ان بدأ الحاخامات يوصون ويحضون أتباع شريعة موسى التي جمعها الحاخام (يوضاس) في كتاب أسماه (الميشنا)

¹ نصر حامد ابو زيد، مفهوم النص، ص182.

² عبد الجليل منقور، النص والتأويل، دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2010، ص99.

³ لكن على أهمية التفسير والاجتهاد على البحث ان يعالج ان اغلب نكبات الحاضر هي العيش مع التفكير السابق، أو التفاسير القديمة.

الذي يفسر شريعة موسى، وقد أضاف الحاخامات شروح وهوامش عبر تاريخهم تم تأليفها في مدارس فلسطين وبابل سميت بـ (الجيمارا) لتشكل مع الـ(ميشنا) التلمود¹. فالنص اليهودي المقدس الذي يؤسس في الحقيقة التماثل مع النص القرآني، ولا يشكلان تعارضاً بفعل المصدر الواحد، ليس إلا تفسيراً بشرياً واجتهاداً إنسانياً. لتنتقل القداسة التي أسسها الغيبي إلى تقديس المرئي والمحسوس في شكل الانسان الذي أوّل وفسر هذه النصوص وأعاد كتابة الشريعة بطريقة بشرية مبسطة، أو تفسيراً يسمح بالتواطؤ مع الحاجة البشرية، ولعل ويلات ونكبات الحاضر هي خلاصة العمى عن الفرع والأصل. ولعل لغة النص السماوي المقدسة والمتعالية أحياناً، وعدم ملاءمته للعصر أحياناً أخرى كما يدعي أنصار تأريخية المقدس، والجواز بتأويله وفق الحقبة المعيشة، والتنازل والتساهل والتجاوز للسابق، اقتناعاً بان ما فيه جاء لزمان آخر. لا يمكن أن يعبر بدقة عن الأزمنة المتعاقبة التي تليه وبالتالي أجاز اعتبار هذه النصوص الميسرة نصوصاً تحتمل ذات التقديس.

ورغم الحاجة الملحة للتفاسير كهوامش لفهم النص والتقريب والتوافق بين الأفقيين السماوي والبشري، إلا أنها تبقى نصوص يطرأ عليها النقصان ما دام هناك نص أصيل، وما دام هناك من يستطيع فهمه وتأويله وجعله أقرب إلى التعامل والتناول. فالرسالة لكي تكون قد وصلت فعلاً إلى المرسل إليهم يتعين أن يقفوا على مضمونها وأن يعرفوا محتواها معرفة تامة. وما لم يتم ذلك فإن المرسل إليهم يكونون في حكم من لم يتوصل بالرسالة، وهنا يواجهنا مشكل النص/ الخطاب القرآني وكونه أعلن بأنه ميسر مفسر لا يحتاج إلى بيان، يقول تعالى: **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ**³² .. والتيسير هنا مقرون بالذكر؛ وفي

¹ _ آ،كوهين. التلمود، عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين، تر جاك مارتني، نقله للعربية سليم طنوس، دار الخيال، بيروت، ط1. 2005، ص مقدمة الناشر.

² _ المرجع نفسه (المقدمة).

³ _ القمر الآية 17.

معنى الذكر والادكار؛ أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أرادته ليتذكر، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال الحرام وأحكام الامر والنهي والعقائد النافعة والأخبار الصادقة. ولهذا كان علم القرآن حفظا وتفسيرا أسهل العلوم على الإطلاق¹.

ج_ سلطة النص_ سلطة رجل الدين:

ربما يظل الموقف العاطفي من التراث والنص، هو الذي جعل الحاكمين باسم الله يتعدون حقوق الإنسانية فيحكمون باسمه، وتتولد سلطات ودوائر إرادة وعنق تحت إرادة وسلطة الحاكمية باسم الله؛ ف"داخل المجتمع التراثي النامي وبذهنية الهدم والموت قبل الحياة، والإنطلاق من اللاشيء تتولد ذهنية الثورة الانقلابية للدفاع على حاكمية الله وإزاحة حاكمية الإنسان فيقوم الصراع بين قوة السلطة القائمة والتي تعتمد على البوليس والجيش في السر والعلن، وبين الأجهزة الثورية السرية التي تستعمل العنف والاغتيال السياسي كسبيل لإزاحة الزمرة الحاكمة وتعويضها بصفوة مؤمنة بدلها. " ويتم كل ذلك كله باسم الله دفاعا عن حقه وتأكيدا لحاكميته وتنفيذا لإرادته وامتنالا لطاعته، وطمعا في أجره وثوابه. ولا يتم باسم الانسان دفاعا عن حقوقه وتأكيدا لسلطانه وتحقيقا لمصالحه العامة حتى يعيش في الدنيا حرا كريما. وبالتالي غابت النظرة الانسانية.. فولد الكبت والحرمان كمظاهر للتعويض والإشباع. وكأن الله ليس غنيا عن العالمين وفي حاجة الى دفاع. وكأن الله لم يكرم بني آدم في البر والبحر ولم يجعله سيدا للعالمين". أدى ذلك إلى ظهور النرجسية التراثية.² كمركزية وخطاب سلطة.

¹ _ تفسير ابن كثير والتيسير للسعدي، مرجعين سابقين، سورة القمر الآية 17.

² _ تأليف مجموعة من الاكاديميين العرب، الفلسفة العربية المعاصرة، اشراف وتحرير اسماعيل مهناة، منشورات ضفاف الاختلاف الامان بيروت المغرب الجزائر، ط1 2014، ص 269.

د_ النص الخلافة: بين حاكمية الله وحاكمية الإنسان:

أولاً نريد أن نشير إلى أن اصطلاح الحاكمية اصطلاح ارجعه البعض ومنهم المفكر أبو القاسم حاج حمد إلى التأصيل اليهودي، "مفهوم (الحاكمية الإلهية) كما هو مفهوم "الاستخلاف" لا يمتان للإسلام والمسلمين بصلة، فهما مستخرجان من التراث اليهودي"¹، فيلتزم من هو مؤمن بالحاكمية الإلهية كأساس لعقيدته مطبقاً النص المنزل دون أن يحيد، في حين يرجع الآخر إلى ذكائه البشري بعلمانية معاصرة وجاهلية سالفة، وبما أن الوضعية العلمانية المعاصرة ترادف - في مفهوم البعض - الجاهلية السالفة، فإن المنطق يتداعى لتترادف العلمانية مع الكفر، كما تترادف الجاهلية مع الشرك، فتتكرس دائرة التناقض ضمن ثنائية حادة، فإما الحاكمية الإلهية وإما الكفر، وعلى هذا الأساس تعتبر كافة المجتمعات ذات النهج العلماني الوضعي مجتمعات جاهلية كافرة، ولا توسط بين الأمرين.

وبهذا "المضمّر الفكري" تتجه بعض الحركات الإسلامية إلى تمييز نفسها عن الآخرين في مجتمعاتنا بوصفها - أي هذه الحركات - مجسدة في ذاتها وتكوينها إطاراً وصورة لحاكمية الله، أي أن في داخلها الحركي يكمن "الخلاص"، فهي دون غيرها "مدينة الله" والآخرين "مدن الشيطان"، ويتداعى المنطق فيسبغ هذا الإطار الحركي على نفسه "مشروعية التصرف" باسم الله وحاكميته، فيرى في سبيل غاياته تبريراً لكل الوسائل، مستحلاً الأنفس والدماء والأموال، و(براحة ضمير تامة)، فكل تصرف يتم بمضمّر المشروعية الإلهية، وفي مواجهة الكفر والجاهلية"². هذا الإنسان الذي يتصرف بوثيقة من الله: (النص) يمكن تعريف النص بهذه الصورة وفقاً لما جاء به الشافعي، أو غالبية الفقهاء؛ ينفي بصورة ما هذا الطرف (صاحب الخطاب)؛ ليحكم بتأويله الخاطيء (التأويل) على بقية من يحمل النص

¹_ المنهجية القرآنية وتصحيح مفاهيم الحاكمية الإلهية، مقال ضمن سلسلة ترشيد الصحوة لابي القاسم حاج حمد ص5.

²_ نفسه ص 6.

مثله، " ففي صفحات من كتب المودودي ورسائله تواجهنا صياغات لنظرية الحاكمية عنده تقيم التناقض بين حاكمية الله وحاكمية الإنسان، وتجعل من أفراد الله بالحاكمية حكماً بتجريد الإنسان والأمة من كل حق في أن تكون مصدراً للسلطة والسلطان في أي شأن من شؤون الحياة. . الأمر الذي يجعل البعض - سواء من أنصاره أو خصومه - يتصور حكومة الإسلام: "ثيوقراطية" و" حتمية " - إلهية " لا مكان فيها لإرادة الإنسان.."¹.

إن الفهم الخاطئ للنص، يحيل على الخطأ في تطبيقه وأدائه، ما يشكل نشازا في نصية الخطاب، وعادة ما ينسب رجل الدين النص إلى شخصه، فيباعد بينه وبين متلقيه، ويدفع إلى إساءة فهم النص من خلال إساءة تفسيره أو سوء تأديته، " لقد رفض علي رضي الله عنه أن يكفر الخوارج رغم تكفيرهم له، رغم أن الكثيرين فعلوا بالاحتكام إلى النص، بل إن علياً دافع في أكثر من مناسبة عن إسلامهم، وحقوقهم، وأكد على التعامل معهم معاملة المسلمين، فقد سئل عن أهل النهروان هل كفروا؟ قال: " من الكفر فروا، قيل: فمنافقون؟ قال: إن المنافقين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، وهؤلاء تحقرون صلاتكم بجانب صلاتهم. قيل: ماذا نقول فيهم؟ قال: قوم تأولوا فأخطأوا"²، فالتأويل هنا محاولة فهم النص لكنها محاولة فاشلة وخاطئة، لأن فيها تشدد وغلوّ وتفريق للجماعة. وفيها كفالة للدين من طرف سلطة فهم واحد ورؤيا قاصرة تأخذ لها زاوية واحدة.

حماية الدين بسلطة الإنسان إذن واسطة أفسدت علاقة الدين بالإنسان، والوصاية الإنسانية عليه، هي الفاصل بينه وبين من نزل لأجلهم، لا يحتاج النص إلى قيّم وإنما يحتاج إلى تفعيل، ولعل هذا ما مرت به كل النصوص المقدسة التي انحرفت عن مسارها،

¹ _ م نفسه، ص 9.

² _ الشيخ حسين الخشن، الاسلام والعنف، قراءة في ظاهرة التكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغربية، ط1. 2006، ص16.

من حماية الإنسان الى حماية رجل الدين كسلطة، تخضع له حتى سلطة السياسة، " ففي عصر الأنوار مثلاً تم التمييز بين الدين اللاهوتي والدين المدني، لأن رجل الدين كان هو السلطة التي تخضع له حتى الدين في حد ذاته، أو تقوّض النص لحسابه، [وهو ما ندعوه التأويل / ليّ عنق النص من خلال معنى يحيل إليه ويكون في فائدة طرف ما، دون قرائن أو شبهة مقارنة]، فمن أجل السلطة والنفوذ، والتحكم وضع الإيمان فوق كل اعتبار"¹.

ولا بد أن الأمر لم يحدث فقط مع فهم المقدس في الإسلام، والاختلاف في الأصول والفروع، والوصول في ذلك حد التقاتل والتناحر من أجل الرؤيا القاصرة في الفهم، فكل ما يبعث به الانسان في نحر ودحض حق أخيه في الانسانية نكاد نجزم انه بسبب الفهم الخاطيء للنص والرؤيا القاصرة في الأحقية لجماعة بذلك دون غيرها، هذا التفاضل الذي يحمل الى الاعتبار بالطبقية الدينية. ثم استخدام كل هذا أو استمالاته لحماية سلطات اخرى كالمال والسياسة "فالدين في حد ذاته لا يمكن أن يضطهد، وإنما الذي يضطهد هو السلطة الممثلة في الدين والمستعينة بالدين، فهناك طائفة من الناس تضطهد باسم الدين، وقد تكون هذه الطائفة من رجال السياسة أو رجال الدين"².

فالاضطهاد باسم الدين الذي يمارسه من يحوزون الله بصورة ما فوق البشرية، لم تختص به خطاب ديني دون آخر، ولعله ما حمل الثورات على القيام، " يبعث الفيلسوف أرتو برسالة الى البابا يعارضه فيها: أيها البابا الكلب... إنك باسم الوطن وباسم العائلة تدفع إلى بيع الأرواح والسحق الطوعي للأجساد..، إن ربك الكاثوليكي كان يفكر على غرار كل الآلهة بالشر كله. إنك وضعت في جيبيك، لم يبق لنا ما نفعله بقوانينك وتحريمك الطائفي

¹ _ سلامة موسى، حرية الفكر وأبطالها، إدارة الهلال، مصر، د ط، د س. ص 54.

² _ م نفسه، ص نفسها.

وإكليروسك. إننا نفكر في حرب ثانية. حريك أنت، أنت أيها البابا الكلب¹، فالدين في حقيقته كخطاب جاء للتغيير والتجديد وإعادة ضبط آلة الحياة والإنسان على ساعة المصنع انسجام الإنساني والكوني والإلهي، لاعلى ساعة الزمن وحدها، لتعدل قيم تصحح ، ابتداء من الإنسان مفاهيم لهذه الذات كالصحة والجيرة والأخوة.... فأبو بكر صاحب الجاه والمال يصير بقوة التغيير التي يمتلكها النص صاحباً، يقيم باسم النص أيضاً مملكة لنصرة الضعفاء يتعقب أثر العبيد، وما يقاسونه بسبب ممارسات سلطات القبيلة باعتبارها متحدثاً باسم الآلهة وإن كانت من حجر، الممارسات عينها عند كل سلطة سياسية تجعل خطاب الآلهة المضمّر خطاباً مسموعاً بصوتها وتحققه كفعل بسطوتها. أبو بكر الذي كان من الرجال النماذج في التغيير، وأحدث ثورة بشراء العبيد بماله ثم تحريرهم لتحقيق العدالة الكاملة، فقد أعتق سبعة من العبيد، ممن كانوا يعدّون وينالهم سخط سلطات القبيلة الحاكمة بالشريعة الظالمة واللامتوازنة، ومنهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة... فالخطاب الديني الجديد (الإسلام/ القرآن الكريم ومعالمه) هو وقتها_ ثورة على السائد والأفكار التسلطية المركزية، الاقتصادية والاجتماعية، والأخلاقية والسياسية؛ ونبذهم لسيرورة المال والسلطة في يد فئة دون أخرى، واستحقاق للحرية للإنسانية جميعاً.

وقد قال خطابه الشهير بعد موت رسول الله " الضعيف فيكم قوي حتى آخذ له حقه، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله"، فليس هنالك خطاب يستمر إلا خطاب الثورة والتغيير، وهو الذي يبرر مجد حضارة النص في قرونه الأولى، حيث كان نصاً قريناً بالجدل والعمل والثورة والفتوحات والتغيير، "وهذا ما يبرز تذرر أرتو من المؤسسة

¹ _ مجموعة من الأكاديميين العرب، الفلسفة الغربية المعاصرة، صناعة العقل الغربي، تأليف مجموعة من الأكاديميين العرب، إشراف وتحرير علي محمود المحمداوي، منشورات ضفاف أمان الاختلاف، لبنان المغرب الجزائر، ط1 2013، ص 295.

الدينية التي تفرغ المسيحية من مضمونها الثوري وتجعلها في خدمة الدولة البرجوازية الرثة"¹؛ وهو التناقض ذاته الذي يبيح لفئة دينية أو طائفة ما الاستحواذ على الدين كغنيمة، تمنحهم بصورة ما حق التفوق على البقية؛ وحتى الاتجاهات التي ظهرت كما يبدو لنا معادية للدين في ذاته، أو مطالبة بفصله إنما للإكراهية والإلزامية التي تجبر بها الجماعات التي تضع الدين في جيبها كعملة أو منحة تكافئ بها أو تعاقب، ولقد امتهن الخوارج النص فتأولوه وخطأوا حتى باتوا يكفرون الرجال النماذج.

أما بالنظر إلى النص والاتجاهات والأيدولوجيات وعلاقاتها بالثابت الديني، وكما يبدو عادة هذا التنافر الحال لاختلاف طريقة البحث عن الحقيقة، لكن يبدو ان الامر لا يعلق بالنصوص المقدسة والثابتة بقدرما هو يتعلق بحامل الخطابومثله. فالماركسية مثلا لا تعادي الدين في ماهيته، "ولا يمكن النظر اليها من زاوية واحدة ضيقة في اعتبارها الدين قوة ظلامية وسلبية بذاتها، وانما تعتبر هذه الظلامية كامنة في تلك التشكيلات الجماعية التي يوظف من خلالها الدين"². هذه القدسية التي امتلكتها الجاهلية في شكل أطر ومنظومة قوية تآكل حق الضعيف باسم الزعامة وقول الآلهة، الآلهة التي يصنعونها بأيديهم، لكنها لا تأمر ولا تكلف، آلهة على مقياس الأمزجة وتقلباتها. إنها القيم التي جاء الخطاب القرآني كخطاب ثوار ورسول يعيدون بناء المجتمعات ونبذ السائد، وتفتيت المركزية، فالفرد حر في الجماعة حرية تضمن له التعايش والسلمية.

¹ _ الفلسفة الغربية المعاصرة، صناعة العقل الغربي، م سابق، ص نفسها.

² _ علي عبود المحمداوي، مع مجموعة مؤلفين، فلسفة الدين، منشورات ضفاف الامان الاختلاف، بيروت الدار ابيضاء الجزائر، ط1 2012، ص146.

الفصل الثالث:

النص والعالم

1_ اللغة وفهم العالم:

اللغة رديف العالم وفهم للوجود باستخدام رمزية الصوت/ الحرف/ الإنسان ؛ " في كتابه الوجود والزمان وضع هيدجر اللّغة في سياق جديد وذلك حين قام بتحليل الوجود - في - العالم بوصفه فهما وتأويلا، واللغة هي تلفظ الفهم الوجودي، واللغة هي وثيقة الصلة بالفهم بحيث يصبح التنكر المنطقي والتلاعب التصوري بموضوعات العالم أمرا ثانويا واشتقاقيا بالمقارنة باللّغة في السياق في التلفظ الأدبي للفهم"¹. فكل ما يحدث للتغيير وكل فعل أو حركة هو طريقة جديدة لفهم العالم. "ومن هذه الزاوية أمكن لهيدجر أن يهاجم النظريات التي ترى في اللغة مجرد أداة للتواصل والاتصال"²، فاللغة هي تلفظ الوجود أو العالم وأيضا طريقة لفهمه، ولهذا تولى الكتابة هذه القيمة والأهمية البالغة؛ وتولى النصوص ومنها النصوص المقدّسة لأنها فهم للعالم وتفسيره بطريقة ما. وهي صادرة من حياة الناس لإعادة تشكيل الوعي بالعالم ثم تفسيره وفهمه.

تلفظ العالم القائم في اللغة/ النصّ قائم من الانسان وإليه، فهل يستقيم الخطاب بموت الإنسان كقيمة؟ أو بصورة أخرى كنهاية للمعنى؟

أ_ نهاية الإنسان/ نهاية المعنى:

وباعتبار الإنسان قيمة متغيّرة في ذاته وما يصدر عنه، هل يمكن القول بتناسب الانفلات من الدين/ النص الدينيّ مع حاجة الإنسان على اعتبار أن الدين قيمة ثابتة في حياة الإنسان؛ فقد تعالت صيحات جماهير زرادشت: "أعطنا ذلك الانسان، يا زرادشت، اجعلنا ذلك الإنسان"³. ما يطلبه هذا الإنسان المثالي إنسان الحداثة واللحظة والوفرة والمال؛

¹ فهم الفهم مدخل الى الهرمونطيقا. عادل مصطفى. دار رؤية القاهرة ط1. 2007. ص257.

² م نفسه ص نفسها.

³ عن فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، تر جميل قاسم، ورضا الشايبي، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص288.

"هل ما نلمحه حقا هو الانسان فعلا في صورته الكلية المطلقة، أم أنه ليس إلا الإنسان في بعده الجزئي والنسبي المتحول في الزمان والمكان فحسب؟ وهل يحق لنا أن نتحدث عن ثوابت في الانسان حتى يمكن أن نتحدث عما بعد تلك الثوابت ضمن تشكل ليس هو الانسان الواقع لكنه "الما بعده"¹، إذ تتضمن الحياة والواقع الجديد الانسلاخ من دور الإنسان إلى أشياء أخرى غيره، لا يهم ما هي هذه الأشياء؛ الآلة أو التكنولوجيا أو الرقمنة أو التشيؤ المهم أن هناك انزياحا إلى كينونة أخرى تفقد الإنسان قيمته إلى قيمة جديدة لا تعتبر بأناسته، وقد تلغيه بدعوى العقلانية بل بدعوى الأناسة وسلطتها. "أن المذهب الانساني يقترب من العقلانية، لكن الشر قد دخل العالم مع هذا الانسان"².

والمطلوب إذا كما يقول ريكور هو: "إعادة صياغة الانسانية في الانسان وتحديدها لا من حيث تمايزها واختلافها مع انسانية الاخر، بل من خلال الاندماج به لتشكل معه وحدة جدلية يكون فيها التناقض شرط وجود هذه الوحدة؛ وبذلك يصبح الخير والشر واحدا في تشكيل هذا الوجود"³. هذا الإندماج الذي يحتاج إلى الاختلاف والتناقض ليضمن الانسجام والوحدة والتآلف. وقد أسس القرآن ذلك بعقيدة الإيمان التي تجعل الرابط المشترك أقوى من رابط العشيرة والدم والمجتمع ليقضي النص على مفهوم إنسان القوة والسلطة والمؤتلف فقط؛ ويؤسس لمفهوم التقبل بالاختلاف لتجسيد المجتمع/العالم. فقد "كانت قرابة الدم العنصر الحاسم في تصور العرب الجاهليين الوحدة الاجتماعية؛ وقد طور القرآن في مواجهة هذا المفهوم المتمتع بقدسية الدم، فكرة جديدة عن الوحدة الاجتماعية لم تعد تقوم على القرابة، بل

¹ _خطابات الما بعد، في استنفاذ أو تعديل المشروعات الفلسفية، مجموعة من المؤلفين، اش وتق علي عبود المحمداوي، منشوراتصاف بيروت، الاختلاف، الجزائر، الامان الرباط، ط1 2013، ص28.

² _بول ريكور، فلسفة الإرادة، الانسان الخطاء، تر عدنان نجيب الدين، م ث ع، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط2 2008، ص 91.

³ _ نفسه ص 11_12.

على الإيمان الديني المشترك¹. وصارت الجماعة هي الواحد، فلا يتحقق الفردي إلا بالجمعي والمشارك، ولا يتقوى معنى البشري إلا بصفات تؤسس للإنسانية.

الإنسان النصي إذن العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة والأمانة صفات تؤكد بشرية الإنسان، حتى وإن أطلقت على الإنسان مجازاً فقط. وظهر الإنسان عند بعض الصوفية في نظرية "الإنسان الكامل" الذي تتحد فيه أيضاً الصفات عند ابن عربي والجيلي. وظهر الإنسان في علوم الحكمة أي الفلسفة كنفس وبدن أو روح وجسم بين الإلهيات والطبيعيات، جسم في الطبيعيات وعقل في الإلهيات، وليس الإنسان الواحد الوجودي الموجود في الزمان والمكان. فالإنسان بين عالمين كما قال الكندي. كما ظهر الإنسان العامل في الفقه الذي ينفذ الأوامر ويجتنب النواهي بدافع الطاعة والإيمان والتقوى والعمل الصالح.²

ذكر الإنسان في القرآن الكريم خمساً وستين مرة مما يدل على أنه موضوع رئيسي. فقد خلق الإنسان ولكنه عُلِمَ البيان، (خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. الرحمن الآية 3-4) خلق هشاً ضعيفاً متعجلاً، لا يعي الزمان، تحركه الدوافع، وتسيره الانفعالات. يطلب العون في ساعة الشدة، شاكياً، جاهلاً مجادلاً، وسواساً، متأملاً، ناسياً. يترصد له عدوه الذي ينكر كرامته فيحققان إن حدثا لانسجام بين الخلقين توازن القوى وتضافرها ويرفض أن يسجد له. ويهدد قيمته ووجوده. ولكنه يتحالف معه ليحقق إرادته مع وجود إرادة الله التي كانت سبب وجوده وخلقته، ومن هنا تتحقق أولى بوادر الإنسان المسؤول عن خطيئته، فبعد أن كان مسيراً حتى تحالفه مع عدوه، اختار له طريق الخيار بارادة الشر/ والضعف/ والعجز فيه وبحريته أيضاً. الحرية التي جرته كثيراً إلى وبالته؛ إلى الموت والقتل، والخطيئة، والتناحر والشقاق.

¹ - الله والانسان في القرآن، إيزوتسو، ص 133.

² - حسن حنفي، القرآن والإنسان. ص 41.

وهنا تبرز مسؤولية الإنسان وتحمله الأمانة، الذي كان خياره: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)، ومع ذلك يتحول الإنسان الهش إلى قوة صلبة.

لذلك ظل الغرب يزهو علينا بأنه وحده الذي أعطى العالم مفهوم حقوق الإنسان منذ نشأة النزعة الإنسانية في القرن السادس عشر عند أراسموس والكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر... إذن أنا موجود" في القرن السابع عشر، والإنسان مركز الكون في الثورة الكوبرنيكية عند كانط، ومثال من مثل التنوير في الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر. وصور الشعراء كما فعل شيلي في "برومتيوس طليقاً" بعد أن قيده "إله" اليونان لأنه أراد سرقة نار العلم ونور المعرفة.

صحيح أن الإنسان هو الإنسان الغربي في الممارسة، الإنسان الأبيض القوي المتحضر، النموذج الأوحده، السوبرمان، وليس الإنسان الأفريقي الآسيوي، الأسود أو الأسمر أو الأصفر. وصحيح أيضاً أنه مجرد فرد لا جماعة. غير أن الغرب ذاته يدافع عن حقوق الإنسان وينتهك حقوق الشعوب. أعطى العالم "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" ولكنه نسي "الإعلان العالمي لواجبات الإنسان". في الغرب حقوق بلا واجبات. ولدينا واجبات بلا حقوق.¹ هناك انفصام حاصل بين ما يحاسب المسلم نفسه ليكون تبعاً له، ثم لا يؤديه، متصلاً منه إلى ما هو شكلية في الخطاب الديني، أو طقوس يستكمل بها، كالمظهر والطقس، والطريقة التي تؤدي بها العبادات، والتي فصل فيها محمد النموذج في أمثلة

¹ _ م نفسه. ص ن.

عديدة؛ "صلوا كما رأيتموني أصلي"، فالجماعة بالمفهوم الديني أيضا لا تتحقق قيمتها إلا بالنموذج والقذوة.

_لا قيمة للإنسان/ (أو الإنسان اللا قيمة) وسطوة السياسي على الديني:

يتحدث نور الدين السافي¹ عن «حقوق الانسان بين الخصوصية الثقافية والكونية»، مشيرا الى أن العقل المزعج يعيد التفكير في الأشياء، فحين يكون العقل نبيا يوحى للانسان بما يفعل وبما لا يفعل، ويكون الانسان هو المملكة كما عبرت عنه العلمانية، فان المسألة تصبح أعقد، وقد أخطأ الغرب في تطبيقهم للعلمانية التي أصبحت تستخدم لأقصاء الدين من الساحة العمومية، فأصبح من حق السياسة أن تتدخل في شؤون الدين، ولكن في المقابل ليس من حق رجل الدين أن يتدخل في شيء². وهو الأمر الذي يحدث فجوة تتزايد هوتها؛ مؤسسة لانفصام الفهم بعدم تحقق التواصل بين النص ومنتقيه (المتلقي المسلم): فإذا نظرنا للمسألة من زاوية الدراسات العلمية المعاصرة فإن المتمثلين للقرآن، في ضوء المقاربات الحديثة للكتب المقدسة والنص الديني عموما، تصبح ضئيلة جدا؛ ولعل هذا ما دفع المفكر يوسف الصديق إلى القول بوقاحة جميلة، "نحن لم نقرأ القرآن البتة". ثمة إذن، فجوة كبيرة تفصل مسلم اليوم عن القرآن، لا من جهة المبادئ العقديّة العامة التي يتضمنها (التوحيد، الايمان بالرسول، والملائكة والزامية الصلاة والزكاة، والصوم والحج وبعض الأحكام الشرعية)، إنما من جهة المقاصد التواصلية له كخطاب جاء به محمد بن عبد الله، في لحظة تاريخية مخصصة، إلى سكان منطقة الحجاز، خلال العقدين الثاني والثالث من القرن السابع بعد الميلاد³.

¹ _ أستاذ بقسم الفلسفة جامعة تونس.

² _ حقوق الانسان تكيل بمكيالين، هيثم سلامة، الراي الكويتية، ع ابريل 2010، شوهذ اكتوبر 2017.

³ _ محمد مخاطبا في القرآن، مقال الكتروني، حافظ قويعة، مؤمنون بلا حدود، www.mominoun.com.

فمع ما تتجبه الفلسفة كل يوم، وما يقول به إنسان اليوم الذي يرفض أناسه، ويقتل إلهه، ويقطع الصلة بينه وبين القيمة والأخلاق، ينجّر الإنسان المسلم نحو منهج لا يتوافق مع كتالوجه، فمنذ نيتشه، بل مع حدث الأنوار نفسها ونقدها للوهم والخرافة، اعتبرت العديد من التحليلات أن نشأة العالم الديمقراطي كانت نتيجة قطيعة أساسية مع الدين. "موت الله". خيبة الأمل في العالم " فيبر، غوشي"، نهاية " اللاهوتي - السياسي "كارل سميث" " دنيوة، علمنة": إن هذه العبارات المراقبة والمتنازع فيها كثيرا أو قليلا، ترمز اليوم إلى تاويلات عديدة؛ لنفس الواقع: حدث علماني لم يعد فيه الإيمان بوجود الله يبين فضاءنا السياسي. ليس لأن الإيمان كما يؤكد غوشي Gouchet قد اختفى كليا، وإنما لأنه أصبح بالنسبة لأغلبنا شانا شخصا ينتمي إلى الحياة الخاصة_ فيما فرض على المجال العمومي أن يتخذ بهذا الصدد موقفا محايدا.¹

هذا الاتجاه نحو المنهج الأقوى، والحياد عن المنهج الأصل، والذي أسس لقطيعة الذات مع ذاتها، فقدان الهوية العقدية ثم الهوية الإنسانية، التي تقول بضعف الإنسان أمام القوى، استوسطه القدرة بين الدبيعة والإله.. وبوقوفه عاجزا أمام تطويع الغيب، وإن طوع الطبيعة، التي هي أيضا لا يأمن مكرها، فقدتغول عليه ف أي لحظة، كما حدث ويحدث خلال الكوارث والآفات الطبيعية التي هو في جدل معها منذ صالح وموسى ونوح ومحمد، ... فقد أثبت الإنسان المتعالي بماديته أنه عاجز أمام تغول الطبيعة، وأمام الخفي والمضمّر من الغيب. الإنسان يصنع مستقبه، لكنّه عاجز عن المستقبل الذي يضمّره الزمن الحقيقي. هناك عدم توازن تأسس على الاستعاضة عن اليقيني والثابت لحساب المتغيّر واللامضمون.

¹ _ الإنسان المؤله أو معنى الحياة، لوك فيريز تر محمد هشام، إفريقيا الشرق، المغرب، ط 2002، ص 26.

3_ الدعاء : اللغة وقلب العالم:

النص والواقع المؤتمل:

الدعاء خطاب ديني يربط التواصل بين الأدنى والأعلى في نفس الخط بالتوازي مع الوحي متجه في طريق تعاكسه، وثيقة نصية تثبت قوة الإقرار بالضعف والافتتاع بالحاجة؛ وهو نص يتأسس في أصله اللغوي ومادته الدلالية من النص المصدر (الخطاب القرآني)، يرفع من طرف مرسله لتحقيق واقع مختلف، والدعاء كوثيقة خطابية وسيلة لتغيير الواقع الحاصل إلى واقع مرجو مطلوب، أو طلب حصول واقع مرجو قبل حصول واقع مرفوض، تأخذ هذه الوثيقة قيمتها من اتصال الواقعين مرة أخرى الأدنى بالأعلى، صلة لا نجدها إلا في الصلاة، وتتحدد قيمتها أيضا من علاقتها بالنص، وصيغة الدعاء كخطاب ديني، مختصرة جامعة، هذا النص غير مقرون بزمن وغير محدد بمكان ولا بحالة لا بهيئة، (الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) الكهف الآية 28. وعلى هذا الأساس فالدعاء ذكر وعبادة، وقد قيل هو "مخ العبادة"، لأنه وثيقة إيمان بوجود من هو أقوى من الإنسان في ضعفه وحاجته. وتضمن بالضعف والنقص الذي قرن بهما ابن آدم في كل النص القرآني، وفي المقابل هو إقرار بالقوة لوجود المدعو وقدرته وقوته وطاقته وتمكنه وتمكينه. فإذا كان هناك من يدعو فإن هناك من يسمع. والدعاء على قصره كخطاب كان وسيلة من هم أقوم رؤيا، الأنبياء والمرسلون والصالحون. وهو بصورة ما إعادة هيكلة للخطاب المرجعية؛ وإعادة ترتيب لاتجاه الخطاب هناك وثيقة قولية بين طرفين، بين من يحتاج من يدعو وبين من يحقق الرغبات ويجيب الدعاء؛ نداء خفيا، والدعاء لا يحتاج إلى تحريك الشفاه، فالداعي مع مدعوه مؤمن بوجوده وقدرته وأنه يسمعك وإن خفوت. ومن هنا كانت قيمته كخطاب لأنه محقق لشرط الثقة واليقينية والإيمان بالمدعو. إذ لا يصرف الدعاء

لغير المعبود، "قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم"¹، يأخذ هذا النص قيمته من منشأ لغته ودلالته، فلغة الدعاء موكولة إلى الكتاب ومن جاء به تنهل من هذا النسق وتأخذ منه، وأكثر الدعاء قيمة ومنزلة ما كان ذكرا وقرآنا.

يقول **الخطابي**: معنى الدعاء استدعاء العبد ربه عز وجل العناية، واستمداده المعونة. وحقيقته إظهار الإفتقار إلى الله تعالى والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية والذلة البشرية.²، فالرجاء والأمل الذي يتحقق بالدعاء واصل بين واقعين متحقق بالضعف البشري ومتخيل مرجو بالقوة الإلهية. " وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " البقرة 127. فتقترن قيمة العمل في الواقع الأدنى بالقبول المرجو من الواقع الأعلى. " وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) " الأنبياء .

" وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ 87 " الأنبياء . وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) . الأنبياء 89_ 90 .

في الأمثلة السابقة حالات من الضعف البشري يلجأ أصحابها وهم بشر بمرتبة مرسلين، إلى الدعاء كوسيلة للتواصل والتوسل بين زمنين، من أجل تغيير العالم الواقعي المرفوض الممثل للضعف والمرض والنقص والحاجة إلى عالم مرجو من القوة والصحة والمال والكمال. لكن هذا الرّفص غير مقرون بالتعدي والإنكار، إنما هو رفض وطلب تغيير

¹ بعض المستفاد منه هنا هو من خطابات مصورة للشيخ راتب النابلسي.

² الخطابي، شأن الدعاء .

لواقع مقرون بالرجاء واليقين في المرجوّ بالتحقيق إلى واقع بديل، هذه المعرفة اليقينية بأن المرجوّ حاصل بالدعاء هي التي أثبتت تحقق هذا الواقع البديل في النهاية. لأنّ كل نص/دعاء هو نص مفعّل بإقرار بالمعرفة اليقينية ولغة وثوقية أي بتمام تحقق التواصل والانسجام بين العالمين. "أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، إنك سميع الدعاء". فالتركيب الذي تتأسس عليه بنية الدعاء، مسند بأدوات التأكيد ومرسوخا بصفات المدعو وتنزيهاته؛ وهو ترتيب منطقي تحققت فيه تعاضم قيمة المدعو بحسن ترتيب أجزاء الدعاء.

4_ انسجام النص والواقع الغيبي:

استطاع الخطاب القرآني أن يفعلّ خيال الانسان/ المؤمن، فجعله يعيش بين أزمنة مختلفة، ويتجول في جغرافيا محسوسة وأخرى متخيلة، يجوب أمكنة ويصل تخوم النعيم والسعير بدون جسد، أمكنة لا وجود لها الا من خلال ما يصوره النص ويسمح به من تخيل في ذهنمّتلّقيه، لكنها عوالم متعلقة ببعضها، فالجغرافيا الادنى (الحياة الدنيا) تيسّر سبيل الحياة في جغرافيا التخيل (الجنة او النار)، التي بصورة ما تسمح للقارئ بالتخيل من خلال صور ومحسوسات يعرفها، وتستخدم معجما لغويا هو ذاته الذي يعرفه الإنسان العربي منذ القدم، ربما تغيرت المدلولات بفعل الاقتران بهذا العالم المتخيل الذي خلق لألفاظ المعجم العربي البدوي مدلولات لم يسبق له معرفتها، لكن مع ذلك تستخدم اللغة القرآنية أسماء وصفات ومفردات من بيئة العربي ومعجمه. مفردات يعاد تشكيلها من خلال اقترانها بخطاب جديد (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ) الآية 198 سورة عمران.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا). النساء الآية 57.

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) التوبة الآية 72.

(مَثَلُ أَلْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) الرعد الآية 35.

(أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) الآية 31 سورة الكهف.

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا(5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا(6)) (مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا) الآيات 5،6 و13 الإنسان.

ولم يكن هذا العالم التخيلي الذي سينتظر في الحقيقة القرآنية المؤمن والكافر، ويصدق به المؤمن، عالماً لخاصة من الناس، إنما هناك صور لأزمنة غيبية ووقائع وأحداث، مقابلة للأنهار والجنت والنعيم المتخيل والحوار الجميلات، والماء العذب والعسل المصفى، والثياب السندس وخيم النور والنساء الحور، وأباريق الخمور.. هناك زمن آخر وأمكنة مقابلة في التصوير: هنالك سلاسل وأغلال، وأشربة من نار، وألبسة من قطران، أماكن تضج بالعصاة والرافضين في الزمن الدنيوي، ومن تمتعوا جسداً وتناسوا روحاً: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) الآية (4) سورة الإنسان.

إن الرابط بين العالمين هو عنصر التخيل الذي هو عنصر ضروري عند البعض للراحة من عناء الحياة المادية¹؛ اليقين الذي يحمل المخاطب القارئ إليه، إنها لغة مربوطة بالتصديق بالغيب أو متاحة بالتخيل المتصل بيقين المؤمن وتسليمه. بالمؤتمل والمرجو والمتخيل (فالوجه الديني للثواب هو مجموعة الصور والتصورات التي تشكل خيالاً كونياً، فهناك أنهار تجري، ومنازل (من قصب وذهب) منازل رائعة تقع وسط حدائق غناء، وجنات تجري من تحتها الأنهار ولكن يستحيل أن نحدد موقعها أو نموضعها في زماننا البشري ومكاننا المحسوس، فهي تنتمي الى جغرافيا أخرى غير جغرافياتنا. إنها تنتمي الى جغرافيا علوية سماوية لا أرضية بشرية"². وهناك على الضفة الثانية جغرافيا من النار وبراكين وأصهدة، هناك أمم يلوكلها العذاب.

5_ السرد القرآني: الزمان والمكان المتخيل:

فتح النص مخيال القارئ على وجود عالم آخر يوازي عالم الإنسان، وجود عيني يلمسه ويراه ويعلمه في عالم المشاهدة، ووجود غيبي يعلمه الإنسان ولا يراه، يوازيه في الزمان والمكان، وجود عالم آخر عالم منتظر يأتي لاحقاً كمرآة لما يحدث في عالم الشهادة، يشيع فيه السلام والجمال والسكينة. كما يظهر فيه عقاب وجزاء. لا يمكن للخيال القارئ المتلقي ولا المتخيل ان يتوقعه ويتخيله مهما كان شاسع مساحته؛ لكن النص فتح قنوات لربط المخيال الإنساني البسيط بوجود غيبي لا يُقبض على زمنه ومكانه إلا ما يتصوره فيمحيط تخيلي أو ما يسمح له النص بتصوره من خلال علاماته اللغوية، هذه المساحة من التخيل هي ذاتها المساحة التي تبقى إنساناً ما بين وثوق وشك، قيد الامل إنساناً خالداً، فهو في ماديته وواقعه فان ومنته، لكنه خالد في المساحة الثانية من العالم المتخيل.

¹ محمد زغلول سلام، النقد العربي في القرن الرابع الهجري، ص30.

² قراءات في القرآن، محمد أركون، الوصية الأخيرة لمحمد أركون، تر: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت لبنان، ط1. 2017، ص544.

يختم الله سورة هود بقوله "وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (120) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (121) وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (122) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)". ليدخل القارئ بعدها في سورة يوسف: سورة الغيابات، غيابات الدلالة والتأويل، غيابات العلاقات الأسرية وإن كانت في بيت حكيم أو نبي، غيابات الجب، غيابات السجن، ثم تأويل كل ذلك على بساط الملك، فما كان غيبا صار واقعا وما كان متخيلا ولا يتمكنه عقل صار معلوما متحققا بفعل السائل والمؤول معا. إن كل حياة هي حكاية تحتاج التأويل، ولهذا سبق تعالى بقوله (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) الآية 120 هود.

إن اتفاق أجزاء النص/ الذي هو الخطاب القرآني كله دون تجزئة أو تفريق، بهذه الدقة أمر لافت، لأنه عادة ما يتحقق هذا الارتباط والتواصل مع كل سورة سابقة ولاحقة، فكل سورة تعلن عن السورة اللاحقة كفهرس مسبق للمعرفة القادمة، سواء من خلال المقدمات أو المختتمات، التي تجهز التوقع اللفظي والمعنوي أو الفكرة التي ستعلن في بداية النص القادم. ولعل هذا الأمر يحتاج إلى إضافة في ما بعد أو امثلة عن ذلك.

المعرفة بالتأويل جزء من معرفة ما سيأتي، حل لإشكال الغيب المبهم بربط الرموز وفك العلاقات، لكنه ليس معرفة للغيب ولا حلا لإشكال الشخصي والخاص، فمن كان بإمكانه حل إشكال الدولة وفك مشكلة اقتصادية كبرى فيها بل وفي العالم بأكمله، الخلل الاقتصادي والمجاعة التي قامت فترة سيدنا يوسف، ورغم علمه بطريقة حلها لم يتمكن من حل أشكاله الغيبية ولا فك شيفرة رؤاه، ومعرفة القادم من حياته. " وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ

اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ.. " الآية 31 هود/السورة السابقة ليوسف. " قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُنْتَعِبُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (48) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (49) " الآية 48_49 هود.

إن جحود الإنسان/ الكفر والذي هو عكس الإيمان¹، قائم على تكذيب الآتي، وعدم إيمانه بالتغيير، الترسخ في الماضي ما لا يسمح للقادم باحتلال الفكر، عدم إعطاء الخيال مساحة من التفكير، الذي أمر به الله. فما الإيمان بالغيب إلا تتفتيق للعقل وفتح لمسافته ومساحاته على اللا معقول، على الآتي وعلى المستقبل، الذي لا يمكن التكهن به لكن الاعتقاد والإيمان يدركه في شكل يقين. " يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدُّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52) قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) " 52 و 53 هود. سورة هود والتي ذكر فيها قطع الصلة بالماضي.

فالحضارات التي تتعلق بالنصوص يطول أمدها وبقاؤها وترسخ معجزاتها، لأن البشري فيها يتحرك بتوجيه الخطاب. ولا يحيد عن الثابت، كحصن يمنع عنه إهانات العالم الحديث، " حضارة القول باختصار؛ الحضارة التي ابتكرت مفهوم "الإنسان الكامل" مقابل

¹ _ الإيمان هنا بمفهومه اللغوي أولاً وكذلك الكفر، والذي هو الجحود والتلبس بغمامة التكذيب.

كل تلك الإهانات والصفات التي وجهتها المدنية الحديثة للإنسان".¹؛ ذلك أن أشياء كثيرة أثبت تفوقها على الإنسان من الآلة حتى الحشرات والفيروسات رغم تعوّله وطغيانه وتألّفه، هناك ما فوق قدرة البشري فوق علمه هناك عليم.

يستطيع النص بناء العالم، وبإمكان النص هدم العالم، ويستطيع ان يعيد بناء العالم، "ان النقاش الذي خاضه إدوارد سعيد في كتابه (العالم النص وناقده) ظل وفيا لأطروحاته النقدية التي تحاول أن تبرز التناقضات الكبيرة في الثقافة الأوروبية وتحديدًا: كيف تواطت الرواية الأوروبية (كنص وثابت) مع النزعة الاستعمارية ومع الايديولوجيا الامبريالية"²؛ يمكن للنص اذن ان يتواطأ مع الواقع ليصنع واقعا آخر. يشير إدوارد سعيد أيضا الى هذا العالم المطلوب والذي تحقق بالكتابة والنقد معا، فقد وجد "ان اليات التأويل الغربي للسردية الأوروبية لم تلامس عن قصد او عن غير قصد هذا الجوهر التاريخي الذي يميز الرواية الأوروبية. وباسم النزعة النصية والانظمة الداخلية للنصوص. تعطلت آليات التأويل وأصبح النقد يعاني العماء (المصطلح ليول دييمان)"، لأنه لم يعد يبصر بين الرواية والاستعمار"³.

نزل الخطاب القرآني مقطعات وافقت حياة الناس وألهمتهم لحل إشكالات مجالية، "فموقفي هو القول بأن النصوص... هي أحداث الى حد ما، وهي فوق كل هذا وذاك قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية وقسط بالتاكيد من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها حتى حين يبدو عليها التتكر لذلك كله"⁴؛ فأغلب الخطاب القرآني كان

¹ _ علي حرب، التأويل والحقيقة، دار التنوير، بيروت لبنان، ط 2007، ص 58.

² _ لونيس بن علي، جدلية العالم والنص بين ادوارد سعيد وبول ريكور، مجلة اللغة والادب، تصدر عن جامعة الجزائر، ع 22، ط جويلية 2014، 283.

³ _ م نفسه، ص 284.

⁴ _ إدوارد سعيد، النص العالم الناقد، تر عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط 2000، ص 08.

خطابا يرجى فهمه واستكمال معناه أولا من ربطه بمناسبته، أو لأنه خطاب يرجى تغيير واقعه، وتشكيل دستور من الإجابات التي جاء بها النص، والتي وقع فيها العربي في صورة الشاعر الجاهلي متخبطا يقطع خيباته بالترجل في مساحات النص، فيكتبها سؤالا وقصيدة؟.

فاستلهم من اللحظة ما يناسبها من نص، وطرح الأسئلة التي اثارها الواقع، والجماعة والفترة الزمنية، ليجيب عنها بتوازن بين الحاصل وما على الدستور أن يغيره، حاول أولا كشف الخلل في المجتمع وسد فجواته، أن يجمع المتصدع، بميثاق واحد، لم يعرف العرب مثله، بين القوي مالك السلطة والجاه والقوة، والضعيف المملوك والفقير والهامشي، حقق التوازن أولا بالمساواة؛ التي حاربها وجهاء الجغرافيا المكية، لا من حيث رفض الجديد كبديل قفز عن موروثهم، وإنما أيضا لعدم فقدانهم الوجاهة والسلطة السياسية ووالاقتصادية، ولهذا حاولوا جعل هذا الخطاب خطابا ثقافيا يجلّونه، أو خطابا معمّي مبهما ومدهشا (لما قايسوه بخطاب الكهانة والسحر والشعر)؛ ثم ما جاور النص من خطابات السخرية التي تجذر للنص بمقاربة واقعه وانتمائيه، كقولهم مستهزئين: "هذا نبي بني عبد مناف؛ ورد أبي سفيان غاضبا ومستنكرا: أتتكرون ان يكون لبني عبد مناف نبي؟"¹، رغم كونه يعارض هذا النص ويستنكره، معارضة مكانة ورفضاً للتفرد بالزعامة القادمة والمفترضة في (النبوة)، وما حدث مع الوليد بن المغيرة مع ما سمعه من نص (إن هذا إلا قول بشر) الفرقان 25.

حين صار الخطاب وتأويله وفقه_ ووفق ما عرفه العقل العربي حينئذ وما توصل إليه في فهم النص الجديد، طبعا لكون الوليد بن المغيرة أفهم الناس بالنص واقرأهم للشعر " فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قاله وإنك كاره له، قال فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل

¹ محمد عابد الجابري، فهم القرن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، مركز دراسات الوحدة العربية، القسم الأول، ط6، 2016، ص 30.

أعلم بالأشعار مني ولا اعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه"¹

ولخوفه من خطره على زعامته ومكانته في قريش، يردف عليه بعد أن يعلم فقدان ثقة قومه به، فالقبيلة أشد حصناً ومناعة من هذا الوافد الجديد، وهي إليه أقرب إليه من قادم بعيد لا مشهود (يأتي من السماء)، الايمان بالدولة التي دستورها القوي، والزعيم والسيد، أولى من التمسك بدستور يساوي بين سيد وعبد. دستور لا قبل بموثقه؛ والمعرفة التي منها ينطلقون معرفة حسية تثق بالحسي (حجراً او خشباً أو مزود تمر)، " وقال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره"²، فلا مجال لرفض هذا الخطاب الذي جاء ليكون متوازناً مع الواقع الذي سيغيره، إلا بتأويله الخاطئ ابتداء من تضليل العامة في ماهيته، على اعتبار أن الوليد بن المغيرة لم يكن شخصاً عادياً في فهم وتأويل الخطاب. ولا شخصاً ذا مكانة عادية في عشيرته.

6_ الواقع __ عالم الخطاب:

لم يكن الخطاب القرآني مجرد لبوس حاضر ركب تركيباً على الواقع، ذلك أن مجزئاته التي انتظمت فيما بعد لتشكل نصاً كاملاً ومتكاملاً، جاءت من مواضع منطقية بينه وبين السياق الذي حصل فيه. "الحضارة التي تأسست ونضجت علومها على أساس كان فيه النص مركزياً مؤكداً أن الحضارة وحدها لا تصنع نصاً، لكن الذي يصنع النص هو جدل الإنسان وتفاعله مع النص ومع الواقع"³. ولهذا فحين نتبع النص بالبحث والفهم فعلى لنا التزاماً فهم الواقع الذي اوجده، وفهم الواقع الذي يوجد له إذ "كيف يتم صعود الواقع إلى النص؟ سؤال أبي القاسم حاج حمد، فذلك عبر الاشتراط المنهجي والمعرفي لكليهما معاً، أي

¹ _ الحافظ اسماعيل ابن الكثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج4، دار الجيل، بيروت، دت، ص443.

² _ م نفسه ص نفسها.

³ _ من النص الى الخطاب ص 49.

القرآن والواقع، فدون أن تتوافر في الباحث قدرات الفهم المعرفي والمنهجي لقضايا الواقع نفسه، فلن يكون لديه ما يطرحه على القرآن أصلاً. أما إذا أدرك الباحث في الواقع من صيرورة وتحولات وجدلية ومتغيرات نوعية وضوابط فكر منهجي يتطلب التحليل والتركيب معا بطريقة معرفية لا تخضع للثوابت والمسلمات الإحيائية أو اللاهوتية القديمة، وإن جدل الإنسان وجدل الطبيعة متحققان بمستوى ما، وقتها يمكن للباحث ان يكتشف في القرآن منهجا معرفيا مقابلا، وليس مكافئاً فقط لمنهجه ولكن مستوعبا ومتجاوزا أيضا... وبذلك فقط يتم التحقق من القول (أن القرآن معادل موضوعي بالوعي للوجود الكوني وحركته)... فان نفهم القرآن بالواقع وأن نفهم الواقع بالقرآن فإن ذلك يتطلب رؤية ووعيا منهجيا ومعرفيا لكليهما¹.

لقد أكد تشومسكي على أن تحليل اللغة ليس عليه أن يكون وصفاً إنما شرح لما يمكن تصوره من اللغة "فالشيء المدهش والعجيب في نظره هو ان اللغة أداة خلق لا متناه، لأن التحليل اللغوي ينبغي أن يكون وصفاً لما تم قوله؛ وإنما هو شرح وتحليل للعمليات الذهنية التي تمكن الإنسان من التكلم بجمل جديدة لم تطرق سمعه قط".

يتأسس (الانسجام نصا) أو ارتباط نص بآخر ما يحقق التكامل بهما معا؛ على أساس من العلاقات التي تحقق تواجد نص في آخر، متمما له وفاتحا مجال الاستمرارية والتواصل. فالنصوص تتأسس على سابقتها، ليس على أنقاضها، وإنما كبناء حضاري لا يتحقق قادمه إلا بسابقه، وحاضره بسابقه ولاحقه.

والنصوص تختلف، فالنصوص الملفوظة نص، وما نتلفظه من خطاب نص يحتمل مرسلا ومخاطبا على رأي بنفست، والإنسان الذي يتحقق به النص هو نص، والعالم الذي

¹ - أبو القاسم حاج حمد، المر نفسه ص 11.

يتأسس على الإنسان والنص معا هو نص جامع للنصوص. وعليه فالانسجام يتأسس على ارتباط هذه النصوص معا، لتشكل المقروء والمؤتلف.

والنص القرآني كنص كامل ومجتزئ، نص يربط مستوى تلقيه بين الأعلى والأسفل (السماء والأرض)، وكنص لا يحتمل قارئاً ومتقبلاً واحداً، في منحى استقباله، إذ النصوص التي يكتبها الإنسان، تبقى مستويات تلقيها وعناصر وكنص يُقرأ ويؤدى، يفتح مجال البحث في ترابطه وانسجامه، بين أجزائه كنص (ملفوظ) وخطاب (متلفظ)، ونص محمول كانت طريقة تلقيه الأولى عن طريق تلفظه، ووافق حالة تلقيه مظاهر لمن يتلقاه ويستقبله، ليتمكن بطريقة ما من حمله مرة أخرى وإرساله في شكل خطاب يحمل من سمات صاحبه وطريقة توصيله. إذ أيضا "ليست اللغة سوى ظاهرة سلوكية من الظواهر القابلة للملاحظة والقياس"¹

وكنص ممارسة أيضا، أو كحياة، لم يتوقف استقباله عند تكريره وتواتره وحفظه والاستشهاد به، أو ظل مربوطا بمنصة تقبله الأولى التي جاءت في إطار عقدي.

وليس المطلوب من القارئ للنص إثبات قداسته، أو الحديث عن قداسته، فهذه ليست مهمته، ما سيحيل بالضرورة على انسجامه كنص مقدس، ومن ثمة قرن هذا الانسجام بحالة الانبهار المسبقة/ القبلية به، أو اللاحقة/ المتوارثة فيما بعد عنه، التقديس هو الحكم الخاطئ الناجم عن حالة الانبهار الأولى للخطاب، التي هي تأويل لحالة فردية تتسم بالابتسار والرؤيا الموجهة. المطلوب قيمة النص بالتفعيل والتفاعل. تحقيق انسجام بينه كخطاب وبين مؤديه كفاعلين للخطاب

¹ _ جدل اللفظ والمعنى، دراسة في دلالة الكلمة العربية، ار وائل، عمان، ط1. 2002، ص35.

7_ النص والكون:

هناك علاقة تربط اللغة بالعالم فنحن نعبر عن العالم باللغة؛ يفكر الإنسان داخل اللغة، واللغة هي رابطته بذاته وبالآخر وبالعالم، في دراسة هايدغر لشعر هولدرلن ظل يبحث عن علاقة النص بالكون "إذ يشدد على القربى بين الشعر والكون"¹، هناك احتواء للكون باللغة والمجاز، وفهم وتوسل بها لما هو موجود وما هو غائب عن الحواس، فاللغة وحدها تمنطق اللامنطق بالمجاز والشعر والفلسفة؛ و"لا يتردد هايدغر في ربط فلسفة الكون L'Être بالتراث الماورائي"². فالنص الثابت يضبط توترات العالم المتغير، يحضر العالم إذا ويوجد بالكلمات، تحضر عند الفلاسفة بالصوت كما سبق البحث؛ "أفلاطون وعلى غرار ورثته، ومثل كل الفلاسفة المثاليين، ينتهي؟ إلى إدانة الكتابة التي يعتبرها غريبة عن الحياة (لا بل معادية لها). فبما انها يمكن ان تقرا وأن تعاد قراءتها في سياقات مختلفة ومتغيرة، تكون قابلة للتأويل وغير ثابتة. بدلا من أن تتضمن حضور الحقيقة _ كما يفعل الكلام، الصوت الحي _ تكون تابعة للرأي المتقلب. وإذا اخذنا. .. إنها مضررة لأنها تشكل ضعفا أساسيا يتمثل بثبات المعنى،" وقد حاول ديريدا ان يخرجها من سلطة اللوغوسوسلطة الفيلسوف الماورائي ورقابة الاب "إن الاب يشتبه دائما بالكتابة ويراقبها"³. لأن الكتابة تعني الإلزامية، والحضور والحجة. لقد أوحى القراءة بالتأويل وأوجدت تعدد المعنى والتشتت والهروب من المعنى، ولهذا حاول النص أن يحقق حضوره في صاحبه، ليس موجهه، وإنما في الإنسان الذي يمثله. فكان الانسان هو تاويله.

تقتضي الإحاطة بالعالم إحاطة باللغة التي يتداولها، ويستخدمها للتواصل، بينه وبين شركائه ونظرائه في هذا العالم، والتغيير المطلوب، يتطلب اولا تغييرا في اللغة المخاطبة،

¹ _ بيير، ف، زيماء، التفكيكية، دراسة نقدية، تعريب أسامة الحاج، مجد للطباعة، بيروت، لبنان، ط2 ص56.

² _ م نفسه ص57.

³ _ المرجع ن، ينظر الصفحات 57 58 59، وينظر ديريدا جاك، La dissémination، باريس سوي، 1972، ص 86.

فاستمرارية الجدل والتواصل والتعبير عن الرؤيا بلغة السابق، لا يحدث تغييرا وهزة جذرية في اللاحق، هذا التحديث هو أمر مشروع ومطلب كل تغيير؛ على ان يتضمن كل خطاب رسائل إيجابية، تدفع إلى تحفيز المخاطبين وتعمل على التأثير على أكثر من جانب في الذات المفردة. ثم في الجماعة التي تؤسس لفكر الفرد ورؤاه، وأن يتمكن من التأثير على المختلف والمغاير، فكل نهضة فكرية وإنسانية تلتزم بتغيير لغة الخطاب، لتحقيق الأثر. وتغيير الرسالة يتطلب تغييرا في المعجم، الذي يتأسس من كلمات ذات دلالات علائقية، أي على روابط دلالية تؤسس فيما بعد لهذا المعجم، ومن ثم لغة التواصل.

7_1_ النص: العولمة/ الأسلمة:

لا يتفق مفهوم الإسلام الذي يتكئ على دلالة السلم والمسالمة والسلام وشيوعه مع ما يعلق به الآن من تطرف وعنف وانفصالية. إذ النصوص التي توصف بنصوص القتال والعنف، لا تتلاءم في نظر الباحث في هذا الدين مع واقع الدين المسالم، والحقيقة التاريخية تقول أن كل الحضارات قامت على الحروب وعلى حمل السلاح؛ لكن هذا لم يعبها في شيء؟ والعولمة كنوع من الممارسة الإستعمارية الكلية تقوم على ذلك: خلق عدو وهمي وحاربه باسم دين او عقيدة او فصيل فكري ما؟ "إنها مفهوم جديد يكشف عن الظروف الموضوعية لحقبة السوبر أمبريالية _ الأدهوقراطية²¹"، والفرق بين الأسلمة والعولمة أن العالم تاريخيا عاصر عولمات متعاقبة كالأسلمة، أو المركزية الأوروبية التي تعود إلى اليونان، ونزعة التفوق الجنس المختار والسوبرمان الأبيض المتفوق، التي تحولت إلى المركزية الكونية، و(القطبية الواحدية) لأشخاص يرتدون بدلات رواد الفضاء، في سفن فضائية، ينظرون إلى كرتنا فيرونها قرية صغيرة : عالم صغير قرية كونية بالإمكان التحكم بمدخلها

¹ _ الأدهوقراطية: مصطلح إداري يعني عكس البيروقراطية، أي الكل بإمكانه اتخاذ القرار بلا هرمية وظيفية، وهي على هذا الأساس تقابل حكم المشورة أو الشورى في النظام السياسي الاسلامي،

² _ محنة الانسان بين العلم والفلسفة والدين، ص 48.

وأنشطتها؛ وفكرة: الحق للقوة. فالسلطة والمال والمعرفة والعلم.. قوة، فمن يهيمن عليها يستطيع التحكم بمقدرات سكان القرية الصغيرة¹. من حيث الانفتاح على الجغرافيا ومد الجذور المختلفة في البقاع المختلفة، وهي ربما تتقارب مع الدور الذي جاء به حملة النص الإسلامي، فالفتوحات دعوة إلى الإحاطة بالنص كمركز بالقوة، والإسلام مثل أي خطاب توسعي عبر التاريخ لم يكن وحده صاحب هذه الرؤيا.

7_2_ تغيير العالم_ تغيير المعجم

تتأسس الرؤيا من القناعة، وتستعمل في ذلك طرقا كالعقل والقلب العاقل كما سبق، ولهذا فإن الخطاب القرآني صرف الرؤيا المشتتة وجمع الرؤيا بحيث يتأسس من خلال الخطاب عالم منظم في حركته السفلية وعلاقته بآخره كيفما كان هذا المخالف أو المغاير، وعلاقته بخالفه وبالحياة التي لا يراها أو لا يتمكن من إدراكها لكنه يدرك دلائلها وآثارها فالخطاب القرآني أوجدها ودلل على وجودها. ولهذا فإن النقلة من إنسان القبيلة والفوضى، إلى إنسان قرآني، قام داخل النص من خلال تغيير المعجم السابق أو بالأحرى نفسه تماما، بحيث يأخذ هذا التوازي صورة تكون فيها الأسماء في تناسب مع القضايا الأولية الذرية وبهذا تكون اللغة هي مجموع القضايا والعالم هو جميع ما هنالك وهو مجموع الوقائع لا الأشياء². وبما أن اللغة هي لوسيلة إلى الترابط والتواصل وهي كنظام تحصر العالم؛ وحيث غير الخطاب العالم من فوضاه ونظم طرق التعامل، وتأسس على العلاقات وترتيبها كما سبق بين الخلق والخالق ثم الخلق والخلق، الانسان والانسان، والانسان والخلائق الذرية والكونية، ولأن مجتمعا عالميا جديدا يتأسس، فإن لغة هذا العالم تصير كونية، وتتغير الألسن لتكون لغة الوقائع والحدائث الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، يذكر نعوم تشومسكي ذلك في حوار له فيما يخص عالمية اللغة الإنجليزية، وضرورة تعلمها، ليعرج على كونية اللغة العربية الماضية وجمعها

¹ نفسه ص 49.

² اللغة والمعنى، مجموعة من الباحثين، ص174.

للحضارات¹ فالعالم لا وجود له خارج اللغة و"الواقع ليس له معنى خارج اللغة"²؛ لهذا كان النص ينبثق من المناسبة فينشأ عنها؛ أو يشكل هو حلاً لمعضلة أو إشكال في الواقع فيصحح أو يوجهه، كعرفة يقيمها النص أو تقام عليه، كما يعيد ربط الحياتين من خلال ربط النتيجة بالسبب والسبب بالمسبب، كفكرة الجزاء والحياة الآخرة، ووجود الجن، ووجود المكافأة والعقاب ووجوبهما.....

أ_ الكلمة — المعجم القرآني:

إن تأسيس دولة جديدة بنظام جديد؛ كما سبق الحديث عنه يقوم على تغيير الخطاب؛ الخطاب الذي يقوم بطبعه على تغيير الكلمة، لا من حيث هي مفردة ولكن من حيث المفهوم أي التأسيس لقاموس مفاهيم راسخة على ما جاء به الخطاب القرآني، ثم على ما يؤسس له من علاقات تتجدد بالمتغيرات مربوطة به. فقد رست المدنية بعدة تغييرات حاصلة، التغيير الجغرافي، والتغيير الخطابي، الذي جاء مؤسساً للإنسان الجديد.³ الخطاب الذي لم يعد خطاب انا متسلطة الصوت، والرؤيا إنما حاملاً ومتحدثاً بعدة أصوات، تتعالى فيه أصوات الهامش من الضعاف ومهضومي الحق. ولهذا حمل لغة تتسق مع الحدث الحاصل، وإن بقيت الكلمات على حالها فإن حمولتها الدلالية تنسجم وتتأسس على دلالة الخطاب المستجد. إن ما يحدث عادة هو أن القوة المحولة للنظام الكلي تعمل على الكلمة بقوة كبيرة، حتى إن الأخيرة تكاد تنتهي إلى أن تفقد معناها المفهومي الأصيل كلياً، وإذ يحدث هذا سيكون لدينا كلمة مختلفة، بتعبير آخر، إننا نشهد ميلاد كلمة جديدة⁴.

1

2_ م نفسه ص175.

3_ نحن نتحدث عن فترة زمنية مشروطة، قبل تعرف العالم الى اللغة القرآنية، في زمان ومقام مخصوص، بالشكل الذي يعرفه مسلم التوارث اليوم، فالزمان اليوم مستحدث ولغة الخطاب بالية.

4_ الله والانسان في القرآن، هوشيكو هيزوتسو، ترجمة وتقديم محمد هلال جهاد، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1. مارس 2007، ص47.

فمجتمع الخطاب القرآني تضمّن كلمات ومفردات من قبيل: الساعة واليوم الآخر، والرسول والله، والملائكة والشياطين، والكفر والإيمان، النفاق والنية.. والنظر والتفكر والتدبر والتفقه..، والحج والصلاة، والعبادة والدعاء والوضوء؛ والسلام والإسلام، والسنة والحديث، والجهاد والعلم، والزكاة، التركة والعقود..... مفردات لا حصر لها وصل بعضها في تكثيفه وعلاقته بالفقه أو العقيدة و غيرها من العلوم حد الإصطلاح الخاص بالعقيدة ومفاهيم الدين؛ هناك تغير حاصل على مستوى المعرفة الذي بدأ بتغيير المفردة، إذ نلامس أسلمة للمعرفة، ونعني بذلك: إضفاء تعاليم الإسلام قيما وأخلاقا على مفردات أو تراكيب خاصّة تكوّن أسس المذهب أو الإتجاه¹، لكنّه فيما بعد اتجه نحو ترسيخ لغة تتأقلم مع المنظومة الشاملة للنص، من كل المناحي، بحيث تتأسس كل الأنظمة الدلالية مربوطة بمركزية الكلمة وقيمتها؛ وهي كلمة لا تشغل من دون علاقاتها بغيرها. "وعلى أية حال فاننا نرى هنا كيف ان معاني الكلمة تتأثر بجيرانها أي بفعل النظام الذي تبدأ بالانتماء اليه"². وهنا يتحول المعنى الأساسي إلى معنى علائقي، يتأثر بسلسلة المتقاربات/ القربيات دلاليا، ويتواجد عن طريق علاقة الكلمة بغيرها في حقل دلالي ما.

فالمعجم القرآني الذي شكلت أهميته كلماته المفتاحية / مصطلحاته المفتاحية (الله الاسلام السلام، الكفر، الايمان، النبي الرسول،)³، الرسالة، الكتاب، الشيطان، الجنة، النار،.... شكل رؤيا جديدة للعالم، فالتغيير الحاصل على الكلمة دلاليا والذي نتج علائقيا، غير الرؤيا عند المخاطب بالنص الى: الما حول/ العالم/ الكون/ الخلق/ الغيب، الحقيقة،

¹ _ محمد مفتاح، المعنى والدلالة، المكز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط1، 2018، ص 53.

² _ المصدر السابق، ص49.

³ _ نفسه ص 50.

اليقين.... وأسس مفهوما ، ووجه شتات الدلالة إلى شقين أقوي يشتغل وفق فقه ينظم العلاقات ويرتب اليومي لحياة الذات المسلمة وعلاقتها بالآخرين، وفيها مشترك وفردى، زشق يتعلق بتنظيم الرؤيا باتجاه الخالق، باتجاه أبعاد عليا لا يمكن للإنسان حصرها لضعفه لكنها يعرفها ويدركها باليقين الذي أوجدته الدلالة الإسلامية الجديدة . أعاد القيمة لعلاقة الهامش بالمركز . وأوجدعلائق بعوالم جديدة، لم يكن الإنسان يعرفها او لم يتحقق منها. وأتاح قيمة للأمر والحدث في اليوم مهما بلغت دقتها وصغرها، فجعل لكل حيثية قيمتها من خلال رفضها او قبولها في معجم الحياة الإسلامي، الرفض أو القبول (الحلال والحرام) الذي يتحقق مقارنة بثابت النص، او القيمة المطلقة لها.

كما يشهد الدّارس قيام المنظومة القرانية على معجم التضاد، لفهم الوجود وفهم الأنا بفهم النظير والمغاير: فالرحيم يقابله الجبار القوي، والعقاب يقابله الرحمة والثواب، والشيطان يقابله الملاك وعباد الله الصالحين يقابلها الكفرة والجاهلون....

لا يمكن للغة/ النص أن ينشأ أو يعمل بمحيد عن العالم الذي تشكل فيه، أو لأجله، إذ ينشأ النص أحيانا لينقل واقعا ما، بصورة تطلبها اللغة، فيحاول تغييره أو نقله أو تصحيحه.

ب_ في المفهوم وتغير المفهوم:

حين استقرت العقيدة الاسلامية في الجزيرة العربية ثم في العالم بأسره، كان لها خطابها الذي تأسس على تغيير الرؤيا اتجاه العالم.

فالوحي يتحكم ويؤثر ليغير حياة البشري كخطاب، الوحي الذي هو في المعاجم العربية اللغوية لفظة تدل على (الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي)، الوحي هذا الفعل التخاطبي الذي يقع بين متراسلين أحدهما فوقى وعلوى والآخر بشري أرضي، ولا يكون إلا عبر وسيط أو روح القدس، هذا ما نعرفه كبشريين عن مفهوم الوحي بعد الاطلاع على هذا

في/ ومن خلال الخطاب القرآني. "هذا المعنى الديني لم يكن من معهود العرب اللغوي والثقافي، الشيء الذي يكون قد سهل على خصوم الدعوة المحمدية الدعاية ضدها وصرف الناس عنها"¹. ففي المعنى خروج عن الثابت اللغوي الذي عرفه المعجم العربي السماعي والاجتماعي والثقافي، وابتكار لدلالات جديدة يتدخل في بنائها المجرّد والغيبّي. لغة جديدة تحيط بعالم أوسع مما ترى العين، وتسمع الأذن، ويفكر الرجل. لغة كونية محيطيّة. تبني علاقات جديدة غير معهودة. والألفاظ التي تعيد بناء دلالاتها هي ألفاظ تنتمي إلى هذا المعجم الدلالي الجديد الذي يتناسب مع بناء عالم جديد ثقافيا واجتماعيا وعقديا وإنسانيًا ومعرفيا.

يحقق هذا الانتظام والتمايز، لغة مستوعبة تأسست كعالم: "اللغة العربية بوصفها المؤسسة التي انتظمت داخلها نشاطات العقل العربي، بوصفها الأعجوبة التي أطل من خلالها العرب على العالم."². هذه اللغة التي ببساطتها كانت وجه الإنسان العربي وصورته إلى العالم. ولهذا كان ولا يزال الخطاب القرآني بصورة ما حافظا لا للدين وحده، إنما للغة أيضا. (فمقولات انساق اللغة وقواعدها تنمو وتتطور تحت تأثير بنية التفاعل داخل المجتمع)³ كما يقول فان دايك. هذا الخطاب الذي يتحرك مع مستخدميه في التعامل والعبادات اليومية والحياة والمعاملات..

¹ محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط4، ص 112.

² نفسه ص 29.

³ النص والسياق، فان دايك، تر عبد القادر قنيني، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط 2013، ص 289-290.

ج_ النص الثابت — الوعي المتجدد

"حين غير العالم فهمه لوضع الحركة المادية خلافا للمنظور الآلي فالذي تغير هو أسلوب الفهم والوسائط لنفس الموضوع، وليس المادة كذلك القرآن فإنه نص ثابت والمتغير هو فهمنا نحن للتركيب القرآني. على نحو جديد نستمد بموجبه وعيا جديدا لحقائقه.

بهذا المعنى فنحن لسنا ضد فهم السلف للقرآن بموجب التركيبية التي تناولوه من خلالها. غير أن تكشف القرآن عن تركيبية أخرى يجعلنا في مواجهة عطاء جديد.¹؛ وعلى خلاف النصوص السماوية السابقة فهي لم تحمل اختلافا في التفاسير التي تحيط بالنص فقط وتتغير معه في لغة جديدة كل مرة، بل إن التغير طال النص الأصلي وتعدد ثابتته.

والتجديد الحاصل على مستوى المعجم اللغوي الاسلامي، تغيير فسيح حمل اللفظة دلالاتها الجديدة دون أن يلغي دلالتها الأولى. فالحج في مدلوله المعجمي هو القصد²، وهو في الخطاب الديني القصد الى مكان أو جغرافيا معلومة معروفة بالتنزيه والقداسة التي ترتبط بالروحي. خلق كون من الألفاظ يجمع بين المادي والروحي.

د_ جغرافيا نص واحدة — عوالم متفرقة:

يتحقق الاختلاف في النص والذي يقوم على أساس من التنوع، هو اختلاف محمود، لا يقوم على المعادة والتنافر " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرم الله أتقاكم إن الله عليم خبير " الحجرات 13. فتحقق نص في واقع على رقعة اسمها الكون عالم مترامي وجغرافيا متلونة، توحدت باسم المقدس والنص، ثم اختلفت باسم المقدس ذاته والنص المتعدد إذ تتم التوضيحية (حسب أركون)؛ في سبيل المقدس، وفي سبيله تسيل الدماء وتزهق الأرواح، وكثيرة هي الحروب التي تمت باسم الدين

¹ _ أبو القاسم حاج حمد، جدل الغيب والانسان والطبيعة، ص635.

² _ ابن منظور،

أو باسم الإله. عبر التاريخ. والمتتبع لأشرطة الفيديو التي تبثها الجماعات الإرهابية وتصور فيها عمليات القضاء على ضحاياها يجد تصفية الضحية يكون مسبقاً بقراءة النصوص وآيات معينة وربما يتم التكبير قبل الذبح!!... فما الذي يجعل الإنسان يصل إلى هذه الممارسة وهذه الدرجة من العنف باسم المقدس؟¹، ليس سوى الجهل المؤسس له، حيث يصبح الفرد جزءاً من القطيع في حالة اتباع دون نقد أو استخدام للعقل كما طلب النص في ثلاث آياته. وحيث يمتزج الجهل المبني على معرفة خاطئة، بالعنف والعبودية. هذا الجهل وفق رؤيا أركون هو تجهيل مؤسس ممنهج ومقصود فرض ليسيتر وبني في شكل تعليم ليهدم النقد والتفكير خاصة في أرضية التعليم العربي الإسلامي الحالي؛ لتنشأ على هذا الأساس أجيال منمطة التفكير، اتباعية الوعي، تراثية الوثوق. وجهلها المركب متأسس على معرفة يقينية لا يقبل فيها الجدل، وهنا تظهر الصدامية والحدية في التعامل مع الفكر المختلف فكل مختلف هو مرفوض وكل فكر طاغي الأنانية (نسبة إلى الأنا) يقيني وثابت وهو نموذج محتذى. لا يعترف هذا التجهيل المؤسس بالتعدد والاختلاف، ولا يمارس النقد إلا على المختلف، ولا يتعامل مع المغاير إلا على أساس من الندية والمعاداة والرفض، فكل الهويات مرفوضة وكل المعرفة المختلفة هي كفر، وكل اختلاف هو ردة وزندقة. ويمكننا التمثيل لهذا بما حدث وتكرر مع الثورات العربية، التي تفجرت لترفض السائد والسلطات المركزية الثبوتية والمستمرة دون تقبل للنقد أو تسمح به في نظم ومناهج ومؤسسات الوعي؛ لكنها وقعت في فخ التأيير بالجهل المنظم حيث الصدامية والعنف والتفكير بحدة ودون نقد أو عقل.

على خلاف ما بنى منهجه الخطب القرآني "إن دار الإسلام من ناحية نظرية هي في حالة حرب مع دار الحرب [أي مسالمة فمسالمة وحرب فحرب]، لأن الهدف الأخير للإسلام هو العالم بأسره، وإذا أفلح ذلك فإن حالة السلم التي يفرضها الإسلام تحل محل كل تدبير

¹ _ فارح مسرحي، المواطنة والأنسنة، دارالوطن، سلسلة كتاب الجيب، الجزائر، ط1. 2017، ص 55.

سلمي آخر، وتصبح الشعوب غير المسلمة إما جزءا من الدولة الإسلامية، أو خاضعة لسيادتها كأقليات دينية (تحتزم) معترف بها، أو كوحدات ذات استقلال ذاتي تربطها بالدولة الإسلامية معاهدات تنظم العلاقات بينها"¹. ما يثبتته الخطاب القرآني حاجة الأمم إلى بعثها والوقوف ضد من يقف مع العنف.

¹ _ المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، عبد الله إبراهيم، م، ث، ع، بيروت لبنان، ط1. 2001. ص 37، نقلا عن: القانون الإسلامي، لمجيد خدوري، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1975، ص 23.

الذاتمة

اهتمت الدراسة بالنتقيب في التحام الخطاب القرآني لغويا أي التئامه الداخلي أولا ثم مع واقعہ، من خلال ربط العلاقات والاستفادة من منهج اللسانيات والتأويل، وتداخل العلوم والخطابات؛ وكان أهم ما حاولت الدراسة ان تخرج به:

- علاقة النص بالنص وارتباطه الوثيق بأجزائه، خاصة وأن الخطاب القرآني بما هو نص (المصحف) عبارة عن مجزوءات تتمثل في آيات وسور وأحزاب وأجزاء، من حيث هو نسق أو مجموعة أنساق وكيف تحدث ظاهرة انغلاقه وانفتاحه، فالسورة القرآنية نص ونسق مكتف بذاته من جهة، لكنه أيضا جزء من الكل الذي لا يحقق التمام إلا به. وأعطى البحث نماذج عن ذلك.
- الاهتمام بخصيصة الإيقاع في الخطاب القرآني كظاهرة أحدثت الدهشة عند مستمعيه المشركين ثم عند كل من يسمعه، واختصاص الارتكاز والوصل في القرآن الكريم بحروف الواو والميم والنون دون غيرها من الأحرف والأصوات.
- علاقة النص بمتلقيه: كشاهد عليه، قارئ ومؤول، ومرتل ومؤدٍ ومتفاعل متواصل به. ومرسل مخاطب قبل كل هذا. معتمدا في ذلك على علاقته بالنص من خلال قنوات التواصل وأدواته. يعبر من خلالها إلى درجات الفهم ويرتقيها بدء بالفهم بالحواس ثم الانتقال إلى عقل النص بالتدبر والتفكير وإعمال آليات المنطق والتحليل والتقصي. للوصول إلى مرحلة روحانية حيث يصبح القارئ والنص واحدا. ويكون الفهم والتأويل والرؤيا مابعد العقل وإمكاناته. حيث يتم ترويض الحواس لخدمة العقل ثم القلب الرائي القلب العاقل والمدبر.
- إن تناسب النص ونظامه المتكئ على المنطق بدءا من الصوت والمعنى حتى كونه منهجا للحياة، لم يوفق في جعله يتلاءم مع الواقع أحيانا، بحيث يعاد فهمه وتأويله بالطريقة الخاطئة حيث لا يتفق الحق مع حقيقة النص، ولا يتفق الواقع المراد بنص الخطاب.

- حاجة الخطاب إلى الإنسان الرسول/ فحين نقول الإنسان.. فإننا نعني اللغة، وحين نقول اللغة فإننا نقصد المجتمع.. كما يقول شتراوس¹. يحمل الرسالة ويوصلها إلى البشرية؛ رسول يتفق مع البشر في كونه عبداً منهم يحمل طباعهم، جعل منه خطاباً فاعلاً يتحرك بينهم بتحقيقه الخطاب بفعله وقوله. ومشاركته وتفاعله وانفعاله كبشري رسول كإنسان له ما لكل بشري، يسمع من حوله ويجمع بين خبر الأرض والسماء ويحقق التواصلية المطلوبة بين الجغرافيتين وبين المعرفتين فيتحقق التكامل.
- قام الخطاب القرآني على التجديد انطلاقاً من لغته حتى علاقته بمجتمعه. وإلغاء الموروث أو تبديله بما هو يتفق مع نظام العالم الجديد، والوعي الجديد، ومنظومة المجتمع الدينية والعملية والجمالية والتخييلية والفقهية والتفاعلية (بما هي تؤثر وتتأثر بالحاصل)؛ هناك ثورة حاصلة داخل قاموس اللغة العربية الكبير، وبالتالي حاجة اللغة إلى أن تكون لغة غير مهادنة لغة غير مستقرة لغة قائمة على الثورة والتغيير، وبالتالي فهي لغة مجازية، فنية، وجمالية تجمع بين ألوان جديدة كسر مفاهيم الجنس في الفنون الأدبية العربية أو فنون الخطابة؛ ذلكأهن خطاب حياة، خطاب يحمل المعنى وتعدد المعنى وتشعب القراءة التي تقوم على مبناه ومرجعيات قراءته. ما جعله أيضاً عرضة للتفسيرات والتأويلات.
- حاجة الخطاب إلى تفسير وتأويل ليتحقق التلاؤم والانسجام والفهم والتأويل بعض من النص؛ فاليقينية درجة معرفة لا ينالها كل متلق للنص. هي درجة ينالها متلق خاص، والنص بفعل تنزله يحتاج درجات من الفهم تبدأ بالمعرفة الحواسية التي ترى الأشياء وتفسرها، وفقاً لإدراكها الحسي، وانتقالاً إلى المعرفة العقلية التي تتكئ على المعرفة الأولى ولا تسير دونها في فهم الخطاب، وانتقالاً إلى المعرفة الروحية التي قد تنال

¹ - سامر اسلامبولي، القرآن بين اللغة والواقع، ص 07.

بالتدرج بعد المعرفة السابقة وتحققها، وقد يحدث هذا كيقين يؤتية صاحب النص كوصل بينه وبين العالم.

– قد يخطئ التفسير والتلقي الإنساني فيحدث بسبب سوء الفهم قراءة خاطئة وتلك طبيعة بشرية خاصة إذا ما اتبع التأويل أو ما سماه البحث التأويل متكاً أيديولوجيا معيناً، أو حين تتشكل نصوص موازية ارتفعت إلى منصة الخطاب المقدس، وأخذت الشرعية النصيو منه. بحثاً عن مخرج عقدي وتأويل ديني يبيح التصرفات والأفعال والأعمال عن طريق القوة العليا. ما يجعل القراءة للظاهرة الخطابية ممثلة في النص وتمثاله مع الواقع، إذ يتعين على التفسير والرؤيا الخاطئة تفعيل نشاز معرفي حاصل بين الخطاب القرآني وتحققه على الواقع.

ما حمل الكثير على تأوله ووضعه تحت تصرف أفكار واتجاهات وأشخاص وهيئات ونظم أساءت إلى رحمانيته وعلاقته بالإنسان، أساءت إلى انفتاحه وكونه خطاباً تفاعلياً في تدارسه وقراءته والعمل به، هذه التأولات اتكأت على النص لتكسب مشروعيتها وتتخذ لها تأصيلاً فكرياً في هذا الخطاب. ثم لتأسس لتقنين الشرعية الشرعية وتنميطها، وترسخ للتجهيل والاستضعاف العبودي باسم النص: هذا الجهل الوثوقي بالمعرفة التي لا يعيها الإنسان ثم اليقين بانه يعلم وهو يجهل هو الجهل الأخطر شدة ووطأة، ما سماه افلاطون الجهل المزدوج¹، ذلك ان متمرسه لا يجهل الأشياء الأهم وحسب، وإنما، أنت تظن أنك تعرفها أيضاً²، وهو بصورة ما يقارب مفهوم أركون في الجهل المؤسس له، وبناء معرفة جاهلة على قاعدة من الجهل أو على قاعدة من المعرفة المتوارثة دون نقد أو إعادة تفكير. فيتربك الجهل من تعدد فيه واعتقاد بالمعرفة. خاصة حين يقترن بالمعرفة الدينية المربوطة بالفهم والتأويل والفهم الخاطيء أو التأويل للخطاب الديني في عمومه؛ بدءاً بالخطاب القرآني ومروراً

¹ – توما دوكونانك، الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، ط1. 2004، ص6.

² – توما دوكونانك، الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ص5.

بالاجتهاد الفقهي الذي أصبح معرفة مسلمة ويقينية لا تتوازي مع النص القرآني فقط بل تتساوى معه في مقدسيته وقيمتها، لا يجوز الخوض فيها ولا مغالطتها، لأن هذه المعرفة المقدسة تبيح من السلطة ما لا يبيحه المال، ولهذا ربط وعي الأجيال بهذه الخطابات من تفسير وفقه رغم أنها تأويلات مشروطة بلحظات تاريخية وثقافية واجتماعية شهدت ولادتها. "وهذه التفسيرات والتأويلات تمت ولا تزال تتم ضمن ظروف أيديولوجية وضمن صراعات فئوية وطبقية.. على السلطة والمال والأرزاق ثم من أجل احتلال المراتب العليا في الهرم الديني"¹. هناك تماثل ومقاربة حد التطابق بين الخطاب القرآني المفروض وفهمه أو خطاب البشر الذي فرضه البشر على بعضهم، فهم "يعتقدون أن الأحكام أو الفتاوى المتضمنة في كتب الفقه مستمدة كلياً وبشكل منتظم من كلام الله المحفوظ في القرآن_ وهو نوع من إضفاء الدونية على خاصية التفكير الفردية والقدرة على التفكير الممنوحة لكل بشري بالتساوي لكن هناك من عطلها بتقديس الوعي الموروث وعدم الخروج عنه والتفكير بعقل الماضي_ وبالتالي فهي تستحق اسم القانون الإلهي والشرعية"².

- مفهوم الخلافة في الخطاب القرآني، مفهوم تأسس مع الخلق الأول/ آدم نبيا وإنسانا، ثم ظهر أكثر قيمة وتأثيرا مع دور الأنبياء. لكنه اتخذ له مفهوما جديدا ينحت من النص متكاه، ومن المرجعيات الدينية قداسة رتبة الخليفة والإمام والحاكم. ما يجعل مفهوم الخلافة من المفاهيم التي فسح التأول فيها إلى إلغاء التجديد والقضاء على العقل وتقديس الاتباعية ودحض التغيير كطبيعة في الخلق. وهو مفهوم تأويلي بالدرجة الأولى لأن رؤيا الخليفة والإمام لا تعود رؤيا خاصة أو فردية إنما تصبح رؤيا جمعية ملزمة.

¹ محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، لافوميك، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1993، ص 244.

² محمد أركون العلمنة والدين، الاسلام المسيحية الغرب، دار الساقى، ص 12_13.

- النص دائما في حاجة إلى مرجعية، وتأويل، من جهة المقصد والقراءة. فهو بينهما بين نقص واكتمال بين الإغلاق والتمام كما تخبر به نظرية الأنساق.
- النبوة فعل تأويل للنص، وهي خلاصة وصل بين عالمين وخلاصة تجربة ومكابدة، لفهم النص، ومن ثمة إعادة إرساله بعد تلقيه الأول؛ ليتم في إعادة الإرسال إحاطة بالقراءة النبوية أو الرسولية، التي يتم فيها نقل التجربة موازاة مع النص وفهما أولا له، وهي استجابة ينقلها النبي والرسول من قراءته وتلقيه للنص. ليتم نقل النص إلى متلق آخر يعيد فهم النص وتقبله بمرجعيات أخرى ومرجيات جديدة تتوافق مع القراءة. وهنا النص بين ثنايتي انفتاح وانغلاق.
- يخدم النص الواقع، ويقدم رؤيا للعالم، فهو وثيقة ثابتة تقدم ماهيتها وفق مرجعيتها الدينية الثابتة، وتتغير الرؤيا وفق مطلب العالم مشكلا هذه المعرفة من تأثير
- توصل الخطاب القرآني الى ثبوت لغة تتواصل مع العالم الذي تعيش فيه وتتوأسس له بحيث أنشأ لغته الخاصة به لغة مشحونة القوة واللين بالعاطفة والعقاب. فالكلمة القرآنية كلمة واعية ومسؤولة وعارفة.
- تتأسس قيمة اللفظة القرآنية من قابلية التجدد والتعايش مع واقعها، فتحقق نوعا من التكامل مع العالم الذي هي من يشكّله بفعل طاقتها الدلالية مع التزامها بحدودها الدلالية المعجمية والدينية. لتحقق الانسجام بحركيتها على الرغم من تغير الجغرافيا الزمنية والمكانية. كما أن العالم تغير بما تحيل عليها اللفظة القرآنية، هذه اللفظة التي حملت طاقة كمونية للتأثير على العالم بفعل المفاهيم الجديدة التي تحملها والتي تحيل عليها.

الملخص باللغة العربية:

تبحث الدراسة في التناسب الحاصل في الخطاب القرآني كنص مقدس، هذا التناسب الذي يبدأ أولاً من داخله، بحيث تتعالق عناصره وأجزاؤه لتؤسس للنص الجامع. ثم البحث في الوصل بين النسق النص أو الخطاب القرآني والنسق العالم، مروراً بالوسيط الإنسان ممثلاً في النبي أو الخليفة أو متلقي النص، وكيف تحقق الانسجام بين العالمين. وكيف تحقق النص بالإنسان متفاعلاً ومؤدياً له. ومحققاً لمقصده بالتكامل الحاصل بينهما.

الملخص باللغة الانجليزية:

Summary in English:

The study examines the proportionality that occurs in the Qur'anic discourse as a sacred text, this proportion that begins first from within, so that its elements and parts are interconnected to establish the comprehensive text. Then the search for the connection between the textual system or the Qur'anic discourse and the world system, passing through the human mediator represented by the Prophet or the Caliph or the recipient of the text, and how to achieve harmony

between the two worlds. And how to achieve the text of the human interactive and leading him. and achieve its purpose of the integration between them.

ملاحق:

ثبت تعاريف مختصرة

الشخصيات والأعلام والمصطلحات

أولاً:

فهرس الأعلام والأسماء

هايدغر مارتن: (1889_1976)

فيلسوف وشاعر وباحث ألماني، تدرس على يد هوسرلإدموند، مؤسس الظاهريات، وجه اهتماماته بعيدا عن الأسئلة الميتافيزيقية إبالحرية ومشكلات الوجود والحقيقة. من أبرز مؤلفاته الوجود والزمان. أثر في عديد من الفلسفات وشكل فكره قاعدة لظهورها وهي: الوجودية، ما بعد الحداثة، التأويليات التفكيكية.

أنطونين أرطو: (1896_1948)

مفكر ومسرحي وشاعر وكاتب ناقد فرنسي، ساهم فيما يعرف بمسرح القسوة، التزم بالاتجاه المناهض للواقعية.

أفلاطون: القرن 5 ق م:

من كبار فلاسفة اليونان القديمة، اشتهر بفلسفته المثالية القديمة؛ شاعر ومؤلف؛ أرطوكليس بن أرسطون هذا اسمه، تتلمذ على يد الفيلسوف سقراط، وأسس أكاديميته في اثينا للتعليم، في الفن والأدب ونظرية المعرفة والتعليم والاجتماعيات والعلاقات. الميتافيزيقا والأخلاق والسياسة. اشتهر بمحاوراته مع سقراط.

أرسطو: أرسطوطاليس ق 4 ق. م.

فيلسوف يوناني قديم، تعددت علومه ومجالات تفكيره، المنطق والبلاغة واللغة والسياسة وعلم الاخلاق وعلوم الأحياء والفيزياء والشعر والمسرح... واحد من كبار عظماء ومفكري البشرية تتلمذ على علم أفلاطون، ومعلما لاسكندر الأكبر.

أفلوطين: ق 4. ق. م. بمصر

فيلسوف يوناني يعتبر ميله الى الفلسفة أفلاطونية محدثة، كني بشيخ الفلاسفة اليونان، عرف بنظريات مهمة كنظرية الفيض ووحدة الوجود .

الجاحظ: ق 8 ميلادي 2 هجري.

أبو عثمان عمرو بن بحر البصري، بالعراق، أكبر مفكري وأدباء العصر العباسي، يعد الجاحظ ظاهرة في تعدد معارفه وغزارة تأليفه. أخذ العلم عن ابراهيم النظام، وكان معتزليا. كتب في المنطق والفلسفة والأدب والملح، وعلم الكلام، والأدب والسياسة، والتاريخ والأخلاق.... من اعماله الفكرية العلمية والأدبية: البيان والتبين، كتاب الحيوان، البخلاء.

جورج لاكوف: (1941_....)

عالم لغوي أميركي اهتم باللسانيات أو اللغويات المعرفية، وعرف شخصيا بتكنية الاستعارة المعرفية. اشتهر بكتابه المزدوج: الاستعارات التي نحيا بها مع مارك جونسون، وكتابه السياسة الأخلاقية. والزمن كاستعارة.

جاك ديريدا:

ولد عام 1930 فيلسوف فرنسي، ولد بالأبيار بالجزائر، من أهم فلايفة القرن العشرين، احد تلامذة ميشال فوكو، وتأثر بهایدغر ونيتشه، اشتهر بنظرته التفكيكية.

عبد القاهر الجرجاني: ق 11 م

أبو بكر عبد القاهر بن محمد الجرجاني ولد بجرجان. تأثر بالعلمين والمفكرين الجاحظ وسيبويه، اهتم بعلم النحو، وعلم الكلام، وعلوم القرآن والإعجاز. اشتهر بنظرية النظم أو التأليفية. وهي ولعلها من أهم ما توصلت إليه اللسانيات الحديثة في تناسق وانسجام الخطاب وعلم النص.

الباقلاني:

القاضي محمد أبو بكر الباقلاني البصري. ق 10 ميلادي، 4 هجري. رجل عسدة ودين، لغوي وبلاغي ومتكلم أهل السنة، أهممؤلفاته ردوده على اهل البدع وكتابه إعجاز القرآن.

ابن قتيبة: ق 9 ميلادي

أبو محمد عبد الله بن قتيبة الكوفي العراقي، أديب وقاض وفقه من أهل السنة، ومؤرخ ومفسر اشتغل أيضا بعلم الكلام. أشهر أعماله أدب الكاتب، وعيون الأخبار.

مصطفى ناصف: 1952 م، 1371 هجري

أكاديمي وباحث وناقد وبلاغي ومفكر عربي مصري، عمل على قراءة التراث قراءة مغايرة، واستحدث مناهج لفهم النقد والبلاغة العربية والتفسير، والشروح، تتوافق والتحديث الفكري من اهم مؤلفاته: الصورة الأدبية، مسؤولية التأويل. قراءة جديدة لنقدنا القديم. اللغة والتفسير والتواصل.

الزركشي: ق 14 ميلادي. 8 هجري.

بدر الدين الزركشي المصري، أخذ العلم في رحلته إلى حلب، وتعلم على يد علماء دمشق. زهر فقيه وعالم دين، شافعي جمع بين التراث وتحديثه، أهم مؤلفاته كتابه الثمين، البرهان في علوم القرآن.

القرطبي:

محمد أحمد أبو عبد الله القرطبي، ولد بقرطبة، ق 13 ميلادي، واستقر بمنيا مصر، درس الفقه وعلوم القرآن وبرع في البلاغة ووالعقيدة والتفسير والحديث، أشهر مؤلفاته تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن.

السيوطي:

عبد الرحمن بن كمال الدين الخضيري السيوطي؛ ق 15 ميلادي، 9 هجري بالقاهرة. أشهر مؤلفاته الإتقان في علوم القرآن. وتفسير الجلالين. اهتم بالتاريخ وعلوم القرآن والفقه.

حسن حنفي (1935 -) :

هو مفكر مصري، يقيم في القاهرة، يعمل أستاذا جامعياً. واحد من منظري تيار اليسار الاسلامي وتيار علم الاستغراب. وأحد المفكرين العرب المعاصرين من أصحاب المشروعات العربية الفكرية. عدد من المؤلفات في فكر الحضارة العربية الإسلامية. حاز على درجة الدكتوراه في الفلسفة من السوربون وذلك برسالتين للدكتوراه، قام بترجمتهما إلى العربية ونشرهما في عام 2006 م تحت عنوان: "تأويل الظاهريات" و"ظاهريات التأويل" يعرف أنه "إخواني شيوعي"، وأنه يدعو إلى اليسار الاسلامي.

جورج فيلهلم فريدريش هيغل: 1770_ 1831 شتوتغرت. ألمانيا.

يعتبر هيغل أحد أهم فلاسفة ألمانيا المعاصرة، حيث يعتبر أهم مؤسسي المثالية في الفلسفة الالمانية في ق 18 م. طور المنهج الجدلي الذي أثبت من خلاله أن سير التاريخ والأفكار يتم بوجود الإشكالية او الطرح ونقيضه ثم التوفيق بينهما. يعدّ هيغل آخر بناء "المشاريع الفلسفية الكبرى" في العصر الحديث. كان لفلسفته أثر عميق على معظم الفلاسفة المعاصرة.

إيمانويل كانت (1724 - 1804)

فيلسوف الماني من القرن الثامن عشر. عاش كل حياته في مدينة في بروسيا. أكثر أعماله شهرة كتابه نقد العقل المجرد، ابدع ايمانويل كانت نظاما مبتكرا في نظرية المعرفة هو مزيج بين المدرستين التجريبية والعقلية. كان فكره مؤثرا جدا في ألمانيا أثناء حياته وبعدها. تأثر به الفلاسفة الألمان بعده. مثل يوهان فيتشه وفريدريك شيلنغ والفيلسوف الكبير

هيغل وآرثر شوبنهاور.. وأسس هؤلاء ما عرف بالفلسفة المثالية الألمانية. وكان له تأثير كبير على الفلسفة التحليلية والفلسفة الأوروبية.

المودودي:

أبو الأعلى المودودي مؤسس جماعة المسلمين بالهند ولد وعاش بالهند، سنة 1903_1979. ترك أكثر من 120 مصنفا مابين كتاب ورسالة عن الاسلام. وهو صاحب فكرة ومشروع الجامعة الإسلامية عمل في الصحافة وفي تصحيح النظرة إلى الإسلام والمسلمين.

الشافعي:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المصطفي القرشي (150_204هـ؛ 767_820م) ثالث الائمة الاربعة من أهل السنة والجماعة مؤسس مذهب الشافعي، وصاحباً للامام أحمد كان إضافة الى العلوم الدينية، كان الشافعي فصيحاً شاعراً، ورامياً ماهراً، ورحلاً مسافراً. أكثر العلماء من الثناء عليه، حتى قال فيه: "كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس"، وقيل أنه هو إمام قريش الذي ذكره النبي محمد "عالم قريش يملأ الدنيا علماً".

بول ريكور:

(1913 فالنس...) فيلسوف فرنسي من تلاميذ المدرسة السوسيرية، لغوي اهتم بالتأويلات والسرديات، واشتغل بالبنوية أشهر أعماله: الخطاب وفائض المعنى. نظرية التأويل، الزمن والحكي...

إيميل بينفينيست: لساني وعالم لغة فرنسي، عرف بأعماله المنصبة حول اللغات الهندوأوروبية، (1902_1976). اهتم أيضا بالسيميائيات.

بيرس ساندرس شارل: (1839_1914)

فيلسوف ولساني ومنطقي أميركي، وأحد مؤسسي علم السيميائيات، عرف بمقالاته في الصحف الأمريكية وبحثه حول الذرائعية، لم يحظ أبدا بمكانته العلمية إلا بعد وفاته بعقود. رغم كونه عاصر بأبحاثه الجديدة والمقاربة لأبحاث فريناد دي سوسير.

فريناند دي سوسير: (1857_1913)

عالم لغوي سويسري يعتبره الكثيرون أبا للسانيات وعلم اللغة الحديث، فقد عد سوسير اللغة نظاما إشاريا، وقام بدراسة اللغة دراسة وصفية بعد أن كان يعتمد في البحث اللغوي المنهج التاريخي، ترك أشهر كتاب له، محاضرات في الألسنية العامة نشر بعد موته سنة 1916.

زليج سابيتي هاريس: 1909م

عالم لغة روسي ولد عام 1909 وانتقل الى وم أ وهو رائد النظرية التوزيعية وأستاذ العالم النحوي واللساني ناعوم تشومسكي، الذي التقاه بجامعة بنسلفانيا وأخذ عنه بواذر نظريته التوليدية التحويلية المعروفة، مستفيدا من كتابه الذي خرج فيه عن معلمه بلومفيلد (مناهج في اللسانيات البنوية).

روبرت آلان دي بوجراند: (1946)..

عالم لسانيات وناقد أمريكي أحد باحثي مدرسة فيينا في النقد وتحليل الخطاب ومن أهم المختصين والمجسدين لعلم اللغة النصي ونحو النص.

إكسيل هونيت: (..._1949)

فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، من مدرسة فرنكفورت النقدية، يركز في أبحاثه على الفلسفة الاجتماعية، واشتغل في كثير منها على نظرية الاعتراف، أو نظرية التقبل، من أشهر كتبه الصراع من أجل الاعتراف، أنا في نحن، أمراض العقل...

هوشيكو هيزوتسو: (1914_ 1993)

باحث ومفكر اسلامي ياباني ولد بطوكيو، درس بجامعة كيو بطوكيو ودرّس بها بين عامي (1954_ 1968)، كما عمل استاذا بمعهد الدراسات الإسلامية مكجيل مونتريال بكندا، والمعهد الملكي لدراسة الفلسفة بإيران، أهم انجازاته ترجمة القرآن الكريم الى اليابانية.

ليزلي هازلتون:

باحثة وعالمة نفس وكاتبة يهودية أميركية انجليزية تخصصت في دراسة الأديان والتاريخ والسياسة. عاشت فترة في القدس في السبعينات.

فريدريك نيتشه: 1844

فيلسوف وشاعر ألماني، وناقد ولغوي مهتم بالتحسين، بدأ دراسته مهتما باللغويات فقه اللغة، يعتبر مؤثرا في الفلسفة الغربية الحديثة، اهتم بفلسفة الجمال والأخلاقيات والتاريخ والعدمية والوجودية.. أهم اعماله: هكذا تكلم زرادشت. ما وراء الخير والشر.

روجي غارودي: 1913

كاتب وفيلسوف فرنسي، التزم بقيم العدالة الاجتماعية وعدائه للامبريالية والرأسمالية. ورغم إسلامه ظل ماركسيا شيوخيا معتزلا دوائر الاحاطة والاستحزاد. من كتبه وعود الاسلام، حوار الحضارات. كيف أصبح الإنسان إنسانيا.

فرنسيس فوكوياما: 1952

سياسي واقتصادي ومفكر أمريكي تأثر في دراسته بصامويل هنتنغتون. حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية. اشتهر بأطروحته نهاية التاريخ والإنسان الأخير.

محمد إقبال: 1877_ 1938

مفكر وسياسي إسلامي هندي من البنجاب، ومحاضر في السياسة والتاريخ والاقتصاد والأدب، كان شاعرا عظيما، وداعية بفكره إلى الإسلام، خلف كتباً مهمة في الدين والسياسة والفكر. رسالة المشرق، ضرب كلیم، والآن ماذا ينبغي ان نفعل يا أمم الشرق. حاول تصحيح الطريق الإسلامي والعودة إلى نظمه وأخلاقه.

سيد قطب: 1906 بمحافظة أسيوط

كاتب ومفكر وشاعر مصري يعتبر مؤسساً لحركة الإخوان المسلمين، اشتهر بمؤلفه تفسير وتحليل القرآن الكريم في ظلال القرآن.

ابن جني: ق 4 هجري.

هو أبو الفتح عثمان بن جني، ولد بالموصل قرأ الأدب على كبار العلماء كابن خلكان. اشتهر ببراعته في النحو واللغة وشرح الشعر، له علاقة طيبة بأبي الطيب المتنبي وقيل كتب الفسر أو الشرح الكبير والصغير في شرح شعر المتنبي. يشتهر بكتابه في اللغة وفقه اللغة وعلم الأصوات والنحو: الخصائص.

جون روبرت فيرث: 1890_ 1960

لغوي بريطاني وأستاذ اللغة واللسانيات العامة بالبنجاب ثم بلندن. ساهم في تطوير علم اللغة.

ثانياً:

ثبت بعض المصطلحات لضرورة البحث:

التأويل والتأويل:

نشير دائماً إلى أنه في البحث يفصل بين المعنيين التأويل والتأويل رغم الجذر اللغوي الواحد، ودلالة الفهم والفسر في كليهما، فيحيل الأول على عملية فهم النص الخاطئة ومحاولة تطويع النص لعقيدة أو قانون بشري، أما التأويل فيقوم على الأخذ بعلاقات النص وتركيبه ووادواته اللغوية وملامح القصد، لإعطاء الدلالة النهائية التي يستتبطها القارئ وفق منهجه الخاص. ويتكى التأويل على الفهم الصحيح لا التحريف، ويقوم على النص ويمكن تضافر عدة علوم في ذلك، كعلم المناسبة، والعلم بالسيرة والحديث، والفقه واللغة... ويمكن أن يحتل التأويل قيامه على النص لكنه يعمل على التحوير والتحريف.

- الدوغمائية:

التزمتية أو الجزمية هي التحيز لفكرة من قبل مجموعة ما، دون قبول النقاش فيها، أو الإتيان بأي دليل ينقضها لمناقشته، عادة في مظاهر التشدد الديني أو الاعتقادي أو لمبدأ إيديولوجي أو موضوع غير قابل لفتح النقاش أو الشك فيه، ويقرن عادة بمن لهم مشكلة الزعم بالحقيقة المطلقة. والإقصاء الدوغمائي إقصاء لا يتكى على معرفة أو دليل منطقي إنما على الجزم بالفكرة والجمود وحالة التعصب مع اقترانه أكثر بحمل عقيدة أو اتجاه إيديولوجي ما.

البراغماتية:

المنفعة والمصلحية.

الأدهوقراطية :

مصطلح إداري يعني عكس البيروقراطية، أي الكل بإمكانه اتخاذ القرار بلا هرمية وظيفية. وهي على هذا الأساس تقابل حكم المشورة أو الشورى في النظام السياسي الاسلامي.

_ الكلائية:

فلسفة الدولة المفضية إلى الطغيان أو ما اصطلح عليه بالكلائية وهي طغيان المؤسسة على الفرد. عكس الاستبداد الذي هو طغيان الواحد على الكل.

_ العرفنة:

جعل الأزهر زناد في تعريفه لمفهوم اللسانيات العرفنية، أن العرفنة في مقابل Cognition وهي معروفة في مجال التصوف والتعبد والغنوصية والفلسفات الماورائية. وهي حسب العرفنة نشاط الذهن في عموم مظاهره. التذكر والحلم والإحساس والشعور والتعلم والتخيل وحركات الجسد والفنون كالرقص والتشكيل والرسم.. وكلها معرفة أو طريق لها.

فهرس المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

– نسخة برواية ورش عن نافع.

– نسخة برواية حفص عن عاصم.

تفاسير في القرآن الكريم:

1. أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، دار الجيل، ج4، بيروت، ط1، 1401 هـ.
2. أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج 1، دار الفكر، ط2012،
3. بدر الدين الزركشي، باب ترتيب سور القرآن في المصحف، البرهان في علوم القرآن، بتحقيق أبي الفضل الدمياطي، أحمد علي، دار الحديث للنشر، القاهرة، ط 2006.
4. جلال الدين السيوطي. الاتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1991.
5. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مقدمة محمد بن صالح العثيمين، دار الامام مالك، الجزائر، ط1، 2009.
6. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج1، دار سحنون للنشر، تونس، ط 1997.
7. محمد بن أحمد القرطبي الإمام، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة، ج4، ط1 2006.
8. محمد عابد الجابري، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط6، 2016.
9. محمد عابد الجابري، فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الثاني 2، مركز دراسات الوحدة العربية، ط5، 2014.
10. محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط 4، 2013.

المراجع العربية:

11. إبراهيم الحيدري، النقد بين الحداثة وما بعد الحداثة، دار الساقى، بيروت لبنان، ط1، 2012.
12. إبراهيم انيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5، 1975.
13. أبو الفرج بن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، أول حاكم ديمقراطي في الإسلام، محمد أمين الخانجي، المكتبي، القاهرة، ط1، 1924.
14. أبو عمرو بحر الجاحظ، البيان والتبين، تح عبد السلام هارون مج 2، بيروت، 1948.
15. أبو فتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق الدكتور محمد علي النجا، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، سنة 1976 م.
16. أحمد أبو زيد، التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 19، الرباط، 1992.
17. أحمد بن محمد الكناني العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز ومحمد فواز عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط1، مج 10.
18. أحمد الفراك، فلسفة المشترك الإنساني بين المسلمين والغرب، افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2016.
19. الأزهر زناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، م ث ع، بيروت، ط1، 1993.
20. الأزهر زناد، نظريات لسانية عرفنية، العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، دار محمد علي، لبنان الجزائر تونس، ط1، 2010.
21. إسماعيل مهنانة، الفلسفة العربية المعاصرة، تأليف مجموعة من الأكاديميين العرب، اشراف وتحرير إسماعيل مهنانة، منشورات ضفاف الاختلاف الامان بيروت المغرب الجزائر، ط1 2014.

22. بدر الدين الزركشي، باب ترتيب سور القرآن في المصحف، البرهان في علوم القرآن، بتحقيق أبي الفضل الدمياطي، أحمد علي، دار الحديث للنشر، القاهرة، ط 2006،
23. بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، م ث ع، ط المغرب، ط1، 2001.
24. بشير ربوح، حوارات في رهن الثقافة العربية، إشراف وتنسيق بشير ربوح، منشورات ضفاف بيروت لبنان، الاختلاف الجزائر، دار الأمان المغرب، ط1، 2019.
25. تاريخ النقد عند العرب، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط 1972.
26. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د، ط)، 1986.
27. حسن حنفي وآخرون، فلسفة النقد ونقد الفلسفة في الفكر العربي والغربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2005.
28. حسن حنفي، من النص الى الواقع، ج 1 تكوين النص، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط 2004.
29. حسن عبود، خطاب الصورة الدرامية، منشورات ضفاف، الاختلاف، الأمان، بيروت الجزائر، المغرب.
30. حسين الخشن، الاسلام والعنف، قراءة في ظاهرة التكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2006.
31. حسين جمعة، التقابل الجمالي في النص القرآني، منشورات دار النمير، دمشق، ط1، 2005.
32. حميد لحمداني وآخرون. تحولات الخطاب النقدي المعاصر. عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، (أعمال المؤتمر النقدي الحادي عشر، جامعة اليرموك) 2006.
33. خالد حسين، شؤون العلامات، من التشفير إلى التأويل، دمشق سوريا، ط1، 2008،

34. رياض عبود غوار الديلمي، اللسانيات والصوتيات، جهود في اللغة والتحقيق، دار غيداء للنشر، ط1، 2014.
35. زواخ نعيمة، البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني، دراسة أسلوبية صوتية لسورة الواقعة، كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ط2012.
36. سامر إسلامبولي، القرآن بين اللغة والواقع، دار الأوائل، دمشق، سوريا، ط1، 2005.
37. سعد كموني، العلمنة والأسلمة نعم .. ولكن، م ث ع بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط1 2014.
38. سعيد غانمي، الكنز والتأويل، قراءات في الحكاية العربية، العربية للعلوم لبنان، الاختلاف الجزائر، ط1، 2010.
39. سلامة موسى، حرية الفكر وأبطالها، إدارة الهلال، مصر، د ط، د س.
40. سميح عاطف الزين، خاتم النبيين، محمد صلى الله عليه وسلم، مجمع البيان الحديث، مج 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1983.
41. صبحي ابراهيم الفقي، علم اللغة النصي، بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 القاهرة.
42. صلاح عبد القادر، في العروض والإيقاع الشعري، شركة الأيام، الجزائر، ط1، 1996.
43. طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الانتمانية، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط3، 2013.
44. عاطف الزين، خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، مجمع البيان الحديث، المجلد 1 و 2، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1، 1983.
45. عبد الجليل منقور، النص والتأويل، دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2010.

46. عبد الرحمن بن الجوزي، تاريخ عمر بن الخطاب، محمد أمين الخانجي الكتبي، مصر، ط1، 1924.
47. عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، شركة الشهاب، الجوائز، د، ت.
48. عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ط4، 1986.
49. عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية، صورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، م، ث، ع، بيروت لبنان، ط1، 2001.
50. عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط2، 2003.
51. عبد المنعم حنفي، موسوعة القرآن العظيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2004، ج1.
52. عز الدين عبد السلام، بداية السؤل فيتفضيل الرسول، حققهمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، القاهرة، ط1986.
53. عز الدين اسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992.
54. علي حرب، التأويل والحقيقة، دار التنوير، بيروت لبنان، ط2007.
55. علي حسين الجابري، محنة الإنسان بين العلم والدين والفلسفة، دار نينوى، دمشق سوريا، 2009.
56. علي عبود المحمداوي، الفلسفة الغربية المعاصرة، موسوعة الأبحاث الفلسفية، صناعة العقل الغربي، من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج، مجموعة من الأكاديميين العرب، إعداد: علي عبود المحمداوي، تقديم علي حرب، دار الاختلاف، ضفاف، الأمان الجزائر لبنان، المغرب، ج1 و2، ط1 2013.

57. علي عبود المحمداوي، خطابات الما بعد، في استنفاذ وتعديل المشروعات الفلسفية، مجموعة من المؤلفين، إشراف وتقديم علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف بيروت، الاختلاف، الجزائر، الامان الرباط، ط1 2013.
58. علي عبود المحمداوي، فلسفة الدين، مجموعة مؤلفين، إشراف علي عبود المحمداوي، منشورات ضفاف، الأمان، الاختلاف، بيروت الدار البيضاء الجزائر، ط1 2012.
59. عمر رضا كحالة، المرأة في عالمي العرب والإسلام، ج 6 و7، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1982.
60. المحدث النوري، عن مستدرك وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 1408 هـ، إيران.
61. فارح مسرحي، المواطنة والأنسنة، دار الوطن، سلسلة كتاب الجيب، الجزائر، ط1، 2017.
62. فتح الباري، شرح صحيح البخاري، باب الأطعمة، ج9، دار الكتب العلمية، دت،
63. فريال حسن خليفة، النقد ومستقبل الثقافة العربية، فريال حسن خليفة، دار رؤية القاهرة، ط1، 2013.
64. لونيس بن علي، جدلية العالم والنص بين ادوارد سعيد وبول ريكور، مجلة اللغة والأدب، تصدر عن جامعة الجزائر، ع 22، ط جويلية 2014.
65. ليزلي هازيلتون، قراءة القرآن، حديث مكتوب عن حديث مصور www.Ted.com ترجمة أمينة عياد.
66. مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دارالجيل، بيروت، لبنان.
67. محمد مفتاح، المعنى والدلالة، المكز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط1، 2018.
68. مجدي عزالدين حسن، إشكالية فهم النص الديني الإسلامي، مجلة دراسات فلسفية، الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر عدد 4 أبريل 2015.
69. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط1960.

70. مجيد خدوري، القانون الاسلامي، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط 1975.
71. محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، العالمية الاسلامية الثانية، دار الهادي، بيروت لبنان، ط1، 2004.
72. محمد إشفاق الرحمن الكاندهلوي، الموطأ للإمام مالك، كشف المغطى عن وجه الموطأ، مكتبة البشرى، مج 1، باكستان، 2011.
73. محمد الأوراعي، لسان حضارة القرآن، الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف. الأمان. لبنان. الجزائر. المغرب. ط1. 2010.
74. محمد العبد، حيك النص، منظورات من التراث العربي، مجلة الدراسات اللغوية، الرياض، السعودية، ط2، 2001.
75. محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية، الدار العربية للعلوم ناشرون لبنان، دار الأمان المغرب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2012.
76. محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، ط2008.
77. محمد بن علي بن القاضي التهانوي، كشف اصطلاحات العلوم، تح علي دحروج، لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1996، ج1.
78. محمد حجو، الإنسان وانسجام الكون، العربية للعلوم، الاختلاف، الامان، بيروت الجزائر، المغرب، ط1 2012.
79. محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط1 2006.
80. محمد شحرور، السنة الرسولية والسنة النبوية، رؤية جديدة، دار السّاقى، بيروت لبنان، ط1، 2012.
81. محمد الصوباني، السيرة النبوية، العبيكان، الرياض، ط5، 2014.
82. محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، م ث ع، ط1.

83. مخلوف سيد أحمد، اللغة والمعنى، مقاربات في فلسفة اللغة، اعداد وتقديم: مخلوف سيد أحمد، ومجموعة من الباحثين العرب، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الإختلاف الجزائر، ط1، 2009.
84. مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت الى النص، نحو منهج لدراسة النص الشعري، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2002.
85. مراد عبد الرحمن مبروك، من الصوت الى النص، نحو منهج لدراسة النص الشعري، طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، م ث ع، ط1، 1998.
86. مصطفى ناصف، مسؤولية التأويل، دار السلام للطباعة والنشر، مصر، ط1، 2004.
87. مهدي أسعد عرار، جدل اللفظ والمعنى، دراسة في دلالة الكلمة العربية، عمان، ط1، 2002.
88. وجيه قانصوه، النص الديني في الإسلام، من التفسير إلى التلقي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2011.

كتب أجنبية غير مترجمة

89. Lewandowski theodor, Linguistisches Woerterbuch, Heidelberg, Wiesbaden, 1994s.
90. oxford university press, 1989. 'oxford : advanced learner's Encyclopédie OXFORD
91. charaudeau, Langage et discours, Elements desemiologique, Ed hachette, Paris ,p
92. Jacques Derrida ,Ladissemination ,collection Tel Quel, edition seuil, Paris,1972

كتب أجنبية مترجمة:

93. امبيرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، م ث ع، بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2000.
94. أوشيكو هيزوتسو، الله والانسان في القرآن، ترجمة وتقديم محمد هلال جهاد، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، مارس 2007.
95. إيدوارد سعيد، النص العالم الناقد، تر عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط2000.
96. باروخ اسبينوزا، كتاب علم الأخلاق المنظمة العربية للترجمة، ترجمة جلال الدين سعيد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2009.
97. بول ريكور، فلسفة الإرادة، الانسان الخطاء، تر عدنان نجيب الدين، م ث ع، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط2 2008.
98. بيير، ف، زيماء، التفكيكية، دراسة نقدية، تعريب أسامة الحاج، مجد للطباعة، بيروت، لبنان، ط2.
99. جاك بيرك، إعادة قراءة القرآن، ترجمة منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط2 2005
100. جاك ديريدا انفعالات، تر عزيز توما، دار الحوا، اللاذقية، سوريا، ط1، 2005.
101. جون ستروك، البنوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى ديريدا، تر محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، العدد 206.
102. فان دايك، النص والسياق، تر عبد القادر قنيني، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط 2013.
103. فريديريش نيتشه، هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت، بغداد، ط2، 2006.
104. صمويل هنتجتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، دمشق، ط1، 2005.

105. محمد أركون، العلمنة والدين، الاسلام المسيحية الغرب، دار الساقي، ط1 2013،
106. محمد أركون، الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، لافوميك، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1993.
107. محمد أركون، قراءات في القرآن، الوصية الاخيرة لمحمد أركون، تر: هاشم صالح، دار الساقي، بيروت لبنان، ط1، 2017.
108. محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الطليعة بيروت، ط2 2005.
109. لوك فيريز، الإنسان المؤله أو معنى الحياة، تر محمد هشام، إفريقيا الشرق، المغرب، ط 2002.
110. كوهين، التلمود، عرض شامل للتلمود وتعاليم الحاخاميين، ترجمة جاك مارتى، نقله للعربية سليم طنوس، دار الخيال، بيروت، ط1، 2005.
111. ديان ماكدونيل، مقدمة في نظريات الخطاب، تر عز الدين اسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 2001.
112. دومينيك موديانو، المصطلحات المفاتيح، لتحليل الخطاب، تر محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005.
113. جورج يول، التداولية، تر قصي العتابي عن اكسفورد، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، دار الامان، الدار البيضاء، ط1، 2010.
114. روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والاجراء، تر تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998.
115. نيكولاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، بغداد، ط1 2010.
116. وول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، عصر الإيمان، ج2، مج 4، أشرفت عليه الادارة الثقافية، جامعة الدول العربية.

117. بيارلي قوفيك وكاترين فوك، تر منصف عاشور، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
118. توما دوكونانك، الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، ترجمة منصور القاضي، ط1، 2004.
- مقالات ومجلات:**
119. أحمد الخليلي، بين الثقافة والواقع، مجلة الأحياء، الرباط، العدد 28.
120. هيثم سلامة، حقوق الانسان تكيل بمكيالين، الراي الكويتية، ع ابريل 2010، شوهه أكتوبر 2017.
121. محمود حيدر، الفيلسوف الحائر في الحضارة، مجلة الاستغراب، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، ع 5، خريف 2016،
122. القافلة موقع إلكتروني، Elghavila info بتاريخ 24 مارس 2016 شوهه بتاريخ 2017/11/24 الساعة 19:00.
123. حسن حنفي، القرآن وقيمة الانسان، موقع الحزب الديمقراطي العراقي، مقال نشر بتاريخ ديسمبر 2007، شوهه اكتوبر 2017.
124. منعب العزيز جاب الله، مصطلحات اللسانيات النصية، عن خالد السبكي من النقد المعياري الى التحليل اللساني، عالم الفكر، الكويت، مج3 ع1، ديسمبر 1994.
125. أبو القاسم حاج حمد، المنهجية القرآنية وتصحيح مفاهيم الحاكمية الالهية، مقال ضمن سلسلة ترشيد الصحوه.
126. محمد الهادي الطاهري، النص القرآني في النقد الأدبي الحديث، مجلة دراسات فلسفية، الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، الجزائر، أبريل 2015.
127. مجلة فلسفات معاصرة ع 2009.
128. عبد القادر بن ترار، أفق العيش المشترك من خلال نظرية العدالة لجول رولز، مجلة الناصرية، مج 10، ع1، جوان 2019.
- 129.

المقالات والكتب الإلكترونية:

130. ادريس شرود، نيتشه والإنسان الأخير، مجلة أنفاس، مقال الكتروني، يونيو 2016
تاريخ المشاهدة: 2018/12/12: 23:39
131. مجلة تمثلات، ع2، 2018.
132. حافظ قويعة، محمد مخاطبًا في القرآن، مقال الكتروني، مؤمنون بلا حدود.
133. الاتساق والانسجام، مقال الكتروني، شبكة ألوكة، نشر بتاريخ: 2017 م.
134. نور الدين علوش، قراءة في كتاب مجتمع الاحتقار، مجلة المثقف الإلكترونية.
135. راتب النابلسي، موسوعة النابلسي الإلكترونية.
136. السبك والحبك، معين بن محمد، مقال الكترون، منتدى الخيمة، نشر بتاريخ
2005/09/27، Muntada.khaym.com.
137. فوزية دندوقة، التوزيعية أسس وإنجازات، مقال الكتروني، عرض بتاريخ 11 /12 /
2013.
138. بشير بيريير، عن لسانيات النص من الحملة الى النص، بشير بيريير، مقال بالموقع
الإلكتروني: PSY-C.OGNIVE
الخطابات المصورة:
139. أركون محمد، لقاء مصور للمفكر محمد أركون حول مفهوم الجهل الجديد. الخطاب
في شكل فيديو على موقع اليوتوب، ويوجد أيضا في شكل نص مترجم أسفل الفيديو.
140. ليزلي هزلتون، خطاب مصور عن سيرة محمد والكاتبة كانت تحضر كتابا في سيرة
محمد صلى الله عليه وسلم، www، Ted، comترجمة أمينة عياد.
141. خديجة إيكير، مقدمة رسالة الدكتوراه المقدمة للمناقشة بتاريخ، بكلية الآداب والعلوم
الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة المغرب، في موضوع: " لسانيات الخطاب
القرآني: مظاهر الاتساق والانسجام"، 28 ماي 2007م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الإهداء

كلمة شكر

مقدمة : أ

تصدير مفهومي:..... 11

الباب الأول:الانسجام البين نصّي/الذاتي: أسئلة بناء النص/ أسئلة بناء

الذات 26

الفصل الأول: انسجام: الكل_ الجزء انسجام النص القرآني/ الجزء _ السورة _ الآية.. 27

1_ انسجام الكل _ الجزء: 28

1_1_ ما الانسجام؟Coherence!؟وما الاتساق؟Cohésion؟..... 28

1_2_ ثنائية الانسجام/ الاتساق: Coherence/ Cohésion 29

1_3_ النص _ النسق: 32

1_4_ تشاكل النص مع النص:..... 34

1_5_ الفواتح والخواتم القرآنية: 37

أ_ تحقق الاتصال بالانفصال:..... 37

ب_ في العنوان والتسمية إحاطة واحتواء: 42

ج_ القرآن تعدد أسماء، اختلاف سور وكتاب واحد: 47

1_6_ انسجام النص بالنص: 51

1_7_ ترتيب سور القرآن: 54

1_8_ بنية الخطاب القرآني: بين الاختلاف والاتفاق:..... 56

59 الفصل الثاني: الإنسجام الإيقاعي

1_ الإيقاع في النص القرآني: 60

1-1- اتزان الشكل/ اتزان للمعنى؛ توازن للنص: 60

2_ انسجام النص/ الصوت والإيقاع: 69

أ_ النص القرآني مرتكزا على الواو والنون: 69

ب_ الخطاب القرآني من المكتوب إلى المؤدى صوتيا: 75

ج_ القرآن: خطاب قراءة وترتيل/ فهم وتأويل: 82

90 الفصل الثالث: الخطاب القرآني الاتزان بين اللغة والمعنى

1_ الاتزان بين مساحة القول ومساحة الفعل 91

2_ النص مستحضرا للقارئ العام: 94

3_ مسافة_ مساحة النص وجهد القارئ: 96

4_ البلاغة اختيار دلالي يتناسب مع الخطاب أم ترف لغوي؟ 97

5_ توازن النص مبنى ومعنى: 99

104 الباب الثاني: الخطاب القرآني من أسئلة بناء الذات إلى أسئلة بناء الكون

105 الفصل الأول: الحواس وصل النص بالعالم من خطاب الحواس_ نحو خطاب العقل

1_ من خطاب الحواس إلى خطاب العقل: 106

أ_ النص والحواس وعقل المسلمات: 107

ب_ النص والحواس فهم العالم وعقله: 111

(السمع والبصر والفؤاد): الحواس العاقلة: 111

116	2_ الجسد وفهم الخطاب:
118	3_ النص/ الجسد/ الشعائر:
121	4_ تأدية النص / مسرحته:
121	أ_ التّواصل الشفوي للخطاب القرآني:
122	ب_ جسدة النص:
127	الفصل الثاني: من خطاب العقل نحو خطاب الروح
128	1_ إيداع مفاتيح المعرفة والإدراك في الإنسان:
137	2_ الخطاب القرآني خطاب الروح:
140	3_ ترويض الحواس:
152	الفصل الثالث:النص_ الرّسول والآخِر
153	1_ الرسالة/ الوحي:
156	2_ الرسول: النص الوسيط:
157	3_ البشري في الإسلام (الرسول الإمام، الفرد) خطاب مؤدى:
169	4_ النبوة، الإنسان والعالم/اختلالٌ وتوازنٌ القوة والهشاشة:
180	الباب الثالث: الخطاب القرآني/ الديني التماثل والاختلاف
181	الفصل الأول: النّص والواقِع
182	1_ الخطاب القرآني، الإنسان والعالم:
184	2_ النص_ السيرة والمشارك الإنساني:

207..... الفصل الثاني:الخطاب القرآني بين التأول والتأويل

208 1_ النص بين التأول والتأويل:

208 أ_ الخلافة والإمامة شكلان لقراءة النص:

212 ب_ النص/ الخليفة— النص/ الإمام:

214 2_ الإمام والخليفة:

214 أ_ سلطة الوسيط بين النص والواقع:

216 ب_ الخطاب القرآني ونفي التقديس والسلطة:

218 3_ الخلافة، الإمامة والتفسير وجها لتأويل النص والعالم:

231..... الفصل الثالث: النص والعالم

232 1_ اللغة وفهم العالم:

238 3_ الدعاء: اللغة وقلب العالم:

240 4_ النص والواقع الغيبي:

242 5_ الزمان والمكان المتخيل:

247 6_ الواقع __ عالم الخطاب:

250 7_ النص والكون:

251 1_7_ النص: العولمة/ الأسلمة:

252 2_7_ تغيير العالم __ تغيير المعجم

253 أ_ الكلمة — المعجم القرآني:

255 ب_ في المفهوم وتغير المفهوم:

ج_ النص الثابت — الوعي المتجدد 257

د_ جغرافيا نص واحدة —عوامل متفرقة: 257

الخاتمة..... 258

ملاحق:..... 258